جريمتا واجهة العرض

جون هازليت فاهي

ترجمة رشا صلاح الدخاخني

جريمتا واجهة العرض

تأليف
جون هازليت فاهي

ترجمة
رشا صلاح الدخاخني

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

جريمتا واجهة العرض

The Shop Window Murders

جون هازليت فاهي

John Haslette Vahey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٢٨٥٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة	٧
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	٢١
الفصل الثالث	٢٩
الفصل الرابع	٣٩
الفصل الخامس	٤٧
الفصل السادس	٥٥
الفصل السابع	٦٣
الفصل الثامن	٧١
الفصل التاسع	٧٩
الفصل العاشر	٨٧
الفصل الحادي عشر	٩٥
الفصل الثاني عشر	١٠٣
الفصل الثالث عشر	١١٧
الفصل الرابع عشر	١٢٣
الفصل الخامس عشر	١٣١
الفصل السادس عشر	١٣٩
الفصل السابع عشر	١٤٧
الفصل الثامن عشر	١٥٣
الفصل التاسع عشر	١٦٣

الفصل العشرون ١٧١
الفصل الحادي والعشرون ١٧٧
الفصل الثاني والعشرون ١٨٧
الفصل الثالث والعشرون ١٩٥
الفصل الرابع والعشرون ٢٠٣
الفصل الخامس والعشرون ٢١٣
الفصل السادس والعشرون ٢٢٣
الفصل السابع والعشرون ٢٢٧

مقدمة

فيرنون لودر هو مؤلف شهير غزير الإنتاج من العصر الذهبي للأدب البوليسي وروايات الجاسوسية التي تفيض بالغموض والإثارة. ألَّف لودر ٢٢ رواية خلال العقد الممتد بين عامَي ١٩٢٨ و١٩٣٨. ولذا، نفدت طبعات روايات لودر وأُغفلت إلى حدٍّ كبير. ولحسن الحظ أن اتجاه النشر قد تغيَّر مؤخرًا. ففي عامَي ٢٠١٣ و٢٠١٤، تناول اثنان من مُحللي الروايات البوليسية البارزين، هما كيرتس إيفانز وجيه إف نوريس، عددًا من الروايات الأولى التي ألَّفها لودر؛ إذ عرَضها الأخير في سلسلة من المراجعات المشجعة على القراءة. تبع ذلك موجة من الإصدارات الإلكترونية لقصص لودر. ولكن لم تَعُد أعمال لودر إلى الطباعة مرةً أخرى منذ آخر مرة طُبعت فيها في ثلاثينيات القرن الماضي إلا في عام ٢٠١٦، حين أُعيد نشر أولى رواياته بعنوان «لغز ستو» (١٩٢٨) كأحد أعمال سلسلة «كولينز ديتكتيف ستوري كلوب» لإعادة طبع القصص البوليسية. وفي مقدمة الطبعة الأصلية، أشاد محرر السلسلة، فريد تي سميث، بلودر باعتباره «واحدًا من المؤلفين الواعدين المنضمين حديثًا إلى صفوف كُتَّاب القصص البوليسية.»

كانت هذه الرواية هي الرواية الرابعة للودر (١٩٣٠)، بعد إصداره روايات: «لغز ستو» (١٩٢٨)، «يد من؟» (١٩٢٩)، «لغز المزهرية» (١٩٢٩). نشرتها دار كولينز للنشر في المملكة المتحدة، وأصدرتها دار مورو للنشر في الولايات المتحدة بالعنوان نفسه. حبكة القصة مثيرة واستثنائية، وتُعَد واحدة من أكثر الحبكات الدرامية المبتكرة للودر. وتدور أحداثها في متجر ماندر المتعدد الأقسام في منطقة ويست إند بلندن (على غرار متجر سيلفريدجز بشارع أكسفورد)، الذي يملكه توبياس ماندر ويشتهر بنوافذ عرضه المبهرة. في وقت مبكر من صباح أحد أيام الإثنين، يتجمهر المارَّة أمام واجهة العرض لمشاهدة رفع ستائرها عن المعروضات الأسبوعية الجديدة؛ ولكن سرعان ما يدرك المتفرجون أن

أحد تماثيل العرض الشمعية ما هو إلا جثة بشرية، مصابة بطلق ناري وموضوعة وسط التماثيل الأخرى المعروضة في واجهة العرض. وبعد مرور فترة قصيرة، تُكتشف ضحية ثانية، ومن هذا المشهد الصادم يبدأ لغز محير وغامض. هل كانت هذه جريمة قتل وانتحار، أم جريمة قتل مزدوجة؟

يضع لودر قائمة كبيرة ومتنوعة من المشتبه بهم، كلٌّ منهم لديه دافع لارتكاب الجريمة. وعلاوة على مزيج سام من دوافع الغيرة والخوف والذعر والغضب، يضيف لودر للقصة المزيد من التفاصيل المفعمة والمتزاحمة من خلال ملابسات غريبة وقرائن غامضة، مستعرضًا مؤامرة شيطانية معقدة.

تثير القضية سؤالًا جوهريًّا: لماذا ترك مرتكب الجريمتين وراءه الكثير من القرائن والشواهد؟ هل كان هذا انعكاسًا لعقل مُشوَّش؟ أم كانت هذه محاولة مُتعمَّدة وماكرة لإرباك الشرطة من خلال ترك مجموعة من المشتتات والزوايا المختلفة التي أقحمت المزيد والمزيد من الشخصيات في الجريمة مما صعَّب عملية تحديد دليل الإدانة؟

تولَّى إجراء تحقيقات الشرطة المحقق ديفينش من شرطة سكوتلانديارد، الذي سجل ظهوره الوحيد في هذه الرواية فقط من قائمة الروايات البوليسية التي تركها لودر. يتمتع ديفينش بالذكاء والبراعة والصلابة والسعي الذي لا يتوقف. وهو يتحلى ببوصلة أخلاقية قوية؛ إذ لا يُلقي بالًا إلى من يكذبون عند استجوابهم، لا سيما أولئك المبتزين المشتبه فيهم. وهو يتحمَّل المسئولية بالكامل وبثبات على طول الطريق؛ إذ يتابع القضية بكدٍّ واجتهاد مبهر وانهماك تامٍّ؛ رغم أن قدراته الخارقة في الاستنباط تأتي بوجه عامٍّ نتيجة لبذل الجهد. ومن منطلق هذه الخصال ربما يكون ديفينش مشابهًا للمحقق الشهير فرنش الذي ابتكر شخصيته الكاتب فريمان ويلز كروفتس. وهو لا يتصف بأيٍّ من السمات الغريبة الأطوار التي أسبلها لودر على بعض محققي الشرطة الآخرين، مثل مفوض الشرطة المحبوب كوبهام في رواية «يد من؟» (١٩٢٩)، والذي يُضلِّل المشتبه بهم عن عمد بإعطائهم شعورًا زائفًا بالأمان من خلال التظاهر بكونه مُتخبِّطًا شاردَ الذهن (على غرار المحقق التلفزيوني كولومبو)، والذي يدندن كثيرًا أثناء التحقيق، متنقلًا بين الأنغام الأوبرالية وأنغام قاعات الموسيقى. يصف لودر ديفينش بأنه «رجل نحيف طويل القامة، ذو شعر داكن وعينين داكنتين وبشرة داكنة، ربما يحسبه المرء مواطنًا من جنوب إيطاليا.» وما دون ذلك، لا نعرف شيئًا آخر عن خلفية ديفينش أو حياته الشخصية، ولا حتى اسمه الأول. ولا يوجد محقق هاوٍ متاح لينافس الشرطة أو يربكها. فيعمل ديفينش بمفرده، ويساعده الرقيب

ديفيز ورئيسه هو السيد ميليس، مساعد مفوض الشرطة. أما ميليس فهو شخص كَيْس ودمث ونقيُّ السريرة، يغلب عليه طابَع ممثل هاوٍ. غير أن أفكاره عن القضية غالبًا ما يتبين أنها ذكية ومبتكرة؛ لتوفر بذلك البذرة التي يستخرج منها ديفينش فرضيَّاته العملية.

وتأتي النهاية مفاجئة ولا يَسهُل توقُّعها على الإطلاق. غير أنها معقولة ومنطقية، على الرغم من أن جزءًا منها قائم على التخمينات. وتوضح أن الحبكة الدرامية مُتقَنة على نحوٍ محكم بالنسبة إلى القارئ الذي يستطيع متابعة الإلماعات والإشارات طَوال أحداث الرواية. فعادةً ما يصور لودر الأوغاد يقعون فريسة في شباك مؤامراتهم وفي هذه الرواية يفعل الشيء نفسه. كذلك يغلب على الأحداث إحساس بالمأساة، مأساة شبه كوميدية، تؤثر على المعنيين بها مباشرة. تنطوي إحدى جريمتي القتل في هذه الرواية على أسلوب قتل لوحظ في روايات لودر الأخرى. أما الجريمة الأخرى فتنذر بأحداث جريمة القتل التي قُدمت في روايته «السقوط المميت» (١٩٣٩)، التي شارك في تأليفها جون ديكسون كار (الذي كان يكتب تحت اسم كارتر ديكسون) وجون رود.

تُعد هذه الرواية مثالًا ممتعًا وذا حبكة ثرية للعصر الذهبي للروايات البوليسية. فالجريمتان الغريبتان والاستثنائيتان تجعلانها واحدةً من أفضل روايات فيرنون البوليسية لِما تنطوي عليه من أحداث محيرة وإبداع. ويتسم السرد بكونه مباشرًا وخفيفًا ومفعمًا بالحركة، والتسلسل المعقد للأحداث ممتع جدًّا وجيد الصياغة ويسير بوتيرة سريعة. ويولي لودر اهتمامًا شديدًا للحبكة الدرامية التي عمل عليها بعناية وصاغها على نحوٍ مُعقَّد. وقد أشادت الشاعرة دوروثي إل سايرز ببراعة لودر في ابتكار «صور وصفية براقة ورائعة» بارعة وثاقبة للشخصيات في مراجعتها لرواية لودر «جريمة من ثلاث زاويا» (١٩٣٤)، كما يتضح في شخصية ميليس الذي يُعد مثالًا جيدًا على هذه الشخصيات. فقد ساعد مزيج الملاحظات الطريفة المتقنة والحس الفكاهي على تخفيف حدَّة الكآبة في الحكاية. فنجد لودر هنا يصف معجبة ماندر العجوز بقوله: «لم يَبدُ عليها أنها امرأة لعوب، رغم محاولاتها الواضحة للحفاظ على شبابها البائد بارتداء التنورات.» وبوجه عام، توضح هذه الرواية الثقة والنضج اللذين يتسم بهما أسلوب لودر في الكتابة ككاتب من كُتَّاب أدب الجريمة.

جذبت أوجه التشابه المذهلة بين هذه الرواية ورواية «لغز المسحوق الفرنسي» وبطلها إليري كوين — التي نُشرت أيضًا في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في عام ١٩٣٠ — اهتمامًا خاصًّا من جانب هواة العصر الذهبي للروايات البوليسية. كانت رواية «لغز المسحوق الفرنسي» هي الرواية الثانية التي يظهر فيها إليري كوين، بعد عام من ظهوره

الناجح الأول في رواية «لغز القبعة الرومانية». تبدأ رواية كوين الثانية مباشرة تقريبًا بجريمة قتل؛ إذ نجد ديكورًا داخل واجهة العرض الأساسية لمتجر فرنسي متعدد الأقسام بوسط مدينة نيويورك يعرض بعض قطع الأثاث والكماليات العصرية، وبالخارج يقف حشد من الجمهور يشاهدون المعروضات. وعند الضغط على زر للكشف عن سرير قابل للطي مختفٍ داخل الحائط، تسقط جثة زوجة صاحب المتجر من فوقه. وتتواصل أوجه التشابه بين الروايتين: فصاحب المتجر يمتلك شقة خاصة فوق المتجر كانت الضحية قد زارتها في وقت متأخر في إحدى الليالي عندما كان المتجر مغلقًا. وثمة أدلة عجيبة وغير مفسرة، واكتشافات غريبة لأغراض غير مألوفة وُجدت في غير مكانها المعتاد، وعدد كبير من الدوافع وحجج الغياب. والحبكة الدرامية بارعة، لدرجة تكاد تقترب من التعقيد الشديد والالتفاف. وتخضع كل حقيقة وقرينة مهما صغرت إلى الدراسة والمناقشة وتُستبعد (في أغلب الأحوال) بمنطق استدلالي وتفكير استنتاجي رائع. وهذا النهج العقلاني الدقيق مُستقًى من شخصية المحقق الشهير فيلو فانس في روايات إس إس فان داين البوليسية. وقد أفاض الناقد الأدبي البارز أنطوني باوتشر في إشادته بذروة الأحداث واصفًا إياها بكونها «على الأرجح أروع نهاية مُحكَمة البناء في تاريخ القصص البوليسية.» وعلى غرار أسلوب كوين المميز الذي يمثل «تحديًا للقارئ»، تضم الرواية ٣٥ صفحة تقدم تفسيرًا مُحكَم الصياغة، ولا تنكشف هُويَّة القاتل إلا في آخر كلمتين بالرواية. كان إليري كوين هو الاسم المستعار للشخصية الرئيسة في أعمال المؤلِفَين فريد داناي ومانفريد لي، وهما قريبان من مقاطعة بروكلين. ووفقًا لكاتب سيرتيهما الذاتية فرانسيس إم نيفينز، استوحى أحد المؤلِفَين أحداث الرواية بعدما مرَّ من أمام واجهة عرض أحد المتاجر المتعددة الأقسام في مانهاتن وتوقَّف ليشاهد معروضات مفروشات الشقق العصرية التي كان من بينها سرير قابل للطي. ولا يمكن تحديد إذا ما كان لودر أم كوين هو أول من ابتكر فكرة وقوع جريمة قتل داخل واجهة العرض؛ إلا أن أوجه التشابه بين القصتين وتاريخَي النشر المتقاربين هي بالتأكيد مصادفة استثنائية لافتة للنظر.

كان اسم فيرنون لودر أحد الأسماء المستعارة العديدة التي استخدمها المؤلف الأنجلو-أيرلندي صاحب الإنتاج الغزير والمتنوع جاك فاهي (جون جورج هازليت فاهي)، (١٨٨١–١٩٣٨). وبالإضافة إلى قائمة أعمال لودر على مدى الفترة بين عامَي ١٩٢٨ و١٩٣٨، ألَّف فاهي في البداية تحت اسم جون هاسليت من عام ١٩٠٩ وحتى ١٩١٦، واستأنف الكتابة في عشرينيات القرن العشرين تحت أسماء أنطوني لاج وجورج فارني

وجون موبراي ووالتر براودفوت وهنريتا كلاندون. وُلدَ جون فاهي في مدينة بلفاست، وتلقَّى تعليمه في أولستر وفي هانوفر بألمانيا لفترة قصيرة. بدأ حياته العملية كطالب هندسة معمارية، ولكن بعد مرور أربع سنوات قام بتغيير مساره المهني وخضع لاختبارات مهنية لكي يصير محاسبًا قانونيًّا. ولكن ترك فاهي هذا المسار المهني أيضًا بعد أن عمل بتأليف القصص. وتزوج من جيرترود كرو واستقر بمدينة بورنماوث الإنجليزية بالساحل الجنوبي. وانتهى مشواره المهني في التأليف فجأة بوفاته في سنٍّ صغيرة نسبيًّا؛ إذ كان يبلغ من العمر ٥٧ عامًا.

نُشرت جميع روايات لودر من خلال دار نشر كولينز في المملكة المتحدة، ومنذ عام ١٩٣٠ نُشرت أعماله من القصص البوليسية تحت الاسم التجاري «نادي الجريمة» الذي تشتهر به هذه الدار. ونُشر العديد من رواياته الأولى (بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣١) أيضًا في الولايات المتحدة من خلال دار نشر مورو، بعناوين مختلفة أحيانًا. ويذكر الناشر في مقالة تعريفية قصيرة عن لودر، نُشرت في رواية «قتيلان» (عام ١٩٣٤)، أن محاولته الأولى لتأليف رواية (من الواضح أنها لم تنشر مطلقًا) جاءت خلال فترة تعافيه في الفراش. وثمة الكثير من المزاعم اللافتة للنظر التي أُثيرت حول لودر؛ إذ قيل إنه ألَّف إحدى الروايات على طاولة نُزل في عشرين يومًا، ونُشرت على هيئة حلقات في كلٍّ من إنجلترا والولايات المتحدة تحت عناوين مختلفة؛ وإنه كان يعمل بسرعة بالغة، وكان يؤمن بأن ساعتين في الصباح هي فترة كافية جدًّا لأي شخص كي يؤلف؛ وإنه كان يؤلف مباشرة على الآلة الكاتبة، ولا يعيد أبدًا كتابة أي سطر. ومدى صحة هذه المزاعم — أو جدارتها بالثناء في الواقع — هي مسألة خاضعة للحدس والتخمين.

كان لدى لودر عدة محققين تَكرَّر ظهورهم في أعماله. فعلى سبيل المثال، يُعد المحقق بروز وكبير المحققين تشيس شخصيتين متناقضتين تمامًا؛ فالأول شرطي محلي مُتبلِّد باردُ الطبع، يؤكد على أهمية الروتين؛ أما الأخير فهو محقق جديد شديدُ الكفاءة من صنيعة قسم التحقيقات الجنائية بسكوتلانديارد. يظهر بروز في رواية «جرائم إيسيكس» (١٩٣٠) ورواية «مقتل محرر» (١٩٣١)؛ بينما نجد تشيس في رواية «جريمة من ثلاث زوايا» (١٩٣٤) ورواية «جريمة في مسابقة الخيول» (١٩٣٥). وفي رواياته الجاسوسية اللاحقة — «سفينة الأسرار» (١٩٣٦)، و«رجال بوجهين» (١٩٣٧)، و«ذئب في حظيرة الخراف» (١٩٣٨) التي نُشرت تحت اسم تِجاري منفصل هو «ألغاز كولينز» — كان بطل لودر هو دونالد كيرن، عميل مخابرات بريطانية شارك في سلسلة من المغامرات المثيرة للإيقاع بالجواسيس عبر القارات في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية.

لم يصل لودر أبدًا إلى المرتبة الأولى بين روائيِّي الأدب البوليسي، ولم يلقَ اهتمامًا كبيرًا من جانب مُحللي هذا النوع الأدبي. ولكنه على الرغم من ذلك كان مؤلفًا ذائعَ الصِّيت وجديرًا بالثقة في ثلاثينيات القرن العشرين، وربما كان مثالًا لكُتَّاب الإثارة والغموض في العصر الذهبي الإنجليزي، متفوقًا بذلك على الكثيرين. وتوضح أغلفة النسخ الأصلية الصادرة عن دار نشر كولينز أن أعمال لودر قد لقيَت حفاوةً من قِبل النقاد؛ إذ جاءت الإشادات به على هذا النحو: «يجب أن يشتهر اسم السيد لودر على نطاق واسع باعتباره علامة مميزة وواعدة على أغلفة القصص البوليسية.» (الملحق الأدبي لجريدة «تايمز»)؛ «الكتب المتوالية لفيرنون لودر تؤكد الانطباع الذي كوَّنه هذا الناقد بأننا ليس لدينا في إنجلترا كاتبٌ أفضل من لودر في تأليف قصص الإثارة والغموض.» (جريدة «صنداي ميركوري»)؛ «... أسلوب سلس في السرد القصصي والتزام دقيق بالقواعد.» (توركومادا من جريدة «ذا أوبزرفر»). وفي عام ٢٠١٤، كتب جي إف نوريس: «... انتبه لأي كتب تحمل على غِلافها الاسم المستعار فيرنون لودر. فهي تتيح لك تجربةَ قراءة ممتعة وتختلف عن القصص البوليسية التقليدية لأقرانه كاختلاف الشامبانيا عن الصودا.»

ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين، نفدت أعمال لودر ولم تَعُد تُطبع، وصارت أعماله إلى حدٍّ كبير هدفًا لجامعي كتب العصر الذهبي — الذين كان له بينهم أتباع — التي كانت الطبعات الأولى النادرة منها تُباع بأسعارٍ باهظة. ويُفترض أن يساعد إعادة نشر هذه الرواية، إلى جانب رواية «لغز ستو» إلكترونيًّا، في إعادة اكتشاف أعمال لودر من جديد واكتسابه قاعدة جديدة أوسع من القراء وهو أمر يستحقه عن جدارة.

نايجل موس
مارس ٢٠١٨

الفصل الأول

كان متجر السيد توبياس ماندر الجديد في شارع جافيكين ستريت يُمثِّل تحفة رائعة للجمهور من الألف إلى الياء. فمنذ اللحظة التي تخيل فيها هذا الرجل شبه المغمور القادم من غرب إنجلترا فكرةَ متجرٍ من شأنه أن يتفوق على جميع المتاجر الأخرى بالجمع بين الأسعار الرخيصة والفخامة، رأى أحد وكلاء الدعاية ذوي الأجور المرتفعة أن الدولة ينبغي أن تشارك على نحو غير مباشر في هذا الصرح في البناء والتجهيزات.

نُشرت خطط هذا المشروع على الصفحات الأولى بجميع الصحف الشهيرة، وأُوردت كل مرحلة من مراحل عملية البناء مصحوبة بالرسومات البيانية، وصور للمهندس المعماري (الذي يحمل أحد ألقاب النبالة)، وأوصاف جميع الشركات الكبرى المساهمة في عناصر الجمال والأناقة الأساسية وتجهيزات المتجر الشهير المُزمَع تأسيسه.

غير أن السيد توبياس نفسه ظل بعيدًا عن الكاميرات ومتواريًا عن الظهور طَوال هذه الحملة الدعائية، ولم يستطع أحد حتى أن يُخمِّن على نحو دقيق إلى أي نمط ينتمي هذا الرجل، حتى افتُتح المتجر على أنغام الأبواق الصادحة وفي حفل افتتاح باذخ الترف.

ولهذا الغرض، حضر كل ذوي النفوذ والحيثية. وحتى الأشخاص الذين اعتادوا أن يسخروا من هذه الأجواء خفيةً، تناسَوا مبادئهم، وتزاحموا على الافتتاح؛ وحتى الممثلات ذوات الألقاب (المعروف عنهن العزلة بدافع الغرور) كنَّ بين الحشود.

عندما ظهر توبياس أمام الجمهور لأول مرة، رأى الناس أنه ربما يكون سمسارًا ناجحًا في البورصة أو وكيل مراهنات عبقريًّا أو تاجرًا متقاعدًا من سوق سميثفيلد. كان رجلًا متوسط الطول ذا بشَرةٍ نضرة للغاية، وعينين زرقاوين زائغتين، يميل إلى البدانة، ويرتدي دومًا سراويلَ مُقلَّمة شديدة السواد، ومِعطفًا صباحيًّا وصدرية، وقميصًا أبيض خفيفًا، ونظارة أحادية العدسة لا تعرف طريقها إلى عينه أبدًا بأي حال.

وصفَه المُحنَّكون من الرجال بأنه «وغْدٌ محب للصخب»؛ أما النساء فقد تباينت آراؤهن بشأنه. فبعضهن رأينه وسيمًا، به شيء من الابتذال، وبعضهن رأينه مبتذلًا، به شيء من الوسامة؛ بينما أعلن بعضهن، ممن التقت أعينهن بعينيه الزرقاوَين الزائغتَين ورأين بريقهما، افتتانهن بسحره.

ثمة شيء واحد جعلَه مختلفًا عن أغلب الرجال من أمثاله، وهي حقيقة أنه يعيش داخل مقر عمله. إنَّ وصف الشقة البالغة الفخامة الواقعة في الطابَق العُلوي بكونها «مقرَّ عمل» لَهُو تقليلٌ من حقيقتها. ولكن لا شكَّ أن السيد ماندر قد اتَّخذ مسكنه بين جدران هذا المتجر.

كانت إحدى المغامرات المثيرة التي سلَب بها ألبابَ أهل لندن، بعد مرور بضعة أشهر على افتتاح المتجر، هي طائرة جايروكوبتر جديدة. لم يعرف أحد اسم المخترع، ولكن وقعت مشكلة ذات يوم حين حامت عبْر سماء لندن، وهبطَت بدقة بالغة على سطح الشقة الذي يُغطِّي المتجر. سُميت الطائرة بـ «واثبة ماندر»، إلا أن تلك الرحلة تحديدًا لاقت استهجانًا من السلطات التي لم تقتنع بأن وجود الطائرات على أسطح مباني المدينة أمرٌ آمِن تمامًا. ولكن الملاحقة الحتمية من جانب السلطات أضافت المزيد من الشهرة إلى ماندر ومتجره، وفيما بعد قال كثيرون إنهم سمعوا محركات الطائرة ليلًا، وزعموا أنهم رأوا الرجل الضخم يهبط أحيانًا بها على سطح شقته بعد حلول الظلام.

لم يكن ثمة سبب يُلزمه بعدم القيام بذلك، باستثناء القوانين التي عفَّى عليها الزمن؛ إذ أثبتت «واثبة ماندر» أنها الطائرة الجايروكوبتر التي يبحث عنها الجمهور، وأن القسم الذي يخزن ويبيع «الطائرة التي يمكنك أن تطويَها وتضعها في غرفة، والهبوط بها في ملعب تنس» كان واحدًا من أكثر الأقسام ربحًا في المتجر بأكمله. وكما قال أحد الطيارين المُحنَّكين إن «الواثبة هي الطائرة التي تضمن لك قمة الأمان.»

كانت واجهات العرض بالمتجر ضخمة، وتتغير كلُّ واحدةٍ منها بصفة أسبوعية. وهناك لا ترى تماثيل العرض الشمعية تقف في عزلة، بل معروضة بصورة طبيعية في غرفة مع خلفية مسرحية مناسبة إذا جاز التعبير. ويتم الإعلان عن محتويات كلِّ واجهةِ عرض في صحف يوم الأحد، بحيث يعرف الجمهور المتلهف أين يبحث عن الأشياء الجديدة عندما تُزاح الستائر في صباح يوم الإثنين.

لم يكن المتجر يعتمد على واجهة عرض ثابتة مضاءة بإضاءة كهربائية طَوال الليل. ومع الالتفات إلى ذلك التجديد الغريب الذي ساعده كثيرًا في تعظيم مشروعه، أوضح السيد ماندر لأحد الصحفيين (الذي أوضح بدَوره للجمهور المبتهج) السببَ وراء ذلك.

فقد أخبر الرجل قائلًا: «إنه منزلي، كما ترى. وقد وضعتُ لنفسي قاعدة، وهي أن أُخرج العمل من رأسي بمجرد الانتهاء منه. وفي المساء، وخلالَ عُطلات نهاية الأسبوع، يكون المتجر متجري اسمًا فقط، وأنت لا ترفع الستائر، وتترك الأنوار مضاءة، في المنازل الخاصة أثناء الليل.»

خلالَ الأسبوع الأول من شهر نوفمبر، تحدثت صحف يوم الأحد عن موسم الملابس التنكرية، وانتقل الكُتَّاب بكل مهارة من العام إلى الخاص، وذكروا أن واجهة العرض الأساسية في الجزء الرئيسي من متجر ماندر «ستعرض» في اليوم التالي مجموعةً رائعةً من الملابس التنكرية، صُنعت بسواعد عمال إنجليز، وبخامات إنجليزية، وبأيدي مصممين إنجليز.

في أي ساعة من الليل أو النهار، يوجد في لندن دائمًا عددٌ من الأشخاص ممن ليس لديهم مهنة واضحة — ولديهم فضول شديد تجاه أي شيء جديد — يكفي لتكوين حشدٍ غفيرٍ على الأرصفة. وفي الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، كان أمام متاجر ماندر ثلاثة صفوف من المتفرجين، ظلت أعدادهم تتزايد مع توافُد متفرجين جُدد. صحيح أن الكثير منهم لم يكونوا من الطبقة المرجح أن ترتديَ الملابس التنكرية، إلا أنهم جميعًا ثبَّتوا أعينهم بشدة على الستائر الضخمة التي تحجب وراءها الروائع البديعة بعيدًا عن الأنظار.

وفي تمام الساعة التاسعة، حرَّك أحد الرجال الماكينة التي ترفع الستار، وفي الحال تعالت صيحات التعجب والاستحسان المبتذلة ممزوجةً بصيحات حماسٍ أكثرَ تهذيبًا من الجمهور المُتحضِّر.

كانت مساحة الأرضية داخل واجهة العرض مُزيَّنة كأرضية قاعة رقص، وفي الخلفية كانت توجد فرقة من تماثيل العرض المصنوعة من الشمع تجلس وكأنها في فترة استراحة. كانت اللحظة التي يُصوِّرها المشهد عبارة عن فاصل بين الرقصات، وكان هناك على الأقل أربعون زوجًا من تماثيل العرض يقفون على الأرضية مرتدين أحدث صيحات الأزياء، أو يستندون إلى الجدران في وضعيات متحررة شبه حقيقية كأنها حية.

ولكن كان ثمة استثناء للقاعدة؛ ففي حين أنَّ أغلبَ الحشود المجتمعة خارج المتجر كانت منبهرة بأصالة المعروضات، فقد اكتشف الأمرَ واحد من العوام، بنَّاءٌ ضئيلُ البنية أصْهبُ الشعر، كان يقف على الطرَف.

قال مستهجنًا: «عجبًا! ربما يكون هذا إبداعًا من وجهة نظرِ مَن أعملُ لديهم؛ ولكني لا أُسمِّي هذا إبداعًا!»

قال أحد الواقفين بجواره: «من المفترض أن هذا التمثال لميكانيكي سيارات.»

ردَّ عليه بحزم: «وماذا إن كان كذلك فعلًا؟ ميكانيكيو السيارات ليسوا بالشيء المبتكر!»

وعلى الفور، لفتَ التمثال الذي يرتدي بِزَّة عملٍ زرقاء جميعَ الأنظار إليه. لم يكن أنيقًا ولم يكن معروضًا بأناقة، كما هو الحال مع باقي المعروضات في تلك الواجهة. وكان به شيء آخر أثار صرخةَ ذُعرٍ مفاجئة من جانب إحدى الواقفات بين الحشود، لتنهار وتغيب عن الوعي.

في ذلك الوقت، كان أغلب المتفرجين يتزاحمون حول السيدة المغشيِّ عليها مُتيحين لها أقل قدْرٍ ممكن من الهواء. أمَّا العدد القليل الذي ظلَّ واقفًا أمام واجهة العرض فأخذوا يلهثون ويحدقون، أو يرتجفون. فقد كان هناك فارق بين أروع تماثيل العرض الشمعية وبين شكل جثة رجلٍ راقدة بجواره.

وبينما كانت الحشود المجتمعة ترتعد وتتداول الأمر فيما بينها، اندفع البنَّاء عبْر الطريق متوجهًا إلى رجل الشرطة وتحدَّث معه بانفعال. فأسرَع رجل الشرطة في أعقابه ومر عبر البوابة الرئيسية للمتجر الكبير. وفي تلك الأثناء، أزاح أحدهم جسد السيدة التي فقدت الوعي وسط الحشد، فاندفعت الحشود مرة أخرى لترى المشهد المفزع.

في هذه الأثناء، فقد بضعة أشخاص آخرين وعيهم وأُزيحوا بعيدًا عن الطريق في حينها، أما أولئك الواقفون بالقرب من واجهة العرض فرأوا بابًا في الخلف يُفتح، ومر من خلاله رجل الشرطة ذو السترة الزرقاء. تبعه إلى مشهد «قاعة الرقص» أحد مشرفي المتجر وقد بدا منزعجًا، وعندما اجتازا الباب إلى الداخل، وقف البنَّاء بلا داعٍ يسدُّ بجسده المدخل.

حلَّ صمتٌ مُطبِق على الحشود بالخارج حين تقدَّم الشرطيُّ نحوَ التمثال الذي يرتدي بِزَّة العمل الزرقاء، ومدَّ ذراعه عن آخرها، وأمسك بكتفه. انطلقت صرخة حين اختلَّ توازن الجسد وسقطَ أرضًا، وسقط القناع، كاشفًا عن وجه شاحب تمامًا، دون أي ملامحَ ظاهرية أخرى تربطه بالشمع، ويحمل تشابهًا صارخًا مع وجه السيد توبياس ماندر.

حينئذٍ استدار المشرف وصاح بشيءٍ ما، فأُسدلَت الستائر سريعًا، مثلما ينسدل ستار الأمان المستخدم في المسارح أثناء اندلاع الحرائق، حاجبةً كلَّ أثَرٍ للمأساة عن أعين العامة.

كان الشرطيُّ أحدَ رجال الشرطة المتفوقين جدًّا الذين انضموا إلى الشرطة منذ الحرب. تعرَّف على السيد ماندر، وأدركَ طبيعة الجرح الذي أودى بحياة رجل الأعمال البارع. ثم فكَّ أزرار جزء من بِزَّة العمل الزرقاء.

ثم قال بتمهُّل: «إصابة بطلقٍ ناريٍّ. دعونا نضيء المزيد من هذه الأنوار الكهربائية، وتوجه إلى الهاتف، واتصل برجالنا بأسرع ما يمكنك؛ السيد ماندر، أليس كذلك؟»

قال مشرف المتجر الذي أصابه الفزع وبدا وكأنه على وشك الغثيان: «أجل، هو. هذه جريمة قتل، هذا ما تبدو عليه!»

علَّق الشرطيُّ قائلًا: «ربما! الآن، أبلِغْ رئيسك، واستدعِ رجالنا. سيأتون ومعهم طبيب شرعي.»

هُرعَ مشرف المتجر إلى الباب الخلفي، ودفع البنَّاء بعيدًا عن المدخل، وأغلقَ الباب وراءه. وما إنْ تُركَ الشرطي بمفرده في ذلك المشهد الخاوي من مظاهر الحياة، والذي صار مشهدًا لفاجعة مأساوية الآن، حتى تركَ عينيه تجولان في مشهد قاعة الرقص، لتقعا فجأةً على شيء مُسجًّى على الأرضية بجوار زوجٍ من الراقصين المتحجرين في مكانيهما. نظر إلى ذلك الشيء مُتفحِّصًا إياه، ثم نظر إلى تمثال لفتاة شابة، كانت تجلس متكئة في كرسي إمبراطوري، يحجُبها عن المنظر الأمامي العام أولئك الراقصون الواقفون بلا حَراك الذين ذكرناهم من قبل.

كان تمثال الفتاة الشابة يرتدي تنورة منفوشة، مغطاة بما يشبه رسومات ملونة لـ «واثبة ماندر». وفوقها ارتدت عباءة دائرية فضفاضة بها ما يوحي بأنها مظلة هبوط حمراء. وكان مُثبَّتًا فوق رأسها شيء أشبه بمروحة الطائرة ذات زركشة حريرية حمراء، وعلى وجهها قناع أسود من قماش رقيق، بينما ارتدت في يدها اليمنى قفازًا من الجلد.

ومع توخي أقصى درجات الحذر حتى لا يبعثر شيئًا بقدر الإمكان، توجه الشرطي إلى الحِرْز الأول، وانحنى ليتفحَّصه. كان عبارة عن مسدس ماوزر آلي. ومِن عنده توجَّه إلى تمثال الفتاة الشابة. نظر إليها بدقة وإمعان. ثم مدَّ سبابته، وضغط بحذرٍ شديد على كتفها. فجفلَ وزمَّ شفتَيه، وبدا مُترددًا في تحديد ما يجب عليه فعله. في النهاية، عاد ليقف إلى جوار الباب المنزلق المؤدي إلى «المشهد»، وانتظر هناك حتى يأتي أحدهم.

فجأة دخل مدير المتجر، السيد روبرت كيفيم، وكان رجلًا وسيمًا في منتصف العمر ذا ملامحَ حادة وباردة جدًّا. ونظر إلى الشرطي.

ثم قال: «أخبرَني السيد هاي أن ثمة شيئًا مريبًا هنا، سيدي الشرطي.» وأردَف: «أنا ...»

ثم توقَّف وبدا عليه الارتباك والحزن الشديدان. لم يكن من نوعية الرجال الذين يفقدون الوعي أو يصابون بدُوار، ولكن منظر ربِّ عمله وهو مُلقًى على ظهره جعله يرتعد خوفًا.

سأله الشرطي قائلًا: «هل تعرَّفتَ عليه يا سيدي؟»

صاح السيد كيفيم بكلمات سِباب ثم أومأ برأسه إيجابًا قائلًا: «رباه، ما الذي حدث؟ هذا هو السيد ماندر ... لا أفهم ما حدث.»

رأى الشرطيُّ تعليقه فاترًا. وأردف قائلًا: «أعتقد أن الرجل قد أُطلق عليه النار ولا ينبغي أن أتفاجأ إذا وجدنا قتيلًا آخر أيضًا.»

في تلك اللحظة، بُهِت وجه السيد كيفيم حقًّا، وتحشرج صوته في حلْقه مُصدرًا أصواتًا متنافرة.

تابَع الشرطي قائلًا: «تلك الفتاة الشابة الجالسة على الكرسي هناك تبدو طبيعية أكثر مما ينبغي وكأنها حقيقية وثمة مسدس على الأرض. ولكن يجب أن ننتظر حتى يرسلوا لنا محقق الشرطة قبل أن نتفحص المشهد عن كثَب.»

حوَّل السيد كيفيم بصره على مضض إلى السيدة الجالسة على الكرسي. تفحصتها عيناه من رأسها إلى أَخْمَص قدمَيها، وظلتا هناك تحملقان بها؛ وبدت أكثرَ استدارة ووهَجًا، وارتجف جسده إلى حدٍّ جعَل الشرطيَّ يمسك به بطريقة ودية ليسنده.

قال له: «اهدأ يا سيدي، تماسك!»

قال كيفيم بصوت أجش: «الحذاء ... حذاؤها. ولكن لا يمكن ... لا يمكن!»

بدا على وجه الشرطي نظرة غريبة. فأخذ يحدق في الرجل الواقف بجواره، وطرح سؤالًا قاطعًا.

«حذاء من، يا سيدي؟»

ابتلع كيفيم ريقه. ثم قال: «لا بدَّ أن ثمة خطأً بالطبع، هو كذلك. فهو مألوف فعلًا؛ لا بد أنه يباع منه المئات.»

«حسنًا يا سيدي، ولكن ربما تودُّ أن تخبرني إلى أي حذاء تشير؟»

هزَّ كيفيم رأسه، وأردف يقول: «ليس الآن. ربما أُخبرك لاحقًا. ولكن لا أظن أنه سيكون ضروريًّا. في ظنك متى يمكن أن يصل رجالك إلى هنا؟»

قال الشرطي: «إنهم قريبون، وقد يكونون هنا في أي لحظة»، ثم ذهب ليلقيَ نظرة على الحذاء محل الجدل.

لم يكن حذاء سهرة، بل حذاءً للمشي من الجلد البني، ذا رباط مزين بأفعى كانت عيناها أشبه بزِرَّين. كان لا يزال يحدق به حين فُتح الباب.

كان المحقق ديفينش — الذي دخل توًّا وبصحبته محقق برتبة رقيب والطبيب الشرعي — رجلًا نحيفًا طويلَ القامة. كان شعره داكنًا وعيناه داكنتين وبشرته داكنة، ربما يحسبه المرء مواطنًا من جنوب إيطاليا. ترك الطبيب الشرعي يُغلق الباب خلفهما، وتوجَّه إلى الشرطي بعد أن ألقى نظرة جوفاء خاطفةً على السيد كيفيم الذي وقفَ يرتجف بوجهٍ شاحب.

سأل الشرطي الذي ألقى عليه التحية: «ما الخطب؟»

قال الشرطي: «تبدو جريمة قتل وانتحار.»

وأشار إلى جثة السيد ماندر، ثم أشار إلى تمثال السيدة الشابة الجالسة. انحنى المحقق ديفينش فوق جثة الرجل، وفحصها في عجالة، ثم تركها إلى الطبيب الشرعي.

قال موجهًا الحديث إلى الشرطي: «الآن، دعنا نرى الجثة الأخرى»، وكان مدركًا تمامًا أن السيد كيفيم لم يعبأ مطلقًا بجثة السيد توبياس المُسجَّاة على الأرض، وإنما ظلَّ يُحدِّق إلى السيدة الجالسة على الكرسي.

توجه إليها ديفينش، ونزع العباءة الدائرية والقناع برفق عن جسد الشابة الرابض على الكرسي. ثم التفت سريعًا وراءه إثر سماعه صوتَ ارتطام. كان السيد كيفيم قد سقط أرضًا مغشيًّا عليه.

الفصل الثاني

تولَّى فريق صغير من الضباط أمرَ مشهد قاعة الرقص المعروض في واجهة العرض الرئيسة في متجر ماندر. كان هناك الكثير من ضباط التحقيق على اختلاف رُتَبهم، واثنان من المصورين. تركهم المحقق ديفينش يباشرون عملهم الروتيني، وصعِد إلى شقة السيد ماندر بالطابَق العلوي مستقلًّا المصعد، برفقة رئيس طاقم العاملين لدى السيد ماندر.

كان كيفيم لا يزال يبدو متوعكًا، إلا أنه في تلك اللحظة صار أكثر تماسكًا، وعندما دخلا المصعد، كان يشرح بصوتٍ خفيضٍ الترتيبات التي اتخذها ربُّ عمَله الراحل لضمان خصوصية مسكنه الخاص، وأوقات دخوله وخروجه في غير ساعات العمل.

واستطرد قائلًا: «كان لديه باب خاص، ودرج في الجزء الخلفي أيها المحقق، ويوجد منبسط دَرَج يفضي إلى باب في رَدْهة شقته. وهذا المِصعد يأخذك إلى باب آخر يُفضي أيضًا إلى رَدْهته، ولكن على جانبٍ آخرَ منها.»

في ذلك الوقت، كان المصعد قد أقلَّهما إلى الطابَق العُلوي، وخرجا منه. حدَّق ديفينش إلى الباب الماثل أمامه، ثم ألقى نظرة عامة سريعة على الأرضية.

«فهمت. إذا افترضنا الآن أن السيد ماندر لم ينزل إلى المتجر خلال عطلة نهاية الأسبوع، هل كانت هناك أي وسيلة أخرى يمكنه أن ينزل بها إلى أسفل، خلاف هذا المصعد؟»

قال كيفيم، وهو يزمُّ شفتيه: «ولكن لا بد أنه نزل. فالمسدس الموجود بالأسفل ...»

قال الآخر في نفاد صبر: «أعرف ذلك، ولكن هل كانت هناك وسائل أخرى؟»

تردد السيد كيفيم برهةً قبل أن يجيبه قائلًا: «أجل، بالطبع، هناك عشرات المصاعد المستخدمة لنقل الطرود والبضائع من المخازن الموجودة في هذا الطابَق. ولكن شقة السيد ماندر معزولة عن ذلك الجزء بجدارٍ مُصمَت.»

أومأ ديفينش برأسه وقرع جرس الشقة. وفي دقيقة، فتح الباب خادم بدين ووقور في العَقد السادس من عمره تقريبًا. وفي عجالة شرح السيد كيفيم الأمر للرجل، الذي بدا منزعجًا وخائفًا كأي خادم مُحنَّك في موضعه، وسرعان ما أعرَب عن فزعه وأسفه.

أومأ ديفينش برأسه مرة أخرى. ثم قال: «أمر طبيعي جدًّا. فضلًا، خذنا الآن إلى غرفة استقبال سيدك. سأستجوبك في وقت لاحق، وسأستجوب الخدم الآخرين أيضًا. كم عددهم؟»

«هناك الخادم هيمز، يا سيدي، وخادم السيد ماندر الخاص، والطاهي، وخادمتان، وخادمة قاعة الاستقبال.»

«أهي شقة كبيرة إذن؟»

«أجل يا سيدي. يوجد عشر غرف، بالإضافة إلى غرفنا.»

أوضح كيفيم قائلًا: «سكنُ الخدم معزول تمامًا عن الجزء الخاص بالسيد ماندر من الشقة.»

«حقًّا؟»

«أقصد باستثناء باب واصل بينهما سيدي المحقق.»

«جيد جدًّا. عندما أقرع الجرس، أريد استجواب طاقم الخدم، كلًّا على حِدَة.»

قال كبير الخدم: «عُلم يا سيدي»، وقادَهما باحترافية إلى غرفة استقبال شاسعة ومفروشة بأثاث فاخر وباهظ الثمن، وتركهما، وأغلق الباب خلفه برفق.

جلس ديفينش وأشار إلى رفيقه بالجلوس.

جلس كيفيم زامًّا شفتيه، وبدا عليه الاضطراب الشديد بوضوح. لم يشأ المحقق أن يزيد عليه شعوره بالارتباك بإطالة التحديق فيه؛ وإنما أخذ يتفقد غرفة الاستقبال من أولها إلى آخرها بينما كان يطرح سؤاله الأول.

«سيد كيفيم، لقد رأيت ما حدث بالأسفل. لقد لقي السيد ماندر مصرعه إثر طلق ناري نفذ إلى الفخذ. وطُعنت الشابة من الخلف، بسلاح ذي نصلٍ حادٍّ ومدبب. هلَّا أوضحت لي لماذا تسبب اكتشاف جثة السيدة في صدمة أكبر بالنسبة إليك من اكتشاف جثة السيد ماندر؟»

اغرورقت عينا السيد كيفيم بالدموع وقال بصوت خفيض للغاية: «أنا — نحن — تمت خطبتنا استعدادًا للزواج.» ثم أضاف قائلًا: «قبل أسبوع.»

بدا ديفينش متعاطفًا. وعلَّق قائلًا: «يؤسفني ذلك. هذا قطعًا حادث مأساوي بالنسبة إليك. خذ وقتك يا سيدي وحاول، إن استطعت، أن تُحدِّثني عنها قليلًا. لن أطيل عليك بقدر الإمكان.»

استجمع كيفيم شتات نفسه بجهد ملحوظ. ثم قال: «اسمها ... كان اسمها إيفي تيومر سيدي المحقق. تركت العمل بمتجر سوتار، حيث كانت تعمل مساعدًا لوكيل المشتريات في قسم القبعات النسائية، لتعمل هنا. وعيَّنها السيد ماندر في منصب مدير قسم المشتريات.»

كان ديفينش على دراية بأساليب السيد ماندر، وأومأ برأسه. وأردف قائلًا: «تلك ترقية بالطبع. أظن أنه لم يكن يعرفها مسبقًا قبل أن يُقدِّم لها هذا العرض؟»

«أنا متأكد من أنه لم يكن يعرفها سيدي المحقق. كانت لتخبرني. لقد عرفتها على مدى ثلاث سنوات.»

قال ديفينش وهو ينظر إليه بإمعان: «يبدو أنها كانت فتاةً في غاية الجمال.»

تغيَّر وجه كيفيم، وبدا عليه الغضب قليلًا. وقال بنبرة غاضبة: «لم تكن من هذه النوعية من الفتيات، ولم يكن السيد ماندر من هذه النوعية من الرجال. كان السيد ماندر مولعًا بالطائرات. لديه هنا في هذه الشقة مختبر وورشة.»

رد المحقق قائلًا: «سأتفقد ذلك الآن. تذكر أنني لا أقذف أحدًا بالباطل. كل ما في الأمر أنه يبدو غريبًا بعض الشيء أن يكون لدى السيد ماندر مدخلان، أحدهما من الخلف.»

قال كيفيم: «بل ثلاثة مداخل؛ فهناك الدرج المنحدر من سطح الشقة، حيث هبطت الطائرة الجايروكوبتر قبل أيام.»

قال ديفينش: «أها، الطائرة الجايروكوبتر الجديدة. ولكن دعنا نعود إلى الآنسة تيومر، إذا سمحت. على الرغم من انشغال السيد ماندر الشديد بأمر الطائرات، يبدو واضحًا تمامًا أنها زارت السيد ماندر حتمًا هنا خلال عطلة نهاية الأسبوع.»

رد كيفيم قائلًا: «كانت معي أمس عند النهر»، وأخذ نفَسًا طويلًا مرتعدًا. ثم أردف: «تركتها في تمام الساعة الثامنة عند مسكنها.»

«ما عنوانه؟»

«٢٢ شارع بولسي ستريت، منزل كابرلي.»

«شكرًا لك. تركتها الساعة الثامنة مساء أمس. لا بد أنها أتت إلى هنا بعد ذلك.»

«أنا ... أجل. أظن أنها فعلت.»

وقف ديفينش واجتاز الغرفة إلى الطرَف الآخر منها ليقرع الجرس. وفي غضون دقيقة، جاء كبير الخدم.

تساءل قائلًا: «هل ترغب في استجوابي الآن يا سيدي؟»

«أجل. هل استقبلت أحدًا في هذه الشقة، بعد الساعة الثامنة والربع، مثلًا، ليلة أمس؟»

«لا أحد، أيًّا من كان، يا سيدي. أنا واثق من ذلك. كان السيد ماندر في ضيعة جيلوفر مانور، مسقط رأسه، أثناء النهار. وجاء في الساعة السابعة والنصف، وتناول العشاء في تمام الساعة الثامنة. كان بمفرده، يا سيدي، وعلى حد علمي لم يستقبل أيَّ زائرين ليلة أمس. أنا لا أدخل هنا مطلقًا بعد الساعة العاشرة، ما لم يكن لديَّ تعليمات خاصة.»

«ولكنك لم تسمع شيئًا أثناء المساء، أو أثناء الليل؟ أقصد شيئًا غير مألوف؟»

فكَّر كبيرُ الخدم قليلًا. ثم قال: «لم أسمع شيئًا، يا سيدي، ما لم تكن تقصد ذلك الأزيز الخاص بالمحرك. ولكن هذا الجزء عازل للصوت ولا نسمع شيئًا من الجزء الخاص بنا.»

«ماذا تقصد بأزيز المحرك؟»

«حسنًا، إنه صوتٌ أشبهُ بالضوضاء الصادرة عن تلك الطائرة الجايروكوبتر، يا سيدي، عندما هبطت على السطح، وأحدثت ضجة شديدة حولها.»

أومأ ديفينش برأسه. وحملق كيفيم بعينيه في شرود.

تابع كبير الخدم حديثه. «هل ترغب في استجواب باقي العاملين الآن، يا سيدي؟ يجدر بي أن أخبرك أنني عندما أغلق الباب الواصل بين الجزأين من الجزء الخاص بنا ليلًا، أحتفظ بالمفتاح تحت وسادتي.»

«حسنًا، هل تُغلق الباب من جانبك؟»

«أجل يا سيدي، ولكن السيد ماندر يوصد المزلاج من جانبه كذلك بوجهٍ عام.»

«أمر غريب، إذا كان يسهر لوقت متأخر، أليس كذلك؟»

«حسنًا، كلا يا سيدي. يوجد زِرٌّ بجوار فراشه، إذا ضغَط عليه، يُسحب المزلاج آليًّا.»

«شكرًا لك. هذا يفي بالغرض. سأرسل رقيبي الآن ليستجوب العاملين.»

عندما خرج كبير الخدم مرةً أخرى، نظرَ ديفينش إلى كيفيم وقال: «أتساءل، يا سيدي، هل كنت السيد ذا الحضور البارز في سباق بيسلي كل عام؟»

اندهش كيفيم قليلًا. ثم قال: «أنا مغرم بالرماية، أجل.»

«ظننت ذلك، يا سيدي. اسمك ليس مألوفًا. حسنًا سنتفقَّد الشقة الآن، وسنصعد إلى السطح.»

سأله كيفيم في عجالة وهو يهمُّ بالوقوف: «هل تعتقد أنَّ من الممكن أن يكون هناك أيُّ شخص قد هبط على السطح الليلة الماضية؟»

قال ديفينش: «يبدو هذا أمرًا محتملًا.»

وبينما كان كيفيم يراقب الموقف، ألقى نظرةً سريعة لم تخلُ من الدقة على غرفة الاستقبال الكبيرة، ثم دخل غرفة الطعام المتصلة بها. لم يكن ثمة شيء في أيٍّ من الغرفتين يوحي بوقوع جريمة، أو يشير إلى أن ثمة امرأة زارت المكان مؤخرًا. ومن هناك دخلا إلى قاعة البلياردو وغرفة مكتب. لكن لم يُطلْ ديفينش البقاء في أي مكان بعينه. فقد كان مساعدوه سيُجرون تفتيشًا دقيقًا، عندما ينتهون من الطابَق السفلي، ويلتقطون صورًا لما هو ضروري للكشف عن البصمات.

ثم تفقَّدا أربعَ غرف نوم، وانتهى بهما المطاف في قاعة ذات غرفتين مواجهتين للجزء الخلفي من المتجر، إحداهما مجهزة كورشة عمل، والأخرى أشبه بمخزن للقطع المعدنية وقطع الغيار. وفي موقع الورشة، كان هناك مخرطة ومَقعدَين ومناشير حزامية متنوعة لقطع المعادن، ومحرك طائرة من نوع استثنائي.

سأله المحقق: «هل من الممكن أن يكون أزيز المحرك الذي سمعه كبير الخدم هو صوت أحد هذه المناشير، أم صوتًا صادرًا عن تشغيل المخرطة؟»

رد كيفيم قائلًا: «لا أظن ذلك. ثمة مولدات كهربائية، أظن أنهم يسمونها كذلك، في القبو. كان السيد ماندر يستعين بها لتوليد الطاقة اللازمة لتشغيل ماكيناته هنا، ولكن لم يكن ليمكنك سماعها من كل هذه المسافة بالأعلى.»

تفحص ديفينش لوحة مفاتيح كبيرة موجودة على الحائط، وأردف قائلًا: «لا أظن ذلك أيضًا. ولكن ماذا عن هذا المحرك؟ يبدو كما لو أنه مربوط أو مثبت من أجل اختبار ما على نضد مخصص للاختبارات. ربما يكون هذا ما سمعه كبير الخدم.»

اقترب كيفيم. وقال: «لا أظن ذلك. انظر هنا، ثمة ثلاث شمعات احتراق مفقودة. إن معرفتي محدودة جدًّا بالسيارات، ناهيك عن الطائرات.»

وافقه المحقق الرأي. وعلَّق قائلًا: «بالطبع، لا يمكن تشغيلها بدونها. حسنًا، رجالي سيفحصون ذلك في الحال، وأظن أنه كان من الأفضل أن نُلقيَ نظرة على السطح.»

كان هناك سُلَّم مؤدٍّ إلى السطح من داخل الشقة، وكان الباب يُفتَح على جدران مؤطرة بالخشب. كان الباب مفتوحًا، فوضع ديفينش منديله على المقبض وأدراه برفق. ثم استعد ليصعد السلم.

علَّق قائلًا: «يبدو أن هذا هو الطريق الوحيد للصعود لأعلى. وأي شخص آخر يرغب في الوصول إلى هناك من شأنه أن يهبط من السماء.»

كان سطح الشقة بطول مائة وعشرين ياردة وعرض خمسين ياردة. كان سطحه مُغطًّى بمادة خشنة الملمس؛ لتتيح للطائرة التوقُّف بمزيد من السلاسة عند الهبوط وعلى بعد نحو ثلاثين قدمًا من الحاجز الموجود عند الطرفَين، كان هناك تلال رملية بارتفاع قدمَين تقريبًا تتخذ شكل حواجز الطوارئ.

قال المحقق وهما يسيران بتمهُّل عبر السطح: «بالمناسبة، يا سيد كيفيم، شهر نوفمبر هو شهر الراحة للنهر إن جاز التعبير.»

نظر إليه كيفيم بامتعاض. وقال: «لم أقل إننا ذهبنا في رحلة نهرية بالقارب. وإنما كنت أقصد رحلة إلى منطقة وادي التيمز بسيارتي. أظن أن بإمكانك التحقق من ذلك.»

ولكن بدا فجأة أن ديفينش قد نسيَ الأمر. فأخذ يتفحَّص السطح أسفل منه، ثم رفع حاجبَيه في استغراب.

وقال: «أرى من منظور رجلٍ عادي غير متخصص، أن تلك الآثار تُشبه آثار إطارات طائرة، أقلعت من ساحة طينية إلى حدٍّ ما.»

حدَّق كيفيم إلى الآثار المُشار إليها. وقال: «هذا غريب. كان الطقس جافًّا على نحو رائع طَوال الأسبوعين الماضيين، كما تعرف.»

جثا ديفينش على ركبتيه، وجمع بحرصٍ بعضًا من الطين الجاف باستخدام نصل مِطواته. وعندما جمع الكَمية الكافية وضعَها في عُلبة صغيرة أخرجها من جيبه.

وقال: «سيكون من المثير معرفة متى ترسَّب هذا هنا. أرى أننا يجب أن ننزل إلى الورشة مرة أخرى.»

نزلا، وأغلقا الباب وراءهما هذه المرة؛ إذ كان المفتاح لا يزال في القُفل، وتفقَّدا الغرفة الأخرى حيث تُخزن القطع المعدنية وقطع غيار الطائرة.

قال ديفينش وهو في طريقه إلى طاولة كبيرة عند أحد الأركان، مشيرًا إلى إطارَين مطاطيين موضوعين هناك: «أها، ها نحن ذا! أظن أن هذين الإطارين يخصان الطائرة الجايروكوبتر، ويمكننا فيما بعد أن نضاهيَ آثارها مع الآثار التي عثرنا عليها في الطابَق العُلوي. سوف أُغلق باقي الجزء الخاص بالسيد ماندر من الشقة. يجب ألا يدخل أحد إلا بعد أن نمنحه الإذن بذلك.»

قال كيفيم: «سأحرص على ذلك. على الأرجح سندفع رواتب خدمه في وقت لاحق، ثم نُغلق الشقة.»

تقدَّمه ديفينش للخروج، وأغلق باب هاتين الغرفتين، ووضع المفاتيح في جيبه. وعاد إلى غرفة الاستقبال، وفي ذلك الوقت بدأ كيفيم يُظهر أمارات الضجر.

قال المحقق: «حسنًا يا سيدي، بما أنك هنا، أظن أن بوسعك أن تخبرني بتحركاتك من الساعة الثامنة ليلة أمس وحتى وصولك إلى مكتبك هذا الصباح؟»

جلس كيفيم واجمًا. ثم قال بغتة: «هذا سؤال محرج.»

قال ديفينش بهدوء: «أخشى أنني لا بد أن أطرحه عليك يا سيدي.»

عض كيفيم على شفتَيه. وقال: «تركت الآنسة تيومر، وتناولت العشاء في شقتي في بيكر ستريت؛ فأنا أتناول الغداء في منتصف النهار في أيام الأحد. قرأت كتابًا حتى الساعة العاشرة، ثم جلست ودخنت، وحاولت حل لغز كلمات متقاطعة حتى الساعة الحادية عشرة.»

«ثم ماذا بعد ذلك يا سيدي؟»

«حسنًا، ذاك هو الجزء المزعج. لم أشعر برغبة في النوم؛ لذا خرجت في حدود الساعة الحادية عشرة والربع، وسرتُ إلى مُتنزَّه ريجنت بارك. كان السيد ماندر رجلًا عظيمًا يهوى التجديد والإبداع، وطلب مني أن أحاول التفكير في حملة دِعاية مبتكرة. ودائمًا ما أجيد التفكير في الهواء الطلق. على أي حال، لم أَعُد إلى المنزل حتى الساعة الثانية تقريبًا. دخلت، ثم أويت إلى الفراش. المعضلة أنني لم ألتقِ بأي شخص يستطيع التعرُّف عليَّ للأسف. أظن أن هذا ما كان ينبغي أن يتوافر لديَّ، أليس كذلك؟»

رد ديفينش بنبرة لطيفة: «كان ذلك ليبدو أفضل، ولكن فكِّر ثانيةً يا سيدي. بالتأكيد كان هناك رجل شرطة؟ إنهم مدربون بشكل أو آخر على المراقبة، ويلاحظون الناس ليلًا. أو ربما كان هناك عشاق في مكان ما. خذ وقتك يا سيدي.»

قال كيفيم: «رأيت عدة أشخاص، ولكن لم أرَ رجال شرطة، ولكني لم أرَ أيَّ شخص ينظر إليَّ، ولم أكن أمرُّ دائمًا تحت عمود إنارة.»

«ربما رآكَ أحد رجال الشرطة المتوارين في الظلام يا سيدي. فهُمْ أحيانًا ما يلاحظون الآخرين دون أن يلحظهم أحد. سأُجري تحرياتي، إذا وصفت لي خط سيرك.»

أعاد عليه كيفيم سرد ما ظنَّ أنه خطُّ سَيره من وحي الذاكرة. بدا عليه الإنهاك والحزن، وكان ديفينش على وشك أن يأذن له بالانصراف، حين قرع أحدهم جرسَ الشقة، وما إن فُتح الباب حتى أبصرا الرقيب الذي رافق ديفينش إلى المتجر.

قال: «معذرة يا سيدي، ولكنَّ ثمة شيئًا مهمًّا تم اكتشافه. إنه أحد المصاعد المستخدمة لنقل البضاعة. يبدو أن بداخله آثارًا للجريمة.»

اندهش كيفيم. أومأ المحقق برأسه. ثم قال: «من الواضح أننا لا نستطيع أن نصل إليه من هذا الطابَق، ولا أريد أن أفحصه بالأسفل. هل يمكنك الصعود به إلى الطابَق الواقع أسفل هذا الطابق مباشرة. حسنًا يا سيد كيفيم، كيف ننزل إلى الطابَق أدناه؟»

«نأخذ هذا المصعد، سيدي المحقق. ننزل طابقًا واحدًا، ويمكننا أن نسير عبر رَدْهةٍ مؤدية إلى منبسط أمام مصعد البضائع.»

دخلا إلى المِصعد معًا. وأنزلهما الرقيب في الطابَق التالي، ثم نزل بالمصعد ليُنفِّذ تعليماته.

كان المحقق يرتدي ملابسَ مدنية، ولم يلفت انتباه أحد إليه وهو يسير بجوار المدير.

وبينما كانا ينعطفان إلى الرواق، الموازي للجزء الخلفي من المبنى، وبعيدًا عن أقسام المبيعات، التفت ديفينش إلى رفيقه.

وقال: «آسف لتطرُّقي إلى هذا الأمر مرة أخرى، يا سيدي، ولكن هل يمكنك أن تخبرني ما الذي كانت ترتديه الآنسة تيومر حين تركتك مساء أمس؟»

بُهِت وجهُ كيفيم بشدة وبدأ يرتعد مرة أخرى، ولكنه استجمع قواه ليُجيب.

«كما ... كما رأيناها للتو الآن سيدي المحقق.»

أومأ ديفينش برأسه. ولم يُعبِّر عما يجول في ذهن كلٍّ منهما؛ ألا وهو أن إيفي تيومر ربما توجهت مباشرة من شقتها إلى الشقة الكائنة فوقهما؛ لعلها انتظرت فقط حتى يختفيَ حبيبها بعيدًا عن الأنظار!

الفصل الثالث

عندما اقتربا من المصعد، شعَر ديفينش فجأة أنه من القسوة الشديدة أن يصطحب رفيقه لأبعد من ذلك.

فقال له، وقد لاحظ أنه صار يجرجر قدمَيه: «لقد كان صباحك مفزعًا، يا سيدي. لو كنت مكانك لخرجت لاستنشاق بعض الهواء، وتناولت شيئًا لأتمالك نفسي مرة أخرى.»

كان قد أعطى تعليمات بالفعل لرجال الشرطة على الأبواب المختلفة بمراقبة أي فرد من الموظفين المسموح لهم بترك المبنى، ولم يشعر بأي قلق تجاه السماح للمدير بالذَّهاب. شكَره كيفيم في وهنٍ ورحل. تقدَّم المحقق إلى حيث وقف اثنان من المرءوسين أمام مِصعَد مفتوح، في فُرجةٍ من الجزء الخلفي من المبنى.

كان أحدهما هو الرقيب الذي أحضرَ المِصعد إلى هذا الطابَق، وهو من أفسحَ الطريق أمام ديفينش، وأشار في صمت إلى بقعة صغيرة من دم جاف على أرضية المصعد نفسه. سلمه الرجل الآخر سكينًا طويلًا ورفيعًا، كان مقبضه ملفوفًا بعناية في منديل ورقي، وأخبره بأنه وجده مُلقًى في الزاوية بجوار بقعة الدم.

فحص ديفينش السكين بحرص شديد، ثم أعاده مرة أخرى. وقال: «احزمه مع بقية الأحراز، يا كوربيت. أين كان هذا المصعد عندما رأيته لأول مرة؟»

«كان في القبو يا سيدي.»

«ولكن يمكن استدعاؤه إلى أي طابَق تلقائيًّا، أليس كذلك؟ أيمكن ذلك؟ هل هو مِصعد لا يَصدُر عنه أيُّ ضوضاء، أم أنه غير ذلك؟ إنه هادئ تمامًا، أليس كذلك؟ حسنًا. من الصعب الجزم بما إذا كان أحد قد صعِد أو هبط فيه. أيها الرقيب، أريد مقابلة الحارس الليلي الذي يحرس هذا الجزء من المتجر. أرسله إلى هنا.»

بعد أن ذهب الرقيب لأداء المهمة، جثا ديفينش بحذرٍ على الأرض بالداخل، وحدَّد موضع بقعة الدم بالضبط وأبعادها.

قال معلقًا بينما كان ينهض مجددًا: «يبدو لي هذا دليلًا مفيدًا، ولكن ها هو الحارس. استمر! سوف أستجوبه، ولكن أثناء سَيرنا في الممر.»

قال الرقيب: «هذا هو مان، الحارس الليلي، يا سيدي.»

أومأ ديفينش للرجل الأربعيني الأنيق الذي جاء، ملاحظًا أنه يبدو كجندي سابق، وأشار إليه ليتحرك مسافة ياردة عبر الممر.

ثم قال: «الآن أيها الرقيب، لديَّ لك بعض المهام. أولًا، يجب أن تقابل مساعد المدير، ويجب أن يهاتف أحد المديرين، إذا لزِم الأمر، لإغلاق المتجر. فلن نستطيع مواصلة العمل والناس يملئون أرجاء المكان، وإذا ظل المكان مفتوحًا أكثر من ذلك، فسنواجه مضايقاتٍ من جانب الكثير من الصحفيين.»

سأله الرقيب: «ولكن ماذا عن المساعدين يا سيدي؟»

«زميلي العزيز، لا يمكننا استجواب ألف وثلاثمائة ونيف رجل وامرأة اليوم. كما لا يبدو أنها مهمة يمكن أن يقوم بها أيٌّ منهم. يجب أن نُبقي أولئك الذين يشغلون مناصب تنفيذية في الوقت الحالي، لكن علينا إطلاق سراح البقية وإغلاق المكان.»

«عُلمَ يا سيدي. أهناك أيُّ أوامر أخرى؟»

«عليك زيارة شقة السيد كيفيم في بيكر ستريت، وكذلك شقة الآنسة تيومر؛ سوف أعطيك عنوانيهما. اعرف كل ما يمكنك معرفته، وخاصة الوقت الذي غادرت فيه الآنسة تيومر منزلها الليلة الماضية. وكذلك عليك معرفة الوقت الذي غادر فيه السيد كيفيم منزله ووقت عودته.»

«حسنًا، يا سيدي.»

عندما غادر الرقيب، توجه ديفينش نحو الشاهد المنتظِر. سأله بينما كان الجندي السابق يُحدِّق بثبات إلى وجهه: «كيف تسير جولتك المعتادة عندما تقوم بحراسة هذا الجزء من المتجر ليلًا يا مان؟»

جاءته الإجابة: «أتسلَّم ورديتي في العاشرة مساءً يا سيدي. أتجوَّل بالمكان مرة واحدة لأتأكد أن كل شيء على ما يرام. ولديَّ مقصورة أجلس فيها بين الجولات. وأنا أقوم بها كل ساعة يا سيدي.»

«كم تستغرق الجولة؟»

«خمس عشرة دقيقة. وهذا هو ما أقوم به الآن يا سيدي. ولكنني هنا منذ شهرين فقط، ولم ألاحظ أيَّ شيء يُثير الشك أبدًا.»

«إذن، يمكنني افتراض أنك تبدأ جولاتك في العاشرة والربع، الحادية عشرة والربع، الثانية عشرة والربع ...»

«لا يا سيدي، إنني أنتظر ساعة بعد انتهاء كل جولة. فأبدأ الجولة الثانية في الحادية عشرة والربع، وتنتهي في الحادية عشرة والنصف. ثم أبدأ الجولة الثالثة في الثانية عشرة والنصف، وهكذا يا سيدي.»

«أنت جندي سابق يا مان؛ بأي سلاح؟»

«أنهيت الخدمة برتبة رقيب يا سيدي. كنت جنديًّا نظاميًّا قديمًا وخرجت من الخدمة لعدم الصلاحية في عام ١٩٢٤.»

قال ديفينش: «تبدو رجلًا منهجيًّا على أي حال. والآن، هل رأيت أو سمعت أيَّ شيء مريب ليلة أمس بالمتجر؟»

أخرج دفتر ملاحظاته بينما يتحدث.

ثم قال: «لا شيء على الإطلاق، يا سيدي.»

«ولا صوت ضوضاء كصوت مِصعد يصعد أو يهبط، ولا صوتًا قد يوحي بوجود محرك طائرة؟»

«لم أسمع صوتَ أيِّ مصاعد يا سيدي، بل إنها في ذلك الوقت كانت هادئةً على نحوٍ غير مألوف. سمعت صوتًا خافتًا كأن هناك محركًا بالأعلى، ولكنني كثيرًا ما أسمع ذلك في عطلات نهاية الأسبوع؛ لذا لم أرَ في ذلك ما يُثير الرِّيبة.»

«هل كانت المولدات في الطابَق الأرضي تعمل؟ لماذا لا يحصل هؤلاء الناس على الكهرباء من الكابلات الرئيسية؟»

«لا أعلم شيئًا عن ذلك يا سيدي. أعلم أن السيد ماندر اعتاد تجربة الطائرات في الطابَق العلوي. واعتقدت أنه عاد إلى ذلك مجددًا ليلة أمس، وإن كان لم يستمرَّ طويلًا.»

أومأ ديفينش. وقال: «دعني أرى مكان مقصورتك، يا مان»، ثم نادى بصوتٍ هادئ على المحقق الذي يُفتِّش المِصعَد قائلًا: «كوربيت، شغِّل هذا المصعد صعودًا وهبوطًا ثلاثَ دقائق، بينما أقف أنا بعيدًا.»

وعندما تلقَّى موافقة مرءوسه، رافق الحارس عبر الممر، ودخلا ممرًّا آخر ناحية اليمين، أفضى إلى ما يشبه الكابينة. كانت هذه الكابينة تحتوي على مقعد، ولوحة مفاتيح

وهاتف وجرس إنذار ضد السرقات. جلس ديفينش على المقعد، وأخذ ينظر عبْر الممر. ثم قال في تأمُّل: «أنت لا ترى جزءًا كبيرًا من المتجر من هنا. مجرد زاوية منه فقط.»

أجاب مرافقه: «وبذلك أكون غير مكشوف أيضًا. إذا أضأت كشافي، فقد أُخيف اللصوص، وإذا أبقيت المكان مظلمًا لا يمكنني رؤية شيء. ولكن سواء كان المكان مظلمًا أو مضيئًا، فباستطاعتي سماع أي شيء أفضل من أي شخص آخر.»

ابتسم ديفينش بجفاء. وقال: «لا بدَّ أنك تتمتع بحاسة سمع حادة بالفعل، إن كان بإمكانك سماع أصوات خافتة في مكان بهذا الحجم، وبه فواصل تحجُب الأصوات أو تشوش عليها.»

قال الرجل بابتسامة هادئة: «ليست أذناي هما الجيدتين بشكل خاص، ولكن تلك الأذن التي هناك»، وأشار إلى بوق صغير يُشبه بوقَ الجرامافون، بارز قليلًا من حائط الكابينة بمستوى رأسه. وأكمل حديثه قائلًا: «كان السيد ماندر متابعًا رائعًا لأحدث الوسائل. أنا فقط أشغل هذا الميكروفون هنا، ويأتيني كل صوت يصدر. بل هناك ما هو أكثر من ذلك يا سيدي. يوجد جهاز انتقائي متصل به يعمل على تحديد المكان الصادر منه الصوت، حتى أتمكن من اتخاذ الإجراء اللازم.»

سأل المحقق بود: «أكنت مهندسًا ملكيًّا؟»

«كنت في سلاح الإشارات يا سيدي. ولكنك تفهم ما أعنيه.»

«شغل المفتاح الآن.»

امتثل مان للأمر، ثم بدت عليه الحيرة. أما المحقق فلم تبدُ عليه الحيرة، ولكنه بدا مندهشًا بعض الشيء.

وغمغم قائلًا: «أحدهم كان يعبث بجهازك. لا أسمع أيًّا من الضوضاء التي يتم تضخيمها الآن.»

من الواضح أن مان كان لديه قَدْر من المعرفة بالأجهزة. فقد أخذ يفحص البوق والمفتاح، ثم نظر إلى الوصلات الكهربائية، وتأكد من سبب العطل.

ثم قال: «ثمة وصلة مقطوعة هنا يا سيدي.»

أخرج ديفينش عدسته المكبرة، وفحص الوصلة عن كثَب، ثم نفض الغبار عن الألواح الخشبية في مكان الوصلة، وأخذ يمسحها بالعدسة بحثًا عن بصمات الأصابع. ولكن لم يظهر شيء. عطَّل شخص ما الميكروفون، لكنه لم يترك أيَّ أثرٍ أثناء قيامه بذلك.

«لا بد أنه كان هنا بينما كنت أنت في إحدى جولاتك التفتيشية. ألم تلاحظ أنك لا تسمع أيَّ أصواتٍ عالية يَصدُر منها كما هو مُتوقَّع؟»

«لم ألحظ يا سيدي، لكنك تعرف كيف يكون الأمر. لم أشكَّ في دخول أيِّ شخصٍ إلى هنا، وبالطبع لن تكون متيقظًا للغاية بعد مرور شهرَين متتاليَين لم يحدث خلالهما أي شيء.»

قال ديفينش متفقًا معه في الرأي: «خطأ بشري مؤسف ولكنه حقيقي، لكن يجب أن أعترف بأخطائي أيضًا. على سبيل المثال، لم أُنصت لصوت المصعد وهو يصعد ويهبط. لا بد أن أطلب من زميلي أن يجعله يستمر في العمل.»

وانصرف ليعود مجددًا بعد دقيقة، ويرفع يده طالبًا الصمت. قد تكون الأصوات الصادرة من المتجر هي السبب، ولكنه لم يستطع سماعَ أيِّ شيء من صوت حركة المِصعد، وأدرك أنه لا يمكن إجراء هذه التجربة حتى يخلو المكان ويصبح هادئًا تمامًا.

وبعد أن شرح ذلك للحارس، ذهب وفي غضون دقيقتين وجد نفسه في واجهة العرض والستائر منسدلة، يتحدث إلى قائده الذي حضر لتوِّه من سكوتلانديارد، والطبيب الشرعي الذي جلس يدخن سيجارة، ويشاهد الجهود الأخيرة للضباط الأقل رتبة، وهم يعملون على قياس المساحة الكبيرة ومسحها وتخطيطها. وبعد أن انتهى من شرح ما فعله، كوفئ ديفينش بإيماءة استحسان من مفوض الشرطة.

تساءل: «هل هناك أي آثار للرَّصاصة حتى الآن؟»

قال الرجل الضخم ببرود: «لا شيء على الإطلاق. يعتقد دكتور جريندلي أنها رَصاصة ذات سرعة فائقة.»

قال الطبيب الشرعي وهو ينفث دخان سيجارته: «أنا متأكد، فقد رأيتُ منها الكثير أثناء الحرب. في رأيي أنها رَصاصة مُغلَّفة بالفولاذ.»

سأل ديفينش برفق: «أليس ذلك السلاح من نوع ماوزر؟»

أجاب الطبيب الشرعي مبتسمًا: «كان يجب أن أكون جندي مدفعية. فأنا أعرف كل شيء عنها وأعرف كل الأنواع. هذا الماوزر حديث، وأطلق منه الرَّصاص مرة واحدة. ولكن أعتقد أن خبراءك سوف يتفقون على أن ما أطلق منه هو رَصاصة فارغة. لا أريد أن أجزم بذلك، ولكنه رأيي.»

غمغم ديفينش قائلًا: «احتمال. فالرجل الذي يتكبَّد عناء وضع ضحاياه كمعروضات في واجهة العرض هنا لن يترك بندقيته واضحة للعِيان هكذا.»

تساءل مفوض الشرطة: «هل أطلقت الرَّصاصة من مسافة قريبة؟»

«أستطيع القول إنها لم تكن كذلك. ليست قريبةً للغاية على أيِّ حال.»

«كم مضى من الوقت على وفاته في تقديرك؟»

أطرق الطبيب الشرعي. ثم قال: «ليس من السهل الإجابة عن ذلك السؤال كما يعتقد البعض. يمكنني القول إنه تُوفي منذ ما يتراوح بين اثنتَي عشرةَ وأربع عشرة ساعة تقريبًا، ولكن للأسف قد أكون مخطئًا في ذلك.»

«وماذا عن الشابة؟»

«يمكنني القول إنها قد تُوفيت منذ مدة أقل، ولكن لا يمكنني تحديدها بدقة. لم يكن النزيف في كلتا الحالتين شديدًا — لو كانت رَصاصة صيد ذات رأس مدبب أملس إلى حدٍّ ما، كان الأمر سيختلف. أما الجرح الآخر فقد تسبَّب به سلاح لم ...»

قاطَعه ديفينش قائلًا: «انتظر لحظة. لو كانت قُتِلت بعده ...»

قال الطبيب الشرعي: «إذن فهو ليس الفاعل، أنا أُقرُّ بذلك! لا أعتقد أن أحدهما قد فعَلها بالآخر!»

ابتسم ديفينش ابتسامةً باهتة. ثم قال: «حسنًا، ستجري تشريحًا للجثتين لمعرفة سبب الوفاة، وبعد ذلك سنعرف المزيد. فكرت، أيها المفوض، أن أذهب لمقابلة الرجل المسئول عن قسم الطائرات. أرى أنك أخرجت معظم الأشخاص من المتجر، لكن المديرين التنفيذيين سيكونون هنا.»

قال الآخر: «لقد طلبت منهم البقاء في مكتب السيد ماندر الخاص. سوف يكون عليَّ أن أتحدث إليهم. لكن إن كنت مهتمًّا بمقابلة أحدهم على انفراد ...»

قاطعه المحقق قائلًا: «إن أمكن أن يأتيَ إلى القسم المسئول عنه بالطابَق العُلوي يا سيدي، فسأذهب الآن إلى هناك.»

أومأ مفوض الشرطة. وقال: «حسنًا. سوف أرسله إليك.»

أومأ المحقق إلى الطبيب وغادر. استقل أحد المصاعد الأوتوماتيكية، التي كان مثبتًا عليها لوحة كُتب عليها «إلى أقسام الأدوات الرياضية والطائرات»، فوجد نفسه في الطابَق الأول، وفي الحال وصل إلى قاعة ضخمة تُطلُّ على شارع بجانب مبنى المتجر. كان يوجد في هذا القسم نحو ست طائرات (بعضها جاهز للطيران، والبعض الآخر في مراحل مختلفة من عملية الطي مما جعل واثبة ماندر هدية للطيار الخاص الذي لا يمتلك حظيرة).

أشعل ديفينش سيجارة، وسار حولها مستغرقًا في التفكير حتى سمع صوت شخص يقترب منه ليخبره أن مدير القسم قد وصل لمقابلته. دخل الرجل وألقى تحية مقتضبة على المحقق. لاحظ ديفينش أنه شاب وسيم يقظ يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا، ذو سمت عسكري نوعًا ما، وتبدو عليه أمارات الذكاء.

أخبره المحقق قائلًا: «لقد كنت على السطح للتو. كانت هناك آثار جعلتني أتساءل إن كانت هناك طائرة هبطت هنا مؤخرًا.»

أجابه السيد كين: «هذا عمل قذر، أيها المحقق. لم أكن أتوقع أن يُطلق الناسُ النارَ بعضهم على بعض هكذا كما يحدث في الغرب الأمريكي المتوحش. ولكن ماذا كنت تقول؟ طائرة هبطت على السطح؟ هذا احتمال بعيد. لقد واجهنا ما يكفي من المتاعب بسبب ذلك منذ شهر مضى.»

«لقد تسبب في قدر من المتاعب، ولكنه حمل أيضًا قدرًا كبيرًا من الدِّعاية يا سيدي! أود الحصول على قائمة بأسماء مشتري «واثبة ماندر».»

«المشترون الأوائل. ولكن ماذا لو كانت قد أُعيد بيعها؟»

قال ديفينش، وهو يمدُّ عُلبة سجائره إلى الشاب الذي تناول منها سيجارة وأشعلها: «لا شك في أنه بإمكاننا تتبعهم.»

«أعتقد أن بإمكانكم ذلك. سوف أُحضر لك القائمة.»

«هل هذه الطائرات ثقيلة؟»

«نعم، إنها أثقل مما يجب أن تكون عليه الطائرات غير المزودة بجهاز الجايروكوبتر أيها المحقق.»

اقترب ديفينش من طائرة كانت جاهزة للطيران وقال: «الإطارات الموجودة على عجلات الهبوط تكون أعرض بطبيعة الحال عند ارتكاز الطائرة عليها مما تكون عند إزالتها.»

ابتسم كين. ثم قال: «هذا ما يُطلق عليه «لمحة أخرى مما هو بديهي»، أيها المحقق. ويمكنني أن أذهب إلى أبعد من ذلك وأُرجِّح أنه في اللحظة التي تهبط فيها الطائرة، فإن الاصطدام يجعل الأثرَ يبدو أعرضَ من ذلك أيضًا!»

أجابه ديفينش ببراءة: «هذا بالضبط ما كنتُ أفكر به يا سيدي. والآن، هل يمكننا الحصول على إحدى العجلات لصنع أثرٍ هنا بها؟»

فكر كين في الأمر مليًّا. ثم قال: «يمكنني أن أرسُم علامات الإطارين بالطباشير، ويمكننا دفع الطائرة إلى الأمام قليلًا على الأرض، إن كان ذلك سيفيدك بأي شيء.»

«رائع يا سيدي. وأثناء قيامك بذلك، سألقي نظرةً على دفاترك، وأدوِّن بعض أسماء مشتري هذه الطائرات.»

«تعالَ إلى مكتبي في هذا الركن البعيد. ستجد أقلامًا وأوراقًا، بينما أحضر لك الدفاتر من الخزينة.»

ربما كان هناك خمسون مشتريًا لطائرة «واثبة ماندر» منذ طرحها في الأسواق، أو بالأحرى، كان هناك وعد بتسليم هذا العدد من الطائرات. دوَّن ديفينش الأسماء والعناوين، وكان قد انتهى من إعداد قائمته عندما استدعاه كين.

«لنبدأ العمل، أيها المحقق.»

قاما بدفع إحدى الطائرات على الأرض فيما بينهما، وقام المحقق بقياس طول المسار المبيض الذي صنعته الإطارات فحسب، وكذلك عرض الأثر الذي صنعَه ضغط الوزن أعلاها.

قال عندما انتهى: «سيفي ذلك بالغرض جيدًا يا سيدي. والآن أريد أن أسألك سؤالًا عن السيد ماندر. لقد كان مهتمًّا بالطائرات والديناميكا الهوائية، أليس كذلك؟ فقد رأيت ما يشبه مختبرًا أو ورشة عمل في الطابَق العُلوي.»

ضحك كين قليلًا. ثم قال: «أظنه كان يعبث قليلًا؛ لكني لا أعرف شيئًا عن ذلك حقًّا. كان يقول إنه دائمًا يُخوِّل المسئوليةَ الكاملة عن أحد الأقسام لرجل واحد، ولا يتدخل أبدًا.»

«ولكن من اخترع الطائرة التي تحمل اسمه؟»

«من المفترض أنه من اخترعها.»

«حسنًا، ألم يفعل ذلك بالفعل؟»

«لا أستطيع الجزم بذلك. أعلم أنه حصل على براءة اختراع. لقد دخلت ورشته مرة واحدة فقط، ولم يعجبه وجودي كثيرًا. واندهشت لبُدائية الأعمال التي قام بها التي رأيتها هناك. لا بد أن الشخص الذي اخترع هذا شخصية بارزة في أشياء أخرى غير الميكانيكا.»

لمعت عينا ديفينش. وقال: «هل تقصد أنه لم يَبدُ لك مؤهلًا لذلك بما فيه الكفاية؟»

أومأ كين. وقال: «أعني ذلك، فعندما اضطُررت إلى التحدث إلى العملاء مرة أو مرتين أمامه، لم ينطق بكلمة واحدة. هل يمكنك أن تتخيل أيَّ شاب يمكنه أن يخترع طائرة جايروكوبتر مثالية يقف صامتًا بينما تتحدث بجهالة في مجال تخصصه؟ لا أتخيل ذلك! فأنا أعرف المخترعين. إنهم مزعجون للغاية، بؤساء، وعلى استعداد دائم للانقضاض عليك! فهذا يتعلق بالشعور الوحيد بالرضا الذي يستمدونه من اختراعاتهم.»

«ولكن لا بدَّ أن أحدهم قد اخترعها، أليس كذلك؟»

«هذا هو البديهي مرة أخرى. ولكن ألا يوجد أيُّ إشارة إلى أن هذا الشخص ربما كان مُفلسًا وعلى وشك الانهيار وما إلى ذلك، وأخبروه أنه يستطيع أن يحصل على مشترٍ إذا التزم الصمت؟»

قال ديفينش بنبرة متثاقلة: «آها!»

ثم شكر كين على مساعدته، وتركه ليصعد إلى السطح مرة أخرى، حيث أجرى قياسات ومقارنات جديدة، وظهر بعد نصف ساعة، وبينما كان مُتوجِّهًا نحو المصعد، التقى برجلٍ لم يرَه من قبل، رجل قوي البنية، أصلع الرأس، قدَّم نفسه باعتباره مساعد المدير.

وأخبر ديفينش قائلًا: «تم إخلاء المتجر بالكامل الآن أيها المحقق. هل هناك ما يمكنني القيام به لمساعدتك؟»

فكَّر المحقق قليلًا ثم سأله: «هل هذه شركة خاصة؟»

«لا، كان السيد ماندر هو المالك الوحيد.»

«حقًّا. ولكنها مؤسسة ضخمة للغاية. هل تقصد أنه يمولها كلها بمفرده؟»

«على حد علمي. لا يمكنني الجزم بذلك.»

لم تتطور المقابلة لأبعد من ذلك؛ فقد جاء شرطيٌّ مُسرعًا ليقول إن السيد ميليس، مساعد مفوض الشرطة من شرطة سكوتلانديارد، موجود في مكتب السيد ماندر الخاص، ويرغب في مقابلة المحقق.

الفصل الرابع

خرج طاقم العاملين من غرفة السيد ماندر، وجلس السيد ميليس في حالة من التوتر الشديد، مُمسكًا بسيجارة بين أصابعه الطويلة، وعيناه البنيتان الضاحكتان مُثبَّتتان على وجه المحقق ديفينش.

وهمهم بنبرة ودودة قائلًا: «لا يبدو أن هناك أيَّ دليل مادي يمكن الإمساك به، أيها المحقق، سوى مسألة الطائرة الجايروكوبتر.»

أجابه ديفينش: «ما يهمُّني أكثر يا سيدي هو الشخص الذي موَّل السيد ماندر. لا يمكنني فهْمُ ذلك. يبدو كأنه ظهَر فجأةً من العدم، وحتى لو كان عبقريًّا في مثل هذه الأمور، فمن أين أتى بالمال؟»

قال مساعد المفوض، وهو يضع سيجارته ويبتسم ابتسامةً واهية للغاية لفكرة خطرَت بباله: «أها، هذا ليس صعبًا للغاية كما يبدو. لكن لكونه بسيطًا — على الأقل أعتقد أنه كذلك، إذا كانت للشائعات أي أهمية — فإنه لا يُثير اهتمامي.»

«إذن، فأنت تعلمُ يا سيدي من كان وراءه؟»

«لا أعرف بالضبط أيها المحقق، لكن المرء يجمع المعلومات بينما يتلمَّس طريقه؛ لا أعرف بالضبط إن كانت المعلومات حقيقية وجديرة بالتصديق، كما تعلم، ولكني أتساءل عن احتمالية كونها غير ذلك.»

«إذن، إذا سمحت لي يا سيدي أن أسألك، من تعتقد أنه قد يكون وراء هذا المتجر؟»

عاد السيد ميليس للعبث بسيجارته مرة أخرى. وقال: «بصراحة، تشير الشائعات إلى أن السيدة بيدن-هايث هي مفتاح اللغز. إنها أرملة ذلك الرجل، صاحب شركة الشحن في بوينس آيرس كما تعرف.»

قال ديفينش: «في الثالثة والأربعين من عمرها، وتتمتع بقدر من الجمال. رأيت صورها في الصحف التي تتناول أخبار المجتمع. ولكن لماذا وقع الاختيار على السيد ماندر بالذات يا سيدي؟»

هز ميليس كتفَيه. وقال: «كان ماندر يعمل كاتبًا إداريًّا لدى المحامين الريفيين في فولبيري، حيث تقع ساحة بارستون كورت، مقر سكنها. الحب يجعلك تضل الطريق، أيها المحقق.»

أجابه ديفينش: «هو كذلك يا سيدي. وهذا يُضفي وجهًا آخرَ على الأمر. ولكنك ذكرت الطائرة الجايروكوبتر، يا سيدي، فما اعتقادك بشأنها؟»

«اعتقادي أنا؟ ظننت أنه اعتقادك أنت. الأثر الضيق والأثر العريض، كما تعلم. بدا لي أنك اعتبرت فكرة هبوط الطائرة على السطح الليلة الماضية، لنقل، خدعة بصورة أو بأخرى؟»

فكَّر ديفينش في الأمر مليًّا. ثم قال: «كما ترى يا سيدي، يبدو أن الفاعل من داخل المتجر. شخص ما كان يعرف ماندر وعلى دراية تامة بالمكان. ولكن لن أركن إلى هذه الفكرة رغم ذلك. بالطبع خطَر لي أنه إذا كانت الطائرة الجايروكوبتر قد هبطَت على السطح بالفعل، كانت لتترك بإطاراتها أثرًا أعرض من الأثر الموجود بالأعلى. كما أن الشخص الذي توخَّى مثل هذا القدر من الحذر وهو يرتكب جريمته، لم يكن ليترك آثار إطارات موحلة.»

قال ميليس متفقًا معه في الرأي: «وبما أن الطيارين المتخصصين في قيادة الجايروكوبتر نادرون، ويَسهُل معرفتهم، فإن المشكلة الوحيدة هنا هي الوحل. هل جُلِبَ إلى هنا؟»

هزَّ ديفينش كتفيه. وقال: «يجب أن نعرف نوعية الطين، والأماكن التي هطلت عليها الأمطار الليلة الماضية، إن كانت قد أمطرت في أي مكان من الأساس. فلم يكن الرجل سيقلع من مستنقع. وكبداية، سأتقصى عما إذا كانت قد أمطرت بالقرب من منزل السيد ماندر الريفي الجديد الليلة الماضية.»

تناول ميليس الهاتف الموجود على المكتب أمامه. وقال: «سوف نعرف ذلك من رجال الأرصاد مباشرة.» ثم أدلى برقم وعاد مرةً أخرى لحديثه مع ديفينش. «ألديك فكرة عن تلك الإطارات الاحتياطية الموجودة بورشة السيد ماندر؟»

«كان بإمكان أي شخص أن يدفعها عبر السطح، إذا كان قد لطَّخها بالوحل قبلها، ثم نظفها بعد ذلك، يا سيدي. يجب أن نتذكر أنه بمجرد صعود هذا الشخص إلى شقة ماندر، كان يمكنه أن يفعل أي شيء دون أن يسمعه أو يزعجه أحد.»

أومأ السيد ميليس سريعًا، ثم تحدث في الهاتف.

«أمطار غزيرة لمدة خمس وأربعين دقيقة؟ في أي وقت؟ العاشرة والنصف؟ شكرًا لك. هذا كل ما أريد أن أعرفه.»

نظر إلى المحقق. فبادله ديفينش النظرات. ثم قال: «أهناك ولو بصيص من الأمل؟»

زمَّ ديفينش شفتَيه. وقال: «مَن اخترع هذه الطائرة الجديدة؟ هذا ما أريد معرفته. لقد قابلت السيد كين — مدير قسم الطائرات — للتو، ويبدو أنه يعتقد أن ورشة ماندر وتجاربه العبثية ما هما إلا وسيلة للتصنع وادعاء المكانة.»

«حقًّا؟ ولماذا عساه يفترض ذلك؟ هل هو خبير بأيِّ حال؟»

قطَّب ديفينش جبينه. ثم قال: «في الواقع لم أكن أفكر فيه يا سيدي، ولكن أذكر الآن أنني قرأتُ عنه في الصحف، عندما كانوا يعلنون عن المتجر في البداية. طيار شهير سوف يتولى إدارة قسم الطائرات، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك.»

همهم المحقق قائلًا: «يعمل داخل المبنى، ودخل شقة ماندر وورشته مرة واحدة فقط. إن كان هناك أي صلة أخرى، فلا بدَّ أن أُحقق في الأمر.»

ابتسم ميليس. وقال: «لقد رأيت رجلًا بدينًا مؤخرًا، أعتقد أنه مساعد المدير. ربما يكون رجل أعمال ناجحًا، لكني أراه شخصًا لينًا سلسًا؛ من أولئك الذين يمكن محاصرتهم بالأسئلة لانتزاع المعلومات منهم.»

«هل أسمح له بالدخول يا سيدي؟»

«يُستحسن ذلك.»

خرج ديفينش وعاد في الحال مع مساعد المدير، السيد كرايت. طلب منه الرجل الجالس على المكتب أن يجلس وقدَّم له سيجارة وابتسم له ابتسامة ودودة.

«أنا متأكد من أنك كثير المشاغل للغاية يا سيد كرايت، لكنني أعلم أنك ستساعدنا. نحن بحاجة إلى بعض العقول المفكرة من الجانب المدني، ولن نُعطِّلك كثيرًا. إنها مجرد مسألة شكلية لتكوين رؤية دقيقة بخصوص العلاقات التي تجمع الموظفين هنا؛ أقصد الموظفين التنفيذيين. فكلما أسرعنا في إنجاز العمل الروتيني والانتهاء منه، تمكنَّا من التعامل مع القضية أسرع.»

كان السيد كرايت متعاونًا تمامًا. فقال: «يسعدني أن أخبركما بما أعرفه.»

«حسنًا! لنبدأ. الآن، هل كان السيد كيفيم المدير على عَلاقة جيدة بالسيد ماندر الراحل؟»

حكَّ السيد كرايت رأسه. ثم قال: «أجل، تمامًا. يمكنني القول إنها كانت عَلاقة جيدة للغاية. نحن هنا في العموم بمثابة أسرة واحدة سعيدة.»

رفع السيد ميليس حاجبَيه. وسأله: «في العموم؟ هذا بقدر ما يمكن للمرء أن يتوقع، على ما أظن. فلا يمكن أن نتوقع أن يكون عشرات الرجال على اختلاف طبائعهم أخلاء مقربين، أليس كذلك؟»

ضحك السيد كرايت قائلًا: «ولكن المشاحنات البسيطة التي كانت تحدث لا ترقى إلى ذكرها؛ فالأمر لا يتجاوز مجرد نوبات غضب لا أكثر. تتفهم بالطبع أن إدارة مكان ضخم كهذا لا بدَّ أن تثير الأعصاب في بعض الأحيان.»

قال ميليس ورأسه مائل على جانب واحد كعُصفور متألِّق: «ولكن يبدو لي الأمر غريبًا نوعًا ما أن يتجرَّأ أحد كبار الموظفين حتى على إظهار عصبيته لـ... لرئيسه في العمل.»

سارع السيد كرايت إلى توضيح الأمر. فقال: «أوه، بالطبع لم يكونوا لِيجرُءوا على ذلك مع السيد ماندر. لقد كنت أقصد فيما بيننا.»

«هل لي أن أطلب أسماء من بينهم ضغائن؟»

«حسنًا، لقد انتهى كلُّ شيء الآن، ولكن كانت ثمة مشاحنة بين مدير قسم الشحن ومدير قسم الأثاث. شجار إداري بحت، إذا جاز لي أن أصفَه كذلك.»

«فيما عدا ذلك، هل يمكن أن نعتبر أن بقية الموظفين التنفيذيين أصدقاء جيدون؟»

«حسنًا، لا. الصداقة شيء آخر. فخارج نطاق عَلاقاتنا بالعمل، قد يكون هناك قدر من العداء. أعني أنه إذا اجتمع الرجال، كما نحن مجتمعون، فليس بالضرورة أن يحب أحدهم الآخر.»

«هلا أعطيتني مثالًا؟»

نظر إليه كرايت بحذر، لكن تعبير وجه ميليس كان لطيفًا وبارعًا، وكان حبه للشائعات والنميمة حبًّا جمًّا، لدرجة أنه راح يُسهب في توضيح عبارته بالتفاصيل. «كيفيم وكين لم ينسجما أبدًا. لكن يمكنني أن أتفهَّم ذلك. فالسيد كيفيم ارتقى في عمله بجهده. إنه يتقاضى راتبًا جيدًا الآن، ويستحق ذلك، ولكنه ترقى بجهده. أما السيد كين، فيمكنني القول إنه مُتعجرف بعض الشيء؛ أعني أنه قد أظهر من خلال طريقته أنه يستهين بالسيد كيفيم.»

تمتم السيد ميليس مُلقيًا نظرة سريعة على ديفينش قائلًا: «بينما كان يجب رسميًّا أن يحترمه؛ ولكن في النهاية، نحن هنا فقط للتحقيق في مقتل السيد ماندر. لم يكن السيد كين على عَلاقةٍ سيئة بالقتيل، أليس كذلك؟»

«أوه، كلا. على العكس تمامًا. كان السيد ماندر فخورًا بتعيين أحد الحاصلين على وسام الخدمة المتميزة هنا، وكان كين دائمًا لطيفًا معه.»

طرح ديفينش سؤالًا: «من قاد الطائرة الجايروكوبتر في تلك المرة التي هبطَت فيها على السطح هنا؟»

«من قادها؟ هلا تدعني أرى؟ أوه، إنه الميكانيكي الذي ساعد السيد ماندر في تجاربه في الريف. ماذا كان الاسم ... ويبكن ... ويفن ... لا ويبلي. أتذكَّر هذا الرجل جيدًا؛ لأنني طلبت منه أن يشرح الطريقة التي يعمل بها هذا الشيء، وبدا لي أنه في غاية الغباء.»

قال المحقق: «على الرغم من أنه كان قادرًا على قيادة هذا النوع الصعب من الطائرات؟»

ضحك ميليس. وقال: «صديقي العزيز، عندما كنت في غرب أفريقيا، كان لديَّ سائق زنجي. لقد كان سائقًا خبيرًا، لكنه أحمق تمامًا. بعض الأشخاص شديدي الحماقة تجدهم عباقرةً في الميكانيكا.» ثم التفت إلى كرايت، وأضاف قائلًا: «حسنًا، نحن ممتنون كثيرًا لك. بالمناسبة، هل تتصل أي من هاتين السماعتين بشقة السيد ماندر في الطابَق العُلوي؟»

قال السيد كرايت: «هذه»، ورفعها.

قال ميليس: «هل تُمانع في أن تطلب من كبير خدمه الحضور إلى هنا؟ شكرًا لك. لن نُعطِّلك أكثر من ذلك.»

اتصل السيد كرايت بكبير الخدم وطلب منه النزول ثم غادر الغرفة. وحدَّق ميليس إلى ديفينش.

ثم سأله: «الآن هل ترى لذلك صلة بالجريمة، أم أنه ليس كذلك؟» وأضاف: «بصرف النظر عن النزاعات الإدارية، لدينا كين وكيفيم الكلاب الوحيدة التي تنبح وتعض.»

قال ديفينش متأملًا: «يمكنني أن أتخيل. يمكنني أن أتخيل ذلك، لولا وجود تلك الفتاة في القضية يا سيدي. قد يرغب رجل في قتل زميله وإلقاء التهمة على شخص آخر لا يحبه، لكنه لن يقتل فتاةً ليزيدَ الأمور سوءًا، ولا يمكنه معرفة إن كان الرجل الآخر ليس لديه حجة غياب.»

قال ميليس: «لكن لنفترض أن الرجل الآخر هو كيفيم؟ كان لدى كين وسيلة لمعرفة أن كيفيم كان قادمًا إلى هنا الليلة الماضية. لا؛ هذا غير وارد؛ لأنه لا يحتمل أن كيفيم كان

سيأتي على متن طائرة، وإذا كانت تلك العلامات الموجودة على السطح لا تشير إلى هبوط فعلي، فقد وُضعَت هناك للإيحاء بأن القاتل قد وصل إلى هنا جوًّا. ولكن لنفترض أن كيفيم كان عازمًا على ارتكاب الجريمة وإلقاء التهمة على كين. فهل سيكون ذلك احتمال أفضل؟ كما تقول، فإن كيفيم قناص بارع.»

قال ديفينش: «ما زال لدينا الفتاة. لماذا يقتل خطيبته؟»

اتكأ ميليس في مقعده، وأشعل سيجارةً أخرى، وأغمض عينيه نصف إغماضة. لقد كان ممثلًا هاويًا بارعًا، وكان إقحام هذه الهواية في عمله هو الشيء الوحيد الذي كان مرءوسوه يأخذونه عليه.

«ثمة جانب نفسي في هذه الجريمة يبدو أنه لم يخطر ببالك، أيها المحقق. وإذا كان قد خطر لك، فأنا أعتذر. إلامَ يشير قتل رجل وامرأة في واجهة متجر حيث سيكونان ظاهرَين للعيان لا محالة؟»

قال ديفينش: «انتقام يكتنفه أمر شخصي وشعور بالمرارة. إنها ليست جريمة قتل لتحقيق مكسب ما. أعلم ما تقصده يا سيدي.»

أومأ ميليس. وقال: «ماندر صاحب سلطة. في يده الترقيات وزيادة الرواتب. يبدو — فقط أقول يبدو — أنه قد سلب لُبَّ امرأة ثرية، بينما كان لا يزال في مكانة متواضعة. ومع وجود فتاة أفقر منه تحت سيطرته، فقد يُنصِّب نفسَه إلهًا عليها.»

عضَّ ديفينش على شفته. وقال: «الأدلة تتجه في هذا الطريق يا سيدي، ولكن ...»

طرق كبير الخدم الباب ودخل ليعتذر عن تأخره. طلب منه ميليس أن يجلس، ثم انحنى وأمسك صندوق رسائل، وأخذ منه سكينًا رفيعًا، مقبضه مُغطًّى بمنديل ورقي، ووضعه على الطاولة.

«أعتقد أنه من المستحيل أن يكون هذا قد جاء من شقة سيدكَ، أليس كذلك؟»

حمَل كبير الخدم نفسَه على إخفاء قشعريرة طفيفة سرَت في جسده. «معذرة يا سيدي. هل لي أن أنظر إليها عن قُرب؟»

أومأ ميليس برأسه، وكشفَ المقبض برفق، وحرَص على عدم ملامسة أصابعه له. وقال: «حسنًا؟»

قال كبير الخدم: «أعتقد أنني أتذكرها. أعتقد أنها العيِّنة التي عرضَها عليه السيد وينسون على العشاء في إحدى الأمسيات.»

ضغط ميليس عليه للحصول على المزيد من التفاصيل، وأعطاه كبير الخدم ما يريد. تناول أحد المُصنِّعين المعروفين في برمنجهام العشاء في الشقة ذات ليلة. ناقش هو وماندر

عقد صفقة لإنتاج نصف مليون «خنجر شرقي»، لتصنيعها في برمنجهام، وبيعها في القسم الشرقي للتذكارات وقَطَّاعات الورق. كان المُصنِّع قد أحضر معه عيِّنة، ووضعها على الطاولة. واحتفظ بها السيد ماندر، و...

قال ميليس: «إذن أسرع إلى أعلى وانظر إن كان ما زال هناك.»

قال ديفينش: «سأصعد معه يا سيدي. لقد أغلقت هذا الجزء من الشقة. من الواضح أن هذا الهاتف يتصل بالخدم ...»

قال كبير الخدم وقد همَّ واقفًا: «يتصل بحجرة المؤن الخاصة بي يا سيدي.»

سأل المحقق عندما صعِدا إلى أعلى بعد دقيقة: «أين احتفظ السيد ماندر بالخنجر؟»

«على الطاولة المذهبة في غرفة الاستقبال يا سيدي.»

أومأ ديفينش، وأخرج مفاتيح الشقة من جيبه، وتوقف المصعد.

تقدَّمه كبير الخدم إلى غرفة الاستقبال بعد لحظات قليلة، واتجه إلى الطاولة المذهبة، وأطلق صيحةً خافتةً قائلًا: «لقد اختفى، يا سيدي! كان هنا أمس، عندما دخلت بعد الغداء لأتأكد أن المِدفأة مشتعلة.»

قال ديفينش: «هل أنت متأكد من أنك تعرفه جيدًا؟»

«متأكد يا سيدي. لقد أُتيحت لي فرصة لرؤيته على الطاولة، ورأيت تلك العلامات المتعرجة على النصل، والمقبض ذا الشكل الغريب.»

أومأ ديفينش، وسمح للرجل بالانصراف، وأخبره بأن بإمكانه العودة إلى مسكنه. ثم أعاد إغلاق الشقة وعاد إلى مساعد مفوض الشرطة.

رفع ميليس حاجبَيه مستفسرًا وعلم أن السكين، أو الخنجر، قد اختفى بالفعل من الشقة الكائنة بالطابَق العُلوي، ثم وقف وقال: «حسنًا يا ديفينش، لديَّ شهية لتناول الغداء، ولديَّ موعد بعد ذلك. تعالَ معي ولتبلغ عن الأمر في المساء، هل ستأتي؟»

أجابه المحقق: «نعم يا سيدي. لقد أرسلت الرقيب للتحقيق في شقة الآنسة تيومر. أعتقد أنني سأذهب إلى هناك بنفسي بعد أن أتناول الطعام.»

قال ميليس بأسلوب الممثلين الهواة الرائع المميز له: «فلتفعل!» ثم التقط قفازه وقبعته — لم يكن يرتدي المعاطف قط — وخرَج.

بعد خروجه جلس ديفينش لبعض الوقت يطرق بأصابعه على ركبتيه مستغرقًا في التفكير. وكان لا يزال على الحال نفسه عندما دخل الرقيب، وألقى عليه التحية، واقترب منه.

أخبر ديفينش قائلًا: «أخبرني حارس البناية أن الآنسة تيومر قد خرجت مساء أمس في الساعة العاشرة إلا الربع ليلًا، ولكنها لم تَقُل إلى أين كانت ذاهبة.»

«والسيد كيفيم؟»

«يعتقدون أن السيد كيفيم قد خرَج بعد الساعة الحادية عشرة، ولكن لم يرَه أحد عائدًا مرة أخرى.»

«هل هناك أي حارس ليلي عند تلك الشقق؟»

«نعم يا سيدي ولكنه لم يلحظ عودةَ السيد كيفيم. ورأيت أنه من الأفضل أن أعود لأخبرك بذلك، دون الانتظار لإجراء أي تحقيقات أخرى.»

أومأ ديفينش. ثم قال: «أنت مُحق تمامًا. فالتوقيتات مهمة؛ أحدها، على الأقل. سوف أذهب إلى هناك بنفسي هذا المساء، لذا لا تشغل نفسك بهذا الأمر ثانيةً. أريدك أن تفحص الأرض هنا جيدًا وتقوم بعمل خارطة للطريق الذي ربما اتخذه القاتل إذا حمل أحد القتيلين أو كليهما من المصعد حتى واجهة المتجر.»

«مصعد البضائع يا سيدي، حيث وُجِد الخنجر، أليس كذلك؟»

«بالضبط. وبعد انتهائك من ذلك، أريدك أن تُجريَ بعضَ التحريات عن الحارس الليلي. اذهب إلى السيد كرايت لطلب العنوان. لا أريد أن يعرف الرجل شيئًا عن ذلك. بالمناسبة، هل رأيت السيد كيفيم في أي مكان بالمبنى؟»

«لا يا سيدي. أظن أنه لم يَعُد.»

الفصل الخامس

ثمة هُوَّة سحيقة بين المتجر الفيكتوري والمتجر العصري في القرن العشرين. ولعلَّ الهُوَّة الأكبر تكمن في الرواتب المدفوعة إلى العاملين بالمستويات الإدارية العليا. ومِن ثَم، لم يندهش المحقق ديفينش كثيرًا حين اكتشف أن الآنسة تيومر الراحلة كانت تسكن في شقة صغيرة فخمة في حي رائع جدًّا. صحيح أنها لم تنتقل إلى هناك إلا بعد أن حصلت على الوظيفة في متجر ماندر.

كان البوَّاب هو وجهة المحقق الأولى بحثًا عن المعلومات، وقبل أن يتمكَّن من التعامل مع المشكلة الأساسية اضطُر إلى تحمُّل جرعة صغيرة من فضول الرجل تجاه الجريمة. حاول أن يختصر بقدر الإمكان، وسأله عمَّا إذا كان هناك أيُّ شخص من سكان الشقق الأخرى على معرفة بالسيدة المتوفاة.

قال البوَّاب بحسٍّ فكاهي لاذع نوعًا ما: «لا أحد يعرفها بعدُ يا سيدي، ولن يعرفها أحد بعد الآن على الأرجح. أتعلم يا سيدي، هذه هي المرة الأولى التي يسكن فيها معهم شخص مثلها هنا. لا أعرف من الذي أفشى السر، ولكنَّ الآخرين ...»

قال ديفينش، الذي كان يدرك تمامًا أن الرجل كان يشير إلى وجود قدر من الغطرسة من جانب السكان الآخرين: «أفهم ذلك. إذن، لا جدوى من استجواب أيٍّ منهم بخصوصها. ولكن لعلك لاحظت بعضًا ممن يأتون لزيارتها من وقت لآخر.»

ردَّ الرجل: «لم يكن يأتيها كثيرون، وهذه حقيقة، ولكن مؤخرًا كان أحدهم يتردد عليها بانتظام، وكان هناك آخر يأتي بسيارة.»

وصف الزائر المنتظم، وأدرك ديفينش أنه كيفيم.

وعقَّب قائلًا: «وماذا عن الرجل صاحب السيارة؟»

اقترب البوَّاب منه قليلًا. ثم قال: «لم أرَه مُطلقًا، يا سيدي. لقد اعتاد أن يأتيَ متأخرًا أحيانًا في سيارة مغلقة، وكان يجلس دائمًا في الخلف.»

«ولكن أظن أنه من المفترض أن تذهب لتفتح باب السيارة له.»

«لم يكن هذا ضروريًّا يا سيدي. فسائقه الخاص اعتاد أن ينزل ويقف أمام الباب، حتى تخرج السيدة وتركب السيارة. كان عليَّ دائمًا أن أطلب الآنسة تيومر عبر الهاتف الداخلي وأخبرها بأن هناك سيارة تنتظرها.»

«إذن، أليس لديك أدنى فِكرة عن أوصاف الزائر؟»

«ولا النزر اليسير حتى. فلم يدخل إلى المنزل قط. كنت لأواجه مشكلة لو أنني ذهبت ونظرت إليه وهو بالداخل.»

بدا ديفينش مستغرقًا في التفكير. ثم قال: «أخشى أن هذا لن يؤثر على سَير القضية. ولكن هل يمكنك أن تُخبرني منذ متى يتردد الرجل الثاني عليها؟»

«جاء لأول مرة بعد أسبوع من انتقالها إلى هنا، يا سيدي.»

«شكرًا لك، هل جاء الأثاث الخاص بها كله من منزلها السابق؟»

أخذ البوَّاب يرمش بعينيه في تأمُّل. ثم قال: «كلا، لم يأتِ كلُّه. جاءت مجموعتان من متجر وراونجس بعد انتقالها إلى هنا بعشرة أيام، ثم أُرسلت بعض القطع إلى صالة للمزادات.»

«أظن أن الرجلين لم يأتيا أبدًا في اليوم نفسه، أليس كذلك؟»

«كلا، لم يأتيا معًا. عندما تخرج الآنسة تيومر مع الرجل الآخر، دائمًا ما ترتدي ملابس مبهرجة؛ كانت أنيقة على الدوام.»

حصل ديفينش على المفتاح الرئيسي وتفقَّد الشقة عينها بعد ذلك.

في أثناء التفتيش في أوراق الآنسة تيومر ومراسلاتها، التي لم يكن عددها كبيرًا، لم يجد شيئًا يصلح دليلًا يُسهم في حلِّ اللغز. وانتهى به المطاف بهاتفها، ودوَّن ملاحظة بالقلم الرَّصاص بالأرقام على الدفتر. كان هناك خمسة أرقام فقط.

أجرى اتصالاته، وأوضح صفته، واستفسر عن الأرقام الخمسة. كان أحدها يخصُّ السيد كيفيم، وآخر يخص السيدة هوو القاطنة في بيستر ستريت (التي قرَّر أن يستجوبها في وقت لاحق)، ورقمان يخصان مصفف شعرها واختصاصي معالجة الأقدام على الترتيب. كان الرقم الخامس هو رقم السيد ماندر، رقم شقته الخاصة، لا الرقم الذي تُحوَّل من خلاله المكالمات من جانب عامل التحويلات الهاتفية.

لم يكن هذا في حد ذاته دليلًا قاطعًا على وجود أي عَلاقة حميميَّة بين الرجل والمرأة المتوفيين. ربما كان من المفيد بالنسبة إليها أن يكون معها رقم صاحب العمل؛ إذ كانت تشغل منصبًا مسئولًا في المتجر.

نظر ديفينش إلى ساعته. كان الظلام يحل مبكرًا في هذا الوقت من العام، ولكن هذا لا يهم. كان من المقرر أن يذهب إلى قصر جيلوفر مانور ويتأكد بنفسه من وجود «واثبة ماندر» هناك.

استقلَّ قطارًا من محطة بادينجتون، وبعد مرور ساعة كان يسير نحو البيت الكبير نسبيًّا على أطراف بلدة جيلوفر. بدأ الظلام يُخيِّم، وبينما كان في طريقه إلى ممر السيارات، استطاع أن يرى هيئة المنزل المبني على طراز الملكة آن المعماري، وإلى يساره بدا ما يُشبه ساحةً، أو حظيرة للطائرات، كانت يمكن أن تئويَ أربع طائراتٍ جديدة بكل سهولة. كانت هذه الحظيرة مبنية بجانب كوخ صغير وجميل مسقوف بالقش، وكان ثمة ضوء ينبعث من إحدى النوافذ بينما كان ديفينش ينظر في هذا الاتجاه.

استنبط ديفينش من اتصال المبنيَين بعضهما ببعض أن الميكانيكي الذي تحدَّث عنه السيد كين ربما يكون هو قاطن الكوخ. فغيَّر رأيه بخصوص الذَّهاب مباشرة إلى القصر، وانعطف نحو المكان الذي ينبعث منه الضوء.

طرق باب الكوخ، وفُتح الباب بعد مهلة قصيرة. كان الرجل الذي فتح الباب يرتدي زيًّا مهندمًا، وكان مظهره يوحي نوعًا ما بأنه خادم. كان وجهه طويلًا وحليق الذقن، وذا جبهة عالية، ولكن لم تَبدُ عليه أمارات الذكاء الشديد؛ رغم تلك الملامح التي تنمُّ عن الفطنة.

ابتدأ ديفينش حديثه قائلًا: «أنا ضابط محقق من سكوتلانديارد. أظن أنك سمعت خبر وفاة السيد ماندر؟»

لقد سمع الرجل الخبر. عبَّر عن حزنه على نحو متخبط، وعندما دعا ديفينش للدخول إلى الرَّدْهة المضاءة، بدا من نظراته أنه متأثر فعلًا من الخبر.

قدَّم ديفينش إليه سيجارة، وأشعل لنفسه واحدة، ثم جلس.

سأله: «هل أنت الميكانيكي المسئول عن الطائرة الجايروكوبتر الجديدة؟»

أجاب قائلًا: «أجل، أنا. اسمي ويبلي. ما الخطب؟»

«أريد أن أعرف إن كان السيد ماندر يحتفظ بإحدى الطائرات هنا، وإذا كان الأمر كذلك، فهل استخدمها هو أو أي شخص آخر أمس؛ أقصد بعد الساعة السابعة والنصف مساءً؟»

قال مزمجرًا: «لا. لم يستخدمها أحد، ولا حتى صباح أمس.»

«ولكن السيد ماندر جاء إلى هنا.»

«كلا، لم يأتِ.»

«هل أنت متأكد؟»

«بالطبع متأكد. لو جاء إلى هنا، لكنت رأيته. أما بالنسبة إلى الطائرة، فهي موجودة هنا، ويمكنك أن تراها إذا أردت، وتستطيع أن تسأل أي شخص في المنزل عمَّا إذا كانت قد خرجت أم لا.»

«ربما لا يعرفون.»

قال ويبلي بنفاد صبر: «المحرك لا يعمل بدون ضوضاء. أي شخص أحمق يعرف ذلك. سلهم.»

ضحك ديفينش. من الواضح أن الرجل لم يكن ذلولًا، أو خشي هذه الزيارة على الإطلاق. فأردف ديفينش يقول: «فهمت. الآن، هل يمكنك أن تخبرني ما إذا كانت قد أمطرت هنا أمس؟»

حدَّق ويبلي بنظره. ثم قال: «أجل، أمطرت. أمطرت بغزارة لمدة ساعة أو نحو ذلك، لأول مرة منذ فترة.»

«هل مكان الإقلاع الخاص بكم يمكن أن يتحوَّل إلى مستنقع وتُترك عليه علامات الاستخدام بعد سقوط الأمطار؟»

حدَّق ويبلي مرة أخرى. وأردف يقول: «بالطبع لا. السيد ماندر لديه المال، ولم يكن ليترك المكان أرضًا مجرفة. اخرج وعاينه بنفسك. تقلع الطائرة من مكان صغير جدًّا، بالنظر إلى مواصفاتها، ويمتد ذلك المكان كملعب تنس صُلب.»

«ليس كطمي صُلب، أليس كذلك؟»

«طمي، كلا. بل رماد ناعم ومسوَّى جيدًا.»

بدأ ديفينش يرى أن أفكاره الأولى ربما تكون خيرَ دليلٍ بالنسبة إليه. إذا كانت الطائرة الجايروكوبتر قد أقلعت من أرضية ترابية، فليس من المرجح أن تصل إلى لندن وعلى عجلاتها وحل، ما لم تَكُن قد لجأت إلى هبوطٍ اضطراريٍّ على الطريق.

سأله: «هل يمكنني رؤية الطائرة؟ يجب أن أتأكد بنفسي.»

ضحك ويبلي. وقال له: «تفضل. هذا شأنك، لا شأني.»

غادرا الكوخ، وفتح ويبلي الحظيرة بمفتاح كان يحتفظ به في جيبه، وأضاء نحو ستة مصابيح قوسية شديدة الإضاءة جعلت المبنى من الداخل مضيئًا للغاية، وجعلت الأرضية الأسفلتية بيضاء. وفي منتصف المرأب، وقفت إحدى «واثبات ماندر» على أُهْبة الاستعداد.

توجَّه ديفينش إليها وأخذ يفحصها بدقة، بينما أخذ ويبلي يتحرك في تكاسل بالقرب من المدخل، ينفث دخان سيجارته بلا اكتراث. كانت الطائرة نظيفة ومرتبة وكأنها جديدة تمامًا، ولكن هذا بالتأكيد قد لا يعني سوى أن ويبلي قد قضى يومه في تنظيفها.

وبينما كان ديفينش بصدد الالتفات إلى الرجل، نظر بالأسفل ولاحظ أن ثمة تسعة أعقاب سجائر أو عشرة ملقاة على الأرضية بالقرب من الطائرة. ألقى سيجارته في منتصفها، وحاول التقاط عقبَي سيجارتَين أُخريَين بينما كان جاثيًا على ركبتيه. كانت واحدة من السيجارتين من نوع رخيص يُسمى «تويكس» أمَّا الأخرى فكانت سيجارةً تركية فاخرة مسطحة الشكل. ومن بين الأعقاب الملقاة على الأرضية كان هناك على الأقل ستة أعقاب من هذا النوع التركي.

من الواضح أن ويبلي كان مدخنًا شرهًا. فقد انتهى من السيجارة التي أُعطيت له، وأشعل واحدة أخرى من سجائره الخاصة بعقب السيجارة المنتهية حين انضمَّ إليه ديفينش من جديد. كانت عُلبة السجائر التي وضعَها في جيبه مكتوبًا عليها: «تويكس — السيجارة ذات النكهة القوية.»

قال المحقق مُثبتًا عينيه على وجه الرجل: «اسمع، أظن أن السيد ماندر كان هنا على أي حال. أرى الكثير من أعقاب السجائر التركية على الأرضية.»

رد ويبلي، وهو يبصق على الأرضية بشيء من الازدراء قائلًا: «إنه لا يُدخِّن سوى السجائر الروسية. ماذا هناك أيضًا؟»

«أود أن أعرف من كان هنا أيضًا.»

«أتوقَّع أنك تودُّ ذلك. ولكن هذا ليس من شأنك.»

«اسمع، يا ويبلي، لا داعي لأن تكون عدائيًّا. هذا عبث. لقد جئتُ إلى هنا فحسب لأحقق في وفاة السيد ماندر.»

«وهذا عبث أيضًا؛ لأن السيد ماندر لم يأتِ إلى هنا أمس، وهذه السجائر لا تخصه.»

فكر ديفينش مليًّا. فالشخص الذي يضع وحلًا على إطارات احتياطية ليوحي بأن الطائرة الجايروكوبتر ربما أقلعت من جيلوفر لا بدَّ أنه كان يعرف أنها أمطرت في جيلوفر. ومن ناحية أخرى، إذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أنه رجل كان يجهل أن مكان الإقلاع هناك مُغطًّى برماد صلب.

قال: «لقد كان لديك زائر على أي حال، أليس كذلك؟»

قال ويبلي: «هذا صحيح. كان لديَّ زائر فعلًا — يمكنك أن تقول صديق، أو لا يمكنك ذلك — كما تحب. أنا لا أتعمَّد إخفاءَ شيء. لو كنت سألتني لأخبرتك.»

ضحك ديفينش ضحكةً متصنعة وقال: «أجل، هذا ما جنيتُه على نفسي. ولكن، إذا سألتك بلطف، لا أظن أنك لن تمانع في إخباري بهُويَّة زائرك؟»

فكَّر ويبلي في ذلك بضع لحظات. ثم قال: «كان الزائر هو السيد كين، إذا أردت أن تعرف، هذا كل ما في الأمر. أخبرني بأنه المسئول عن الطائرات بالمتجر.»

أخفى ديفينش شعوره بالرضا. وقال: «أظن أنه لم يُقلِع بالطائرة، أليس كذلك؟ كلا، أتذكر أنك قلت إن أحدًا لم يفعل ذلك. هل لي أن أسأل عن طبيعة المهمة التي جاء إلى هنا من أجلها؟»

«لقد جاء من أجل الحصول على المزيد من التفاصيل لا أكثر. قال إن رب العمل يشتكي من أن تكلفة بناء الطائرات والدِّعاية لها أكثر ممَّا تستحق؛ أكثر من أن تحقق ربحًا على أي حال. أخبرني رب العمل بذلك من قبل، ومِن ثَمَّ لم يكن ذلك شيئًا جديدًا.»

قال ديفينش: «عجبًا، يبدو لي، من واقع كل ما سمعته، أنه اختراع رائع. اكتشاف القرن.»

لمعت عينا ويبلي، وتلاشى العبوس عن ملامح وجهه. وبدا أن ينبوعًا من الحماس قد تفجَّر داخله وهو يجيب بأنها أفضل طائرة حلقت في الجو. وتوجَّه إلى الطائرة أثناء حديثه، وبدأ يشرح تفاصيلها في حماس بلغة تقنية لم يستوعب ديفينش أغلبَها. كان من اللافت للنظر التحول الذي حدَث للرجل من قرويٍّ فظٍّ بلا أيِّ ذكاءٍ إلى فنيٍّ بارعٍ مُتَّقد الذكاء، وأدهش المحقق الذي وقف يستمع إليه لمدة ربع ساعة في صمت. ثم توقَّف الرجل، وحكَّ رأسَه، وعلى الفور عاد عابسًا مُكفهرًا مرةً أخرى قبل أن يُشعل ذِكر الطائرة الجايروكوبتر شرارةً في عقله.

سأله المحقق قائلًا: «متى جاء السيد كين إلى هنا أمس؟»

«حوالي الساعة السادسة، يا سيدي. ثم استقلَّ قطار الساعة السابعة.»

«هل جاء هنا من قبل؟»

«كلا، لم أرَه من قبلُ قط. لقد جاء مباشرة إلى هنا، ثم رحل مباشرة.»

«لم يسألك عن أرضية المهبط، أو يطلب منك تفقُّدها، أليس كذلك؟»

«كان الظلام قد حلَّ عندما وصل. فلم يطلب ذلك.»

شكره ديفينش، وخرج متوجِّهًا إلى القصر. وهناك استقبله كبير الخدم، وكان رجلًا مُسنًّا أغراه ماندر بالعمل لديه وترك خدمة اللورد فالي، وتأكَّد من أنَّ ويبلي كان مُحقًّا. لم يكن السيد ماندر هناك يوم الأحد.

سمع كبير الخدم بجريمة القتل. فقد اتصل به السيد كيفيم هاتفيًّا (وهي المعلومة التي عبَس المحقق لدى سماعها). كان السيد ماندر سيدًا كريمًا، وساورَ جميعَ أفراد طاقم العاملين قلَقٌ شديد إزاء المأساة. لقد قال السيد كيفيم إنه سيأتي لتسوية الأمور والقيام بما ينبغي لإغلاق القصر، ولكنهم لم يسمعوا شيئًا منذ ذلك الحين.

بالإضافة إلى ذلك عرَف ديفينش أن السيد ماندر لم يمكث ليلةً واحدة في القصر طَوال الشهر الماضي.

تساءل قائلًا: «هل سمع أحد منكم الطائرة وهي تُقلِع يوم الأحد؟» فهزَّ كبير الخدم رأسه نافيًا.

«كنَّا سنسمعها لو كانت قد أقلعت.»

أومأ ديفينش برأسه. ثم قال: «صحيح. الآن، هل لي أن أسأل إنْ كان لدى السيد ماندر أي صداقات هنا؟»

أجاب الرجل قائلًا: «لا، ليس بعد، يا سيدي. يمكنك أن تقول إن سكان المقاطعة غير اجتماعيين. ويمكنني القول إنهم كذلك أكثر من نظرائهم في أغلب المناطق.»

«إذن، السيد ماندر لا يستضيف أحدًا في منزله؟»

«ليس هنا يا سيدي، رغم أنه ربما كان يفعل ذلك في شقته بالمدينة.»

«إذن، لم يُحضِر أحدًا من المدينة إلى هنا؟»

«ليس للإقامة، يا سيدي. لم يحدث على الإطلاق؛ إلا إذا كنت تقصد السيدة الشابة التي أتى بها إلى هنا مرةً واحدةً قبل خمسة أسابيع مضت.»

تفاجأ ديفينش. وسأله بعد أن وصف السيدة الراحلة بقدر ما يمكنه: «هل كانت تشبه هذه الأوصاف؟»

عضَّ كبير الخدم على شفته. من الواضح أنه كان مترددًا بخصوص إن كان ينبغي عليه إفشاء أي شيء بخصوص ضيوف سيده. وأردف يقول: «ربما تتشابه هذه الأوصاف مع السيدة، يا سيدي. أنا بالطبع لم أنظر إليها عن كثَب.»

«هل تناولت الغداء أم العشاء هنا؟»

«كلا، يا سيدي. لقد جاءت في السيارة التي يحتفظ بها في المدينة. وكان هو أيضًا بالسيارة. أراها الحدائق، وجزءًا من المنزل، ثم غادر بالسيارة مرة أخرى.»

«هل قال إلى أين؟»

«كلا، يا سيدي. لم يخبرني مطلقًا.»

قال ديفينش في نفسه وهو يغادر القصر ويتجه إلى محطة القطار: «يمكنني أن أعرف ذلك من سائقه بالمدينة.»

الفصل السادس

تناول ديفينش وجبة سريعة في عجالة في أحد المقاهي عندما رجع إلى المدينة، ثم ذهب إلى إسطبلات جاندي ليقابل الرجل الذي كان يعمل سائقًا لدى توبياس ماندر في لندن.

ظل روبنسون منتظرًا في المنزل طَوال اليوم، متوقعًا زيارة من الشرطة، وكان قد قرَّر أن يذهب هو وزوجته إلى السينما، عندما زاره ديفينش فجأة.

كان رجلًا أملسَ الشعر وديعَ الملامح، وكان أول شخص من خدم ماندر يبدو عليه بكل وضوح عدمُ تأثُّره بوفاة سيده. لقد فاجأه الخبر دون أن يصدمه كثيرًا، وكان هادئًا تمامًا بينما كان يُجيب عن أسئلة المحقق.

قال إنه تردَّد بالفعل على البناية التي كانت تقطن فيها الآنسة تيومر عدَّة مرات. لم يكن يفهم السبب الذي يجعل سيده يذهب إلى هناك، ولكنه كان يتفهَّم أن السيد ماندر اعتاد أن تأتيَه أفكارٌ عملية ملهمة أثناء أوقات فراغه، وقد يرغب بعد ذلك في مناقشتها مع رئيس هذا القسم أو ذاك. قال هذا بنبرة رجل لا يُصدِّق ما يقول ولكنه يُقدِّم طائعًا المبرر الذي قدَّمه له سيده.

سأله ديفينش وهو يُدوِّن كلَّ هذا قائلًا: «إلى أين كنت تتجه بهما بالسيارة؟»

«أحيانًا إلى أعلى النهر، يا سيدي، وأحيانًا إلى مطعم بأحد الفنادق.»

«بالتأكيد كان مُروِّجو الشائعات المأجورون يُعلِّقون على هذا الأمر في الصحف، أليس كذلك؟»

هزَّ روبنسون رأسه نافيًا. وقال: «كنا نذهب دومًا إلى فندق سانجرادو، يا سيدي.»

كان ديفينش يعرفه؛ وهو فندق صغير يُقدَّم فيه طعام جيد جدًّا. ولكن لم يكن محطَّ اهتمام البوهيميين من أفراد المجتمع، ومن الممكن جدًّا أن يجلس ماندر هناك دون أن يلاحظه أحد.

قال: «حسنًا؟ لنستعرض يوم أمس. كان السيد كيفيم لديه اعتقاد بأن السيد ماندر موجود في قصر جيلوفر مانور.»

ردَّ السائق قائلًا: «كان في طريقه إلى هناك، يا سيدي، ولكنه تلقَّى اتصالًا هاتفيًّا، فأخذته بالسيارة إلى بارستون كورت. ومكثنا هناك حتى المساء.»

أومأ المحقق برأسه. كان المنزل الريفي الخاص بالسيدة بيدن-هايث في بارستون كورت، حيث يعيش ابنها، جيمسون، أغلب أيام السنة.

فسأله: «هل كانت السيدة بيدن-هايث في المنزل؟»

«أجل يا سيدي؛ لقد ذهب سيدي لمقابلتها.»

«وهل كان السيد جيمسون بيدن-هايث هناك أيضًا؟»

تبدَّل وجه روبنسون بعض الشيء. وقد أفشى ذلك على الفور معرفة عامة بطبيعة العَلاقات بين آل بيدن-هايث، الأم والابن، والسيد توبياس ماندر.

«غادر على الفور بمجرد وصولنا، يا سيدي.»

نظر إليه ديفينش مُتأمِّلًا. وأردف يقول: «هل تقصد أن السيد جيمسون، الابن، لم يكن ودودًا مع سيدك؟»

أجاب السائق: «إن كان الحكم بالمظاهر، فيمكنك القول إنه لم يكن يُطيقه. وحريٌّ بي أن أقول إنه نفسه شخصٌ بلا أيِّ قدرات استثنائية. يبدو وكأنه لا يستطيع الابتعاد عن زجاجة الخمر إن حاول ذلك.»

عندما غادر ديفينش الإسطبلات بدت له تحركات السيد ماندر في يوم الأحد أقلَّ غموضًا مما بدت عليه في البداية. فهل هناك ما هو طبيعي أكثر من أن ترغب السيدة الممولة للمشروع التجاري في رؤية الرجل الذي تموله؟ وعاد على الفور إلى سكوتلانديارد، ليبلغ ميليس بآخر المُستجِدات. ولكن كان السيد ميليس قد ترك رسالةً يقول فيها إنه خارج المدينة.

قرَّر ديفينش أن يُنجز مُهمَّةً أخرى قبل أن يُنهيَ عملَه لهذه الليلة. وتحدَّث سريعًا مع اثنين أو ثلاثة من مرءوسيه، وعرَف أن المسدس الماوزر الآلي الذي عُثر عليه في مسرح الجريمة بالمتجر سُرق من قسم المستلزمات الرياضية.

وقال في نفسه: «إذن، من الأفضل أن تذهب على الفور بنفسك، وتصادر جميع المسدسات التي لها ماسورة مماثلة لديهم. أظن أنهم يستخدمون ذخيرة عالية السرعة بقطر ٠,٣٠٣ بوصة.»

كانت الساعة التاسعة مساءً، ولكنه عزم على مقابلة السيدة هوو في بيستر ستريت. ولكنه اتخذ احتياطاته أولًا بالاتصال بها والتأكد من أنها ستكون موجودة بالمنزل. فأعربت له عن شعورها بالذعر من هذا الحادث المأساوي، وأنها تفاجأت تمامًا بوقوعه، على حدِّ قولها، وعلى استعداد للإجابة عن أي سؤال.

في هذه المرة، تبيَّن أن المنزل الكائن بشارع بيستر ستريت هو عبارة عن شقة أخرى، صغيرة جدًّا ولكنها مريحة، وأن السيدة هوو هي صحفية. وبعد حديث قصير، اكتشف ديفينش أنها واحدة من مسئولي الدِّعاية المأجورين للمتجر، ومن هنا جاء لقاؤها بالآنسة تيومر، وأُعجبت بها.

تفحص ديفينش الوجه الجميل للسيدة الضئيلة البنية الجالسة قبالته في إعجاب. كانت تتحدث بنبرة واضحة، وتبين الأمور بصراحة، وكانت ذات ذكاء شديد. وخطر له أنها سيدة من الصعب التطفل عليها.

قال على الفور: «حسنًا يا سيدة هوو. من واقع خبرتنا الكافية، أنا وأنتِ، بهذا العالم، نعرف أن شخصية القتيل غالبًا ما تعطينا دليلًا واضحًا لحل اللغز المأساوي تمامًا كشخصية القاتل. أعرف أنكِ كنتِ صديقة للسيدة الراحلة. هل يمكنكِ إلقاء الضوء على الموقف من تلك الزاوية؟ أي نوع من النساء كانت هذه السيدة؟»

ضاقت عينا السيدة هوو قليلًا. ثم قالت: «كانت فاتنة، وصديقة رائعة. ولكن لا أظن أنها كانت حقًّا بتلك الطيبة الشديدة، وواثقة من أنها كانت على استعداد لبيع لا شيء مقابل أي شيء. أعرف أن هذا يبدو اغتيابًا لها، ولكن هذه هي الحقيقة. لقد جُبلت على ذلك. ولكن لم يتأثَّر إعجابي بها رغم تخميني لحقيقتها تلك.»

رد قائلًا: «ربما تقولين إنه مجرد «تخمين»، ولكن ربما يكون ما تقولينه مُهمًّا. فستدركين أن أمر العثور عليها في المتجر أثناء عُطلة نهاية الأسبوع سيوحي للكثيرين باحتمال وجود مؤامرة.»

هزت رأسها نافية. وأردفت قائلة: «لا أعتقد ذلك. إنها ليست من هذا النوع، إذا كنت تقصد ذلك النوع. إذا كانت الفتاة بصدد الزواج، فهذا لأنها كانت تقليدية. أقصد أن أقول إنها من نوعية النساء اللاتي ينبغي أن يكون لهن زوج وبيت، كِيان ما. كانت تكره أن تكون عانسًا؛ لأن العوانس أحيانًا ما يُحتقَرن من قبيل الحماقة. ولكن لا أظن أنها كانت لتجعل الحب محورًا لوجودها في الحياة. لست أعرف إن كانت قد وقعت في الحب من الأساس.»

أومأ برأسه. كان سعيدًا بما فهمه. «أتقصدين أنها كانت باردةً بطبعها؟»

«أجل، أنا متأكدة من أنها كانت كذلك. ما كانت لتذهب إلى أي مكان من أجل المغامرات. لم تكن من هذا النوع.»

«ولكن لا شك أنها ذهبت إلى المتجر أمس.»

هزَّت كتفيها. ثم قالت: «أرى أنك تتساءل في نفسك ما دَور السيد ماندر بالضبط؟ لم يأتِ ذكره على لسانها قط إلا في إطار العمل، ولكن لو كان مفتونًا بها، فقد كان سينتظر كثيرًا، أليس كذلك؟»

قال ديفينش بنبرة تأمُّلية، مقتبسًا آيةً من الكتاب المقدس: ««مُعْيِينَ وَمُطَارِدِينَ». أقصد أنه كان سيستميت سعيًا وراء مطلبه؛ حسنًا، هذه الأمور تحدث. ولكن إذا كان مفتونًا بها، فهل كان من مصلحتها أن تُعلن خطبتها إلى السيد كيفيم؟ أنتِ تتحدثين عن امرأة طموحة ولكن باردة، ربما تغري ماندر من أجل تحسين وضعها.»

«هكذا أراها. ولكن هل كان السيد ماندر يعرف أنها مخطوبة إلى كيفيم؟»

عضَّ على شفته. ثم قال: «تلك نقطة مُهمَّة. ولكن كان الأمر سيَفتضِح حتمًا.»

قدمت السيدة هوو له سيجارة، وأشعلت واحدة لنفسها. وقالت: «لعل المشكلة تكمن هنا. ألا تظن ذلك؟»

سألها، متغاضيًا عن السؤال الآخر: «لقد التقيتِ بخطيبها، السيد كيفيم، أليس كذلك؟»

«عدة مرات. وتراءى لي أنه رجلٌ عصبي، ويهابها نوعًا ما.»

«أظن أنه لا يمكنك الجزم بما إذا كان من المحتمل أن يكون رجلًا غيورًا؟»

«دعنا نقول «التخمين»، أيها المحقق. لقد صححت لي هذا من قبل. حريٌّ بي أن أقول — أن أخمن — إنه ربما كان غيورًا. لقد كان غارقًا في حبها. ولكن سيتعيَّن عليك أن تُثبت أنه كان هناك ...»

هزَّ ديفينش كتفَيه.

«نحن لا نعرف أين كان السيد كيفيم ليلة أمس.»

حدَّقت بعينيها. فقد جعلَها الحس الصحفي بداخلها توَّاقةً لمعرفة المزيد من التفاصيل، رغم أنها لم يكن لديها أدنى نية لبيعها. كان هذا يتنافى مع قواعدها الأخلاقية، حتى إن كانت لا تتذكر كيفيم إلا كونه شخصًا مترددًا وعاطفيًّا، أحد هؤلاء الرجال الضعفاء الذين عادةً ما يكونون محطَّ إعجاب وازدراء بعض النساء في آنٍ واحد.

«ليس لديه حُجة غياب، أليس كذلك؟»

لم يردَّ ديفينش بالنفي أو الإيجاب. وإنما أخبرها ببساطة بجزء من حصيلة المعلومات التي يجب على أي ضابط تحريات أن يستخلصها.

قال في عدم اكتراث: «أها، تلك واحدة من الأفكار السائدة لدى الرجل العادي. بوجهٍ عام، نحن نرى أن لا أحدَ يعجز عن تقديم حُجة غياب من أيِّ نوع سوى شخص مختل.»

ابتسمت. «إنه من رماة البنادق المعروفين، ولكن، إذا سمحت لي أن أقول هذا، فإن فكرة البندقية في حد ذاتها سخيفة. أين الرَّصاصة؟ ولماذا يستخدم بندقية من الأساس؟ ولماذا يستخدم سكينًا، ثم بندقية؟ وأين تلك البندقية؟ ألا تستطيع أن تُطلق رَصاصةً عاليةَ السرعة من مسدس آلي؟»

ردَّ قائلًا: «أعتقد أن السرعة العالية تتطلب ماسورة بطول معين. ومسدس الماوزر واحد من المسدسات الآلية القليلة التي تُصوب إلى مدًى طويل نسبيًّا. ولهذا السبب، يمكنكِ تثبيت دبشك بها. ولكن ثمة أسبابًا فنية تجعلنا لا نظن أن الرَّصاصة أُطلقت من ماوزر.»

«إذن لماذا الماوزر؟»

«ربما لأنه طويل المدى، ويتم تصويبه لمسافة ألف ياردة. للإيحاء بأنه قد استُخدِم كما تفهمين. ولكن يجب أن أنصرف بعد قليل، ولا يسمح المقام هنا بالإجابة عن ذلك السؤال. إنه سؤال متروك للخبراء. هلا تفضلت بإخباري — من واقع معلوماتك الصحفية — بأي شيء تعرفينه بخصوص السيدة بيدن-هايث؟»

أطفأت السيدة هوو سيجارتها في منفضة للسجائر، وضيَّقت عينيها مرة أخرى.

«لقد رأيتها وسط الجموع حين كنت أذهب لِلَعب الجولف، أيها المحقق. هي امرأة خمسينية، ترتدي ثيابًا تجعلها تبدو في الثلاثينيات، وتبدو شرهة للملذات. هذا ما أظنه. بالطبع، أُشيع عنها أنها الممول للمتجر.» ثم ابتسمت ابتسامة غريبة. وأردفت: «أعتقد أنها كانت كذلك بالفعل. لقد صعِد نَجمُ السيد ماندر بسرعة الصاروخ، وهي كانت بمثابة الوقود له، أليس كذلك؟»

أجابها قائلًا: «إذا كان الأمر كذلك، فسألتقي بها، أو بمحاميها، قريبًا للاستماع إلى أقوالها. هل تعرفين أيَّ شيء عن ابنها؟»

«تخمينات فحسب. إنه يعيش في الريف؛ يُقال إن ذلك لأن أمه تعتقد أنه ليس آمنًا في المدينة. ولكن أظن أن تاجر النبيذ خاصته لديه وسيلة للنقل! ولكن هذا في حد ذاته تشهير. هل يمكنني القول إنه شخص عديم القيمة يعيش على المنبهات؟»

أومأ ديفينش برأسه. وعلَّق قائلًا: «سنأخذ الأمر كالتالي. إنه يقضي أغلب الوقت في الريف؛ وهي تقضي أغلب الوقت في المدينة. أعتقد أنه وريثها. لا بد أنه الابن الوحيد. ولا

أحد يمكنه أن يتخيل أن يدخل في مشاحنات من أجل استثمار في المتجر. فلن يخسر شيئًا في النهاية.»

فكرت السيدة هوو مليًّا. ثم قالت: «أها، هذا هو السؤال! يُفترض أن جميعنا في الصحافة يعرف القليل عن كل شيء. أنا لا أعرف؛ ولكن لديَّ صديق يعمل في قسم المال والأعمال بصحيفة «أرجوس». فيما يبدو أنه يظن أن ماندر يبالغ في كل شيء، على حدِّ تعبيره. إن فكرة أن المتجر الذي يبيع الكثير يُحقق أرباحًا هائلة ليست مضمونة دائمًا. لعلك تفرط في الإنفاق في الدِّعاية، أو الرواتب، أو إعداد الموقع، أو في تشييد المباني. ثم هناك معضلة والد جيمسون بيدن-هايث.»

«أظن أنه مُتوفى.»

«أجل هو كذلك، ولكن جيمسون نسخة باهتة من أبيه. رجل تافه شديد التبذير. لقد انحدر بيدن-هايث من أسرة طيبة، وتزوَّج ممَّن هي أقل منه. وحظيَ ابنُه بخصالٍ جميعها متدهورة، غير أن خصلة التحامل على عامة الناس خلَّفت شخصًا مُتعجرِفًا بالسليقة.»

تَطابَق هذا مع أقوال السائق، ووضع ديفينش أمرَ هذا الشاب في ذهنه، واعتزم إجراء تحريات عنه.

ثم قال بنبرة تأملية: «البضائع تُشترى بالآجل بالطبع، لا توجد صعوبة في ذلك. ولكن حريٌّ بي أن أقول إنه كان هناك ملايين كثيرة. فإذا أعطته الفرصة، وأغرته لترك العمل في مكتب محامٍ محلي، فهذا يوحي بوجود إعجاب شديد. والإعجاب الشديد بالنسبة إلى امرأة في منتصف العمر هو ضربٌ من الحماقة على الأرجح. هل سمعتِ قطُّ عن شائعةِ زواجٍ محتمل بين ماندر والسيدة؟»

«عدة مرات. الشائعات أبواق للافتراءات بالطبع. لقد تبادر إلى ذهني مرة أو مرتين أنني لو كنت شابًّا ورأيت أمي تجعل من نفسها أضحوكة من أجل رجل كماندر، لشعرت بالاشمئزاز تجاه الأمر. وكان لا بدَّ أن يشعر بذلك نظرًا لطبيعته المتحاملة والمتكبرة.»

خطر لديفينش أنه لم يلتقِ مطلقًا بشاهد قدَّم وليمةً دسمة من المعلومات في مثل هذا الوقت القصير مثلها. فنهض، وشكرها بحرارة على مساعدتها، وعاد أدراجه إلى المنزل. الأشخاص الذين تعامل معهم بصفة رسمية عادة ما كانوا يحاولون تجميل أدلتهم، ولكن لا أحد منهم يعقل آراءه قبل أن يعلنها.

قال في نفسه، وهو يشعل غليونًا، وجلس ومعه دفتر ملاحظات أمام المِدفأة ليُدوِّن بضع ملاحظات: «ولكنها أضافت المزيد إلى القِدر؛ يا لسوء الحظ! سوف يحدث خلط شديد إذا لم أتوخَّ الحذر.»

ودوَّن في عجالة: «كيفيم، خطيب، قناص. شعور محتمل بالغيرة. – الآنسة تيومر، ذات عقل مُدبِّر، طموحة. غير قادرة دومًا على أن تُعطيَ مقابلًا لما تحصل عليه. السيد كين، صريح، ربما صريح أكثر ممَّا ينبغي، بالإضافة إلى وجود تحدٍّ ما. ويبلي، اللغز الأكبر بالنسبة لي حتى الآن. يبدو وكأنه أحمق، ولكن يتحدث كخبير في الميكانيكا. أتساءل أيكون فعلًا هو مخترع «واثبة ماندر»؟ السيدة بيدن-هايث، شديدة الإعجاب، وربما بلَغها خبر العَلاقة المعقدة بين ماندر وتيومر. السيد جيمسون بيدن-هايث، الذي يكره ماندر، وكل «محدثي النعمة» من أمثاله، ضبط النفس الذي ربما يذهبه الخمر. يجب أن تكون الكيفية التي تطور بها الموقف قد اتضحت الآن.»

بعد ذلك وضع ديفينش خُطَّة العمل لليوم التالي لنفسه ولمرءوسيه. شعَر أنه سيُبلي بلاءً حسنًا على الصعيد الإنساني، تاركًا التفاصيل التقليدية إلى مرءوسيه. فحتى الرقيب المحقق بسكوتلانديارد يُعَدُّ خبيرًا ذا مهارة فائقة، أما بخصوص مُهمَّة رفع بالصمات، وفحص القرائن والأدلة وإجراء التحريات فما من سبيل لتحسينها أكثر من ذلك.

قال في نفسه بينما كان يستعد ليأويَ إلى الفراش: «حريٌّ بي أن أقصد السيدة بيدن-هايث نفسها أولًا، ولكن إذا قصدتني هي فسيكون ذلك أفضل. يبدو الناس عدائيين بطبيعتهم عندما تُضطر إلى البَدء في استجوابهم.»

بالتأكيد يجب أن يلتقيَ بكين أيضًا، وإن لم يكن من شيم خبير طائرات أن يُزيِّف هبوطًا على ذلك السطح دون أن يوحي بأن الطائرة الجايروكوبتر قد توقفت عند الأكوام الرملية المتراكمة على كلا جانبَي السطح لإبطاء سرعة الطائرة أثناء الهبوط، أو على أسوأ التقديرات، لمنعها من الانزلاق فوق الحافة.

من شأن الهبوط سواء كان حقيقيًّا أو زائفًا أن يكون قد تم في الظلام. فالهبوط على مساحة محدودة أثناء النهار لهو شيء، حتى بالنسبة إلى خبير بطائرة جايروكوبتر رائعة؛ أما الهبوط بها ليلًا، في غياب أيِّ ضوء على السطح لتحديد امتداد المساحة فهو شيء آخر؛ فسيكون طيارًا محظوظًا ذاك الذي يتمكن من الهبوط في المنتصف.

وبصفة عامة، قرَّر ديفينش أنه إذا كان كين قد اصطنع هبوطًا زائفًا، كان سيصنع أثرًا للإطارات على الرمل وكذلك على السطح المكشوف. إذا كان الأمر ينطوي على زيف، فثمة افتراض بأن من قام بهذا ليس خبيرًا بالطيران.

الفصل السابع

عندما وصل ديفينش إلى مقر شرطة سكوتلانديارد في صباح اليوم التالي، وجد بعض الأخبار المدهشة في انتظاره. كان الرقيب ديفيز منهمكًا للغاية في العمل بالمتجر أمس خلال فترة ما بعد الظهيرة، وكانت إحدى مهامه إجراء تفتيش شامل ودقيق لجميع مصاعد البضائع والركاب، وفيها المِصعد الذي يتيح الوصول إلى شقة السيد ماندر.

كان كل مصعد من مصاعد الركاب مفروشًا بقطعة سجاد مربعة ذات وبر طويل، مفروشة على مساحة مربعة من مشمع أرضيات سميك من الفلين. وداخل أحد المصاعد، عندما أزيلت السجادة، كانت ثمة آثار دماء. والغريب أنه على الرغم من أن مشمع الفلين كان ملطخًا بالدماء بشدة، فإن الجزء السفلي فقط من السجادة هو ما كان مُلوَّثًا ببقع الدم، ولم تكن تلك البقع كبيرة.

كان من المستحيل تصديق أنَّ أحدًا يمكنه استخدام بندقية في المِصعد، دون أن يوجد أثرٌ لرَصاصة بندقية مخترقة هيكل كابينة المصعد، أو مشمع الأرضية، أو مغروسة في أي مكان سواء داخل المصعد أو في بئره. وفي ظلِّ هذه الظروف، صار هذا اللغز موضوعًا لاجتماع شرطي، حضره مفوض الشرطة والطبيب الشرعي والرقيب.

كان رأي الطبيب الشرعي أن الآنسة تيومر قد قُتلت في المِصعد. وكان النزيف في حالتها قليلًا، وهو ما فسَّره من الناحية الفنية موضحًا طبيعة الجرح ونوع السلاح ذي النصل الرفيع المستخدم في عملية القتل.

قال ديفينش عندما سمع بذلك: «هذا يزيد اختلاط الأمور علينا أكثر من ذي قبل. إذا كانت قد قُتلت في مِصعد الركاب، فلا بد أن الفاعل قد صعِد في مِصعد البضائع. ولكن لماذا أخذ معه السكين، ثم ألقاه في مِصعد البضائع؟ وهل صعِد إلى أعلى وقتل ماندر في الشقة،

ونزل به إلى الطابَق السفلي بمصعد البضائع؟ أظن أنك فحصت جميع جدران الغرف الموجودة بالشقة؟»

«كل حائط، يا سيدي، ولم أجد أثرًا لرصاصة. واستجوبت الخدم بدقة، ولا أظن أن أحدًا منهم له يد في تلك الجريمة. لا أستطيع تفسير أمر الرَّصاصة. لا بدَّ أنها في مكان ما.»

ردَّ المحقق بنبرة جافة قائلًا: «بالطبع! الآن، دعني أرى، هل ثمة احتمال — ولا شيء سوى مجرد احتمال — أن تكون هناك نوافذ أو فتحات تهوية قد تُركت مفتوحةً، وتصادف أن خرجت الرَّصاصة منها؟»

«تفقدت جميع الفتحات، يا سيدي. بالنسبة إلى النوافذ، لم يُترك أيٌّ منها مفتوحًا، باستثناء واحدة بالشقة. كانت هذه نافذة غرفة استقبال السيد ماندر.»

ابتسم ديفينش ابتسامةً باهتة. وأردف يقول: «الحقيقة الواقعية أن الرَّصاصة إما خرجت من تلك النافذة أو اعترض طريقها شيء. وبقدر ما تُوضِّح التحريات حتى الآن، لم يعترض طريقها أيٌّ من جدران هذا المبنى، ولكن علينا أن نتفحَّصها من أعلى لأسفل قبل أن يمكننا حسم هذا نهائيًّا. سنُكلِّف المزيد من الرجال بتلك المهمة على الفور. ثمة احتمال ثالث، وهو احتمال بعيد، ولكن لا بدَّ أن نضعه في الاعتبار. في هذه الحالة، قد يتطلب الأمر وجود رجلَين في هذه القضية، على ما أظن، وأتخيل السيد ماندر قد كُتمَت أنفاسه، لو تمَّ الأمر بتلك الطريقة. أقصد أن لوحةً معدِنية وُضعت خلف الضحية ربما تكون قد اعترضت الرَّصاصة، وإن كان من المرجح للغاية أن يكون قد حدث انزلاق وانحرفت الرَّصاصة عن مسارها.»

«ولكن لماذا يتكبَّد كل هذه المتاعب، يا سيدي؟»

قال ديفينش: «أنا لا أقول إن هناك شيئًا في هذا، ولكن ربما كان الغرض من الهبوط الزائف هو توصيل فكرة أن السيد ماندر لم يُطلَق عليه الرَّصاص داخل هذا المبنى مطلقًا.»

«ولكنه عاد إلى هنا وتناول العشاء؛ أقصد عاد إلى شقته، يا سيدي.»

«أجل، ولكن كان الغرض من التزييف إثبات أن ثمة طائرةً هبطَت على السطح وأن الرجل الذي نزل منها هو من ارتكب الجريمة. إذا فُرض أن ذلك الرجل هو الميكانيكي وقائد الطائرة الجايروكوبتر، ويبلي، فربما يُفترض أنه التقى بربِّ عمَله، وربما اصطحبه في رحلة طيران قصيرة، ثم أطلق عليه النار بينما كانا في الجو، وهبط بالجثة، وتخلَّص منها. وهذا من شأنه أن يُفسِّر عدم وجود أيِّ رَصاصةٍ ظاهرةٍ للعيان.»

«ولكن ماذا يمكن أن يكون دافعه، يا سيدي؟»

هزَّ ديفينش كتفَيه. وأردف قائلًا: «حسبما ترى يمكننا أن نجد دافعًا ما. لديَّ قناعة قوية بأن ويلبي هو مخترع الطائرة الجايروكوبتر، وقد عرفت منه أن ماندر قال إن مبيعاتها لا تُحقِّق أرباحًا؛ رغم أنني أظن أن هذا يوحي بأن الممول يحتال على المخترع المتواضع، كما كان يفعل عادةً من قبل. إن ويبلي، خارج نطاق تخصُّصه، شخص جهول نوعًا ما. ربما غمرَته سعادة بالغة بأن وجد شخصًا يمول لُعبته الأثيرة. بعد ذلك، وكما أعرف، ذهب السيد كين الذي يعمل في المتجر ليلتقيَ بويبلي مساء يوم الأحد.»

قال الرقيب: «وهل يُحتمل أن يكون قد قال له إنهم يحققون أرباحًا جيدة منها؟ لعله استشاط غضبًا إذا اكتشف ذلك.»

أومأ ديفينش برأسه بالإيجاب. وتابع قائلًا: «على أي حال، لن أبنيَ شيئًا على تلك الفرضية. أنا فقط أتأكد من أننا لم نُغفِل أيَّ بدائل. هل أخرجت جميع المسدسات من قسم الألعاب الرياضية؟»

«أجل يا سيدي. كان هناك ثلاثُ بنادق رياضية ذات خرطوشة طلقات بقطر ٠,٣٠٣ ولكن جميعها كان نظيفًا تمامًا ولم تمسسه يد.»

قال ديفينش: «لا يمكن أن يكون هناك حركة مستمرة صعودًا وهبوطًا بالمصاعد، ولكن لا بد أن الحارس الليلي قد سمِع صوتَ طلق ناري، حتى ولو كان ميكروفونه معطلًا.»

ردَّ الرقيب قائلًا: «فيما يخص تلك النقطة، يحقق أحد خبرائنا في الأمر، كما اقترحتَ. إنه يقول إن الاتصال قُطع حتمًا بيد شخص قليل المعرفة بهذه الأمور. كان من الممكن أن يُقطع الاتصال على نحو أبسط كثيرًا.»

رنَّ جرس هاتف المكتب بينما كان يتحدث. رفع ديفينش سماعة الهاتف وأنصت، ثم قال: «سأذهب على الفور.» ووضع سماعة الهاتف. «أخبار سارة. اتصل رئيس خدم السيدة بيدن-هايث هاتفيًّا من المنزل الكائن بشارع كرزون ستريت، يطلب مني المجيء لمقابلة سيدته. حسنًا، عد إلى المتجر، وتأكد من أن جميع الجدران قد فُحصت بعناية فائقة في كل مكان. وإذا جاء السيد كيفيم، فأخبره بأنني أتطلع إلى مقابلته هناك في تمام الساعة الثانية.»

أدَّى الرقيب التحية له، ثم غادر. وارتدى ديفينش قبَّعته ومِعطَفه، وانطلق إلى كرزون ستريت.

لم يكن منزل السيدة بيدن-هايث في المدينة منزلًا كبيرًا للغاية، إلا أنه كان في غاية الفخامة ومفروشًا بأثاث باهظ الثمن. وعلى جدران الغرفة التي استُقبِل فيها ديفينش،

عُلقت لوحات لا يمكن أن تكون بخسة الثمن؛ فكانت هناك لوحات لكوربيه، ولوحتان لماريس، وبعض اللوحات لأنطون ماوفي، وغيرها من اللوحات التي صارت باهظة الثمن الآن لرسامين فَرنسيين من المدرسة الانطباعية. ولم تكن هذه الغرفة سوى غرفة صغيرة نادرًا ما تُستخدم. كانت السيدة بيدن-هايث تجمع اللوحات، ويُقال إنها كانت تشتري اللوحات وفقًا لسعرها لا قيمتها؛ ومِن ثَمَّ لم تكن لترى لوحات كوبر أو جودال التي قد يُتوقع أن تبرز ضمن المجموعة التي تقتنيها سيدة ليس لديها أي معايير فنية. بَيْد أنها اشترتها مؤخرًا، عندما هبطت أسعار جميع الصور التي تنتمي لمدرسة «اللوحات التي تحكي قصصًا».

إن أي رجل يرتقي إلى منصب محقق في قوات التحريات يكون بمثابة عالم نفساني مبتدئ نوعًا ما، ويعتاد الحكم على شخصيات الشهود من خلال وجوههم. ولكن عندما دخلت السيدة بيدن-هايث الغرفة، وجد نفسه في حَيرة من أمرِه بخصوص تحديد الفئة التي تنتمي إليها هذه السيدة.

كان من الواضح أنه تنقصها الوجاهة، رغم ملابسها الأنيقة. ولم يَبدُ عليها أنها من نوعية المرأة اللعوب، رغم محاولتها الواضحة للحفاظ على شبابها البائد بارتداء التنورات. كانت شاحبة للغاية، ومليحة إلى حدٍّ ما. كان فمها كبيرًا، وشفتاها ممتلئتين. وما بَرِحَت تعَضُّ على شفتَيها أثناء الحديث، وتجعلهما تبدوان أكثر احمرارًا وامتلاءً أكثر من أي وقت مضى.

انحنت، ثم عضَّت شفتها السفلية بعنف. وأردفت تقول: «أظن أنك تتساءل في نفسك لماذا طلبت منكَ المجيء أيها المحقق؟ الحقيقة أنني كنت أُموِّل السيد ماندر. هل سمعت بذلك؟»

أومأ برأسه بالإيجاب. وعلَّق قائلًا: «أظن ذلك، يا سيدتي.»

تابعت الحديث سريعًا قائلة: «فزعت من سماع خبر وفاته، ووفاة تلك ... تلك المرأة.»

قال ديفينش: «لا بد أن الأمر كان مفزعًا لكِ نوعًا ما؛ لأنه كان يتناول الغداء معكِ في ذلك اليوم.»

رمقَته بنظرة سريعة. «من أخبركَ بذلك؟»

«سائقه الخاص.»

علقت ببرود ولامبالاة: «فهمت. حسنًا، ليس لديَّ ما أُخفيه، بالطبع. ربما يمكنني أن أخبرك أيضًا أنه جاء بناءً على طلبي. لقد سمع المحامون خاصتي بعض الشائعات المزعجة، ونظرًا لأن الأمر مُتعلِّق بأموال كثيرة، فالبتُّ فيه متروك لتصرفي.»

«شائعات بخصوص ماذا، يا سيدتي؟»

«حسنًا، تلميح بأن المشروع لم يكن يؤتي ثماره كما ينبغي. لقد أدرَّ لي أرباحًا كبيرة بالطبع، ولكن ما أنفق فيه كان أكثر من اللازم ولا يزال. فطلبت من السيد ماندر أن يأتيَ لإبداء آرائه.»

«ولماذا لم يلتقِ به ابنك، ويوفر عليك العناء؟»

عضَّت شفتها مرة أخرى، وبدا عليها شيء من الامتعاض. ثم قالت: «ابني ليس له دراية بالمشروع.»

«ولكني أظن أن بإمكانه أن يؤكد روايتك لما دار بينك وبين السيد ماندر في ذلك اليوم، يا سيدتي؟»

«كلا، لقد خرج في ذلك اليوم. ذهب ليمضي الليلة مع أحد أصدقائه في المدينة.»

أومأ ديفينش. ثم أردف: «وماذا قال السيد ماندر؟»

«طمأنني. اعترف أننا لا نحقق أرباحًا، ولكنه قال إننا يجب ألا نعتبر نفقات العام الأول مندرجة تحت بند «النفقات العامة» السنوية. وعندما تأسس المتجر في النهاية، كان من الممكن خفض المخصصات المالية المتنوعة إلى حدٍّ كبير.»

اندهش ديفينش من معرفتها بالمصطلحات التجارية، وحقيقة أنها تتحدث كما لو أنها تفهمها.

ثم سألها: «هل كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تلتقين فيها بالسيد ماندر؟ متى غادر بارستون كورت؟»

بدا عليها الاندهاش في تلك اللحظة. «بالطبع. بعد العشاء استقبلت أناسًا للعب البريدج، ولم نتوقف عن اللعب حتى الساعة الواحدة صباحًا.»

«ولم يعد السيد جيمسون بيدن-هايث؟»

استقامت في جلستها. وعلَّقت قائلة: «أستميحك عذرًا؛ فأنا لا أفهم تمامًا ما عَلاقة ابني بكل هذا.»

«أنا لا أصدر أيَّ تلميحات، يا سيدتي. ولكني سمعت إشارة تلمح إلى أن ابنك كان يُكِنُّ كراهيةً شديدة للسيد ماندر. والسائق قال إنه «غادر على الفور» عندما وصل السيد ماندر إلى منزلكِ.»

ردت قائلة: «أخشى أنني لا أستطيع قَبول شهادة سائق غريب في حق ابني واتهامه بالتحامل. لم يكن هناك سبب يجعله يحب السيد ماندر أو يكرهه. فعَلاقتنا به كانت عَلاقةَ عمَل بحتة.»

ولكن لماذا تظن أنه من الضروري أن تقول ذلك، أو تُحدِّق بقوة إلى عينيه أثناء قولها هذا؟ هكذا كان ديفينش يتساءل في نفسه، وهو يواصل حديثه: «أفهم ذلك، يا سيدتي. ولكن هل لي أن أسأل مع من قضى السيد بيدن-هايث الليلة؟»

هزت كتفَيها، وعضَّت شفتَيها مرة أخرى. ثم قالت: «قال إنه سيذهب للقاء السير ويليام ليفورت. ولكن كل هذه أمور جانبية لا عَلاقةَ لها بالأمر. فعندما يُغلق المتجر، ستلحق أضرار بالغة جدًّا بالمشروع التجاري. أنا لا ألومك على ذلك بالطبع، ولكن أودُّ حقًّا أن أعرف متى سيمكننا فتحه مرة أخرى.»

فكَّر ديفينش مليًّا. ربما كانت السيدة هوو قارئة سطحية أكثر مما ينبغي للشخصيات وارتكبت خطأً في هذا الموضع. هل كانت السيدة بيدن-هايث شرهة، ولكن للمال، لا للملذات؟ لقد كانت تملك ثروة طائلة، ولكن هذا لا يدل على شيء. فأولئك الذين يتمتعون بثروة عادةً ما يبدون توَّاقين إلى امتلاك المزيد، ولا شك أن كاتب المحامي الجريء أغراها بالمغامرة بالملايين دون أن يُثبت لها أن ثمة أرباحًا، سواء كانت متكافئة أو غير متكافئة مع ما ستنفقه، سوف تتحقق.

قال: «إنهم يُجرون التحقيقات اليوم. ينبغي أن أتوجه إلى هناك الآن. ولكني لا أرى سببًا يستدعي عدم وضع مبنى المتجر تحت تصرُّفك، أم هل ينبغي لنا مناقشة الأمر مع محاميكِ؟»

أجابت قائلة: «سيتواصل معكَ السيد هاي بهذا الخصوص. إنه رَهْن إشارتنا، متى تريد مقابلته؟»

قال: «غدًا. بالطبع قد نُضطر إلى القيام بمزيد من عمليات التفتيش، وأقترح أنه ينبغي إبقاء الشقة العلوية مغلقة حتى ننتهيَ من تحقيقاتنا. خلاف ذلك، سألتقي به غدًا.»

سألته في هدوء: «هل لديك أيُّ دليل؟»

أجاب قائلًا: «ستكون جلسة الاستماع اليوم رسميةً تمامًا. حتى الآن ليس لدينا ما ننطلق منه.»

أومأت برأسها، وعضَّت شفتها مرة أخرى، ثم عبست قليلًا. وأردفت تقول: «من تلك الشابة؟ طالما حسبت أن السيد ماندر غارق في العمل حتى أذنَيه. هل كانت جذَّابة للغاية؟»

هبَّ ديفينش واقفًا. وأجابها قائلًا: «كانت جميلة قطعًا.»

«أظنُّ أن الدافع كان الغيرة، أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة جافة. وأردف قائلًا: «لو كنا نعرف الدافع يا سيدتي، لتَعيَّن علينا أن نمسك بالفاعل.»

«إذن، أنت تظن أنه رجل؟»

لم يكن يرى أنها خائفة أو منزعجة، إلا أنه تمنَّى لو استطاع أن يتأكد من ظنونه. ربما كانت أسئلتها مجرد فضول أعلن عن نفسه، أو ربما كان لها مصدر شخصي.

واستطرد قائلًا: «أخشى أن رجالنا لا يستسيغون الأفكار المسترسلة. فالأهم هو وجود بعض الأدلة. لذا قد نتوقع التواصل مع محاميكِ بشأن مسألة المتجر.»

«مع السيد هاي، أجل. سأُجري اتصالًا هاتفيًّا به الآن.»

سمحَت له بالانصراف بإيماءة من رأسها، ثم خرج.

قال ديفينش في نفسه، بينما كان متجهًا إلى كابينة الهاتف، وهو في طريقه إلى التحقيق: «لو لم تكن السيدة هوو جذابة للغاية، ربما ما اعتقدت أنها ذكية للغاية. إن السيدة بيدن-هايث شرهة، ولكن بدأت أتساءل عما تشتهيه.»

وبعد دقيقة، اتصل بسكوتلانديارد، وأعطى تعليماته إلى أحد ضباط التحقيق. فقال: «أريدك أن تعرف أين كان السيد جيمسون بيدن-هايث مساء يوم الأحد. لقد سمعت أنه ذهب للمكوث مع السير ويليام ليفورت. اذهب إلى هناك واعرف كل ما تستطيع أن تعرفه.»

الفصل الثامن

كان التحقيق مُوجَزًا ورسميًّا. قُدمت أدلة الهوية للرجل والسيدة المتوفيين؛ وقدم الطبيب نتائج فحصه، ثم طلبت الشرطة التأجيل أسبوعين، وكان لها ما طلبت.

ذهب ديفينش إلى المتجر بعد تناوله غداءً متأخرًا.

في تمام الساعة الثانية، وصل مدير المتجر. بدا أقلَّ شحوبًا وانهزامًا من اليوم السابق، إلا أن فمه بدا مُتصلِّبًا وعينيه متجهمتان. كان لدى ديفينش انطباع بأن الرجل صار يشعر الآن بمرارة تجاه العلاقة التي اكتُشفت مؤخرًا بين الآنسة تيومر والسيد ماندر (بغض النظر عن ماهيتها المحتملة) أكثر من كونه يشعر بفاجعة خسارته.

أَجْلَسَ المدير، ثم سأله إن كان قد أبلغ رب عمله بخطبته إلى الآنسة تيومر.

ردَّ كيفيم بصرامة قائلًا: «كلا، لم أفعل.»

«لا شك أنكَ كنت تنوي القيام بذلك، أليس كذلك؟»

«بالطبع، ولكن لا عَلاقة له بالأمر، أو هكذا كنت أظن.»

«إذن، على حد علمك، لم يكن السيد ماندر يعرف أنك كنت خطيبًا للسيدة المتوفاة؟»

«على حد علمي، لم يكن يعرف.»

أطرق ديفينش ببصره. ثم أردف يقول: «هل لديك علم بأن السيد ماندر قد زار الآنسة تيومر قبل وفاته؟ أقصد أنه زارها في بيتها، واصطحبها إلى الخارج في سيارته؟»

«عرفت ذلك الآن. فقد ذهبت إلى شقتها أمس بعد أن تركتك.»

«ألم تخبرك بهذا من قبل قط؟»

قال كيفيم وقد اعتلت وجهه نظرة غاضبة: «ليست هذه نوعية الأمور التي من شأنها أن تُخبرني بها.»

«هل يمكنك أن تخبرني بسبب زيارتها للسيد ماندر مساء يوم الأحد؟ أقصد هل يُحتمل وجود أي تفسيرات متعلقة بالعمل؟»

«لا أظن ذلك.»

نظر ديفينش إليه مباشرة. وقال: «هل في حوزتك أي ذخيرة بقطر ٠,٣٠٣، يا سيد كيفيم؟ يمكنك أن تجيب عن هذا السؤال أو تمتنع عن الإجابة إذا شئت؟»

لم يُبدِ كيفيم أيَّ دهشة من السؤال. وردَّ بجفاء: «لديَّ عشرون خرطوشة تقريبًا من ذلك العيار. إذا كنت مهتمًّا بزيارة شقتي، يمكنك أن تطلع عليها، وتفحص بندقية الرماية خاصتي.»

«سأذهب معكَ في الحال، إذا كان ذلك مناسبًا. أنت تستخدم ذخيرة بنادق الرماية، لا بنادق الخدمة العسكرية العادية؟»

«هذا صحيح. ولكن حريٌّ بك أن تراها بنفسك.»

هبَّ ديفينش واقفًا، وخرجا معًا. استقلَّا سيارة أجرة إلى الشقة. كانت شقةً كبيرة مؤثثة جيدًا، وإن لم تكن فخمة. أجلس كيفيم ديفينش في غرفة الاستقبال بينما صعِد إلى الطابَق العُلوي وعاد ببندقية رماية، مزودة بمهداف تلسكوبي، وصندوق به بعض الذخيرة.

قال بهدوء: «هذه كل الخراطيش التي لديَّ.»

فحص ديفينش البندقية بدقة، ثم الخراطيش، واحتفظ بواحدة منها. ثم قال: «أرغب في فحص هذه بعناية أكثر. بالمناسبة، أتمانِع أن تحمل البندقية على كتفك لإجراء بعض القياسات؟»

لو كان كيفيم الجاني، فإنه لم يظهر أي علامات انزعاج. بل وقف، وصوب البندقية.

قال ديفينش: «صوِّبها أسفل مستوى فخذي بقليل يا سيدي. كان طول السيد ماندر نحو خمس أقدام وسبع بوصات. وأظن أن طولك خمس أقدام وتسع بوصات.»

«عشرة أيها المحقق.»

أخرج ديفينش شريط قياس ووضع عدة علامات على الجدار بينما أنزل كيفيم البندقية وراقبه. طلب من المدير أن يُصوِّب نحو العلامات تباعًا، وأخذ قياسات عمودية وجانبية، والتف خلف الرجل الذي يحمل البندقية ونظر عبر مهداف البندقية من فوق كتفه.

أوضح أثناء عمله قائلًا: «لست مُضطرًّا إلى مساعدتي في هذه التجارب ما لم تكن ترغب في ذلك. أريدك أن تفهم ذلك.»

رد كيفيم قائلًا: «ليس لديَّ أدنى اعتراض، سيدي المحقق.»

قال ديفينش وهو يطوي شريط القياس بعد أن انتهى: «إليك المقصد من هذا. أنت لست بحاجة لأن تكون طويل القامة لتصيب رجلًا في فخذه بحيث تسلك الرَّصاصة مسارًا مائلًا إلى أسفل. لكن الطبيب الشرعي في هذه القضية يقول إن درجة الميل كانت عمودية إلى حدٍّ ما، مما يشير إلى أن الجاني أطول من المتوسط.»

أنزل كيفيم البندقية. وعلَّق قائلًا: «سيدي المحقق، حريٌّ بي أن أقول إنه لا ينبغي لك أن تبحث عن رجلٍ طويل فحسب، وإنما عليك أيضًا أن تبحث عن رجلٍ قادر على حمْل ماندر لمسافة. هل ثمة شيء آخر؟»

«هل تعارض تفتيشي شقتَك؟ ليس لديَّ أمرٌ قضائي.»

«ليس لديَّ أدنى اعتراض على قيامك بأي شيء ذي منطق. هذا يُسعدني مثلك تمامًا.»

وعلى مدى الساعة التالية، انشغل بتفتيش الشقة. غير أنه لم يجد شيئًا له أدنى صلة بالقضية. وكان كيفيم متعاونًا من البداية إلى النهاية. وعندما انتهى المحقق من عملية التفتيش، عرض عليه تناول الشاي، ولكن ديفينش رفض.

«كلَّا، شكرًا لكَ يا سيدي. فعليَّ مواصلة التحقيقات. أنا ممتن لكَ تمامًا.»

هزَّ كيفيم كتفيه في سأَم. وأردفَ قائلًا: «لا بأس. أتمنى لك يومًا سعيدًا أيها المحقق.»

عندما غادر ديفينش الشقة، قرَّر أن يكون السيد كين هو وِجهته التالية. فقد سمِع من الرجال العاملين في المتجر أن كين لم يحضر إلى العمل، ولذا ذهب على الفور إلى مسكن الشاب في شارع كايستر ستريت.

وتصادف أن كان كين موجودًا هناك، يتناول الشاي. ولكنه لم يدعُ المحقق للانضمام إليه؛ وإنما عرض عليه سيجارة فقط؛ وبدا مبتهجًا وهادئ البال تمامًا.

قال متسائلًا: «أما زلت منشغلًا بالتحقيقات؟ هل من جديد؟»

ردَّ ديفينش قائلًا: «لا شيء يا سيدي. هل لي أن أسألك يا سيدي، أين قضيت مساء الأحد الماضي؟»

«الأحد الماضي؟» ارتشف كين بعض الشاي وأومأ برأسه. ثم أردف: «أجل، بالتأكيد. ولكن هل من المفترض أن أكون الشرير في القصة أيها المحقق؟ لا يجب أن تجيب عن هذا السؤال، أليس كذلك؟ أوه، بعد ظهر يوم الأحد، خرجت بسيارتي الصغيرة، وقمت بجولة رائعة بها. قطعت مائة وعشرين ميلًا قبل الساعة الخامسة والنصف. وفي طريق عودتي، وجدت نفسي بالقُرب من جيلوفر، ومِن ثَمَّ دخلت إلى هناك وجددت معرفتي بالطيار الفني

الخاص بطائرتنا الواثبة. فتًى ذكي، ولكن ما زلت أؤكد أنها طائرة فريدة من نوعها. كان غاضبًا مني جدًّا لأنني تساءلت إن كان هو مخترع الطائرة.»

«أتظن أنه المخترع؟»

«هو مؤهَّل لذلك تمامًا. أيوجد شيء آخر؟»

«متى عدت إلى هنا يا سيدي؟»

أزاح كين فنجانه جانبًا واعتدل في جلسته. وأردف يقول: «دعني أتذكر. كانت الساعة التاسعة والنصف على ما أظن. تركت سيارتي في المرأب. أُضطر إلى وضعها في مرأبٍ بالٍ؛ حيث لا يوجد مكان أقرب من ذلك. ولكن انتظر لحظة، هل قلت متى عدت إلى هنا؟»

«أقصد إلى المدينة يا سيدي.»

«إذن، هذا صحيح. بعد ذلك ذهبت إلى سينما قريبة من هناك، وعدت إلى منزلي هنا في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف.»

دوَّن ديفينش ملاحظة بذلك. ثم قال: «وهل عرف الساكنون هنا (أرى أنك تعيش في مسكن مشترك، لا شقة)، هل سمعوكَ حين دخلت، أو فتحوا لك الباب للدخول؟»

ضحك كين. وعلَّق قائلًا: «حُجَّة غياب قديمة ومقنعة، أليس كذلك؟ كلا، لم يفعلوا، على حد علمي. ولكن حريٌّ بي أن أتأكد إن كانوا قد سمعوني. هينز العجوز وزوجته القاطنان هنا كانا يعملان خادمَين لدى ذويَّ في الأيام الخوالي. سأوقظ هينز.»

جلس ديفينش صامتًا حتى وقف كين وقرعَ جرسًا.

«لديك مفتاح للمزلاج إذن، أليس كذلك؟»

ابتسم كين وهو يعود إلى مقعده. وقال: «إنهم يسمحون لي بحيازة مفتاح! لقد كانوا ريفيين، ولم يعتادوا بعدُ السهرَ لوقتٍ متأخر.»

وبعد دقيقة، دخل الغرفة رجلٌ مُسنٌّ يبدو بمظهر خادم متقاعد.

«هل قرعت الجرس، يا سيد ويليام؟»

«أجل فعلت، يا هينز. هذا السيد يريد أن يعرف إن كنت سمعتني أدخل الغرفة مساء يوم الأحد، وإن كنت سمعت، فمتى كان هذا.»

رمق هينز المحقق بتلك النظرة التي يشوبها قَدْر من الشك والازدراء التي تميز خادمًا خبيرًا بالزوار المريبين.

«كلا، يا سيد ويليام، لم يسمعك أي منَّا حين دخلت. لقد قلت على الإفطار في صباح اليوم التالي إن الساعة كانت الحادية عشرة والنصف تقريبًا.»

قال كين: «ذاكرة رائعة للحقائق. حسنًا يا هينز، هذا سيفي بالغرض.»

هناك دومًا احتمال بأن من يذكر أوقات دخوله وخروجه بعد وقوع الحدث يكون حريصًا على طبع تلك الأوقات في ذهن من يسمعه. غير أن ديفينش لم يُعلِّق بشكلٍ أو آخر.

ابتسم له كين متسائلًا، وتابع حديثه عندما غادر هينز الغرفة. فقال: «يقولون إن القانون والنظام الإنجليزيَّين يتحققان من خلال التعاون الرائع والفريد بين الشرطة والشعب أيها المحقق. وباعتباري واحدًا من الناس الذين يسعدون بقدرتهم على التعاون معكم، أدعوكَ لإلقاء نظرة على مسكني. لا يمكنني أن أعدك برؤية مستودع أسلحة خفي، أو أي شيء خيالي من هذا القبيل، ولكن يُستحسن أن نُنهيَ هذا الأمر.»

لم يُبدِ ديفينش أيَّ تأثُّر بهذه المزحة. وعلَّق قائلًا: «ممتاز يا سيدي، بما أنك اقترحت ذلك، فسأفعل.»

أجرى تفتيشه، ولم يعثر على شيء، وعاد مع كين إلى غرفة الجلوس. سأله: «هل تذكر يا سيدي أيَّ شخص جلس بجوارك في السينما؟ أي شخص كان بجوارك، أو بالقرب منك؟»

ردَّ قائلًا: «لا أتذكر بوضوح يا صديقي العزيز. أنا أذهب إلى السينما لأشاهد الفظائع على الشاشة، لا لأشاهد الفظائع الجالسة بجواري. لديَّ ذكرى مشوشة لرائحة حلوى نعناع على يميني ومضغ علكة على يساري. الرجل صاحب العلكة ربما كان لاعبَ كرة محترفًا. أعتقد أنهم يدمنونها.»

هزَّ ديفينش كتفَيه. وأردفَ يقول: «أها، إذن أظن أن هذا كل ما أودُّ أن أسألك بخصوصه في الوقت الراهن.»

قال كين: «لا تقلق من جانبي. أنا مُهتم بالأمر. بالمناسبة، قال أحدهم إن الطبيب الشرعي أكَّد أن الماوزر لا يمكنه أن يُطلق تلك الرَّصاصة. ما الذي يعرفه بخصوص هذا الأمر بحق السماء؟»

قال ديفينش بجفاء: «يبدو أنه غير خبير بعلم القذائف، يا سيدي.»

اقتبس كين مقولة لاتينية قائلًا: ««لا تُبدِ رأيك خارج حدود اختصاصك.» أكره أن أرى أطباء شرعيين أكْفاء يتظاهرون بكونهم خبراء في غير اختصاصهم. نظريتي تقول إن ماندر طعن الآنسة تيومر، ثم أطلق النار على نفسه بهذا المسدس.»

«وأين ذهبت الرَّصاصة؟»

قطَّب كين جبينه. وقال: «أوه، تلك هي المعضلة حقًّا. ولكن لنفترض أن شخصًا آخر كان في الشقة؛ لن أقول من هو. لنفترض أنه جاء ليقتل ماندر، ووجد المهمة قد أُنجزت

بالفعل. ولم يرُقْ له أن يُعثر عليه في شقة مع جثتين، فحملهما إلى أسفل إلى مشهد قاعة الرقص بالطابَق السفلي، وبذلك يجعل الأمر يبدو وكأن جريمة القتل والانتحار قد وقعتا هناك.»

سأله ديفينش: «ولماذا لم يغادر المكان على أي حال؟ إذا كان قد تمكَّن من دخول الشقة، فقد كان بإمكانه الخروج منها مرة أخرى.»

قال كين: «لا أظن أنه خرج مرة أخرى بالطريقة نفسها التي دخل بها. في رأيي أن ماندر ارتكب جريمة القتل حين عِلم بخطبة الآنسة تيومر لكيفيم. وأظن أنها صعِدت إلى الشقة من الجزء الخلفي الذي يُفضي إلى الممر الضيق الذي لا نستخدمه إلا من أجل الشاحنات وأجهزة توليد الأحمال الكهربائية. فما من أحد يتواجد هناك يوم الأحد.»

«وهذا الرجل الافتراضي هو من دخل أيضًا؟»

«بالطريقة نفسها. وحين وجد الجثتَين، ربما ظنَّ أن الخدم سمعوا صوت إطلاق النار وسيفتشون الممر. أظن أنه من المحتمل جدًّا أن يكون قد اختبأ في المتجر، وخرج حين احتشد الزبائن في صباح يوم الإثنين.»

«رائع ولكن حريٌّ بك أن تتذكر، يا سيدي، أنه لم يكن هناك أثرٌ للرَّصاصة داخل الشقة أيضًا. ولماذا يشعر الرجل بالقلق حيال جثتَين أكثر من قلقه بشأن جثة واحدة؟ فإذا حوكم وأُدين ظلمًا، فقد يُشنَق لارتكاب جريمة واحدة.»

ضحك كين. وعلَّق قائلًا: «أخشى حقًّا أنني لن أكون محققًا ناجحًا. لقد نسيت تلك النقاط. هلا تناولت مشروبًا؟»

أجاب ديفينش: «كلا، شكرًا لك. عليَّ أن أذهب الآن.»

لطالما كانت تساوره الشكوك في أن الطبيب الشرعي كان يحاول تقديم تشخيصٍ متسرع جدًّا بخصوص مسألة المسدس الماوزر، ولكنه بطبيعة الحال لم يدرُس الموضوع بدقة. وسكوتلانديارد لا تقبل استنتاجات الخبراء من أي شخص سوى الخبراء أنفسهم؛ ولذا عُرض المسدس الماوزر بالفعل على صانع أسلحة.

عندما غادر ديفينش مسكن كين، توجَّه على الفور إلى هذا الخبير وسأله عمَّا إذا كان قد تَوصَّل إلى أي استنتاجات بخصوص المسدس.

قال الرجل: «قطعًا، لم يكن طبيبك الشرعي ليعطيَك رأيًا قاطعًا في قضية ما دون أن يدرسها من الناحية العلمية، ولكن يبدو أنه ألقى نظرة سريعة على السلاح ثم أطلق حكمه.»

علَّق ديفينش مبتسمًا: «يقولون إن عازفي الكمان المشهورين يرغبون دائمًا في أن يكونوا مُلحِّنين، والكُتَّاب يرغبون في أن يكونوا رجال أعمال.»

«الأمر كله مُتعلِّق بالحجم سيدي المحقق. لقد فحصنا المسدس تحت ضوء ساطع، وظهرت آثار أكيدة تدل على إطلاق رَصاصة منه.»

«أوه، حسنًا. ولكن ليست رصاصة عادية، أو رصاصة مُدبَّبة الرأس ملساء؟»

«بلى، من المؤكد أنها رَصاصة ذات غِلاف فولاذي. ولكن خذها مني كلمة ثقة بأن الماوزر هو السلاح المستخدم في الجريمة.»

«لا نستطيع العثور على أيِّ أثرٍ للرَّصاصة. استنتجت أن رجلًا أطولَ من ماندر كان يمسك بالمسدس، أو أن ماندر كان في وضع الجثو أو الجلوس. وما لم يكن قد اعترض طريقها عظمة أو شيء ما، وهو لا يبدو صحيحًا في هذه القضية، فمن المفترض أنها اخترقت جدارًا، أو نفذت عبر ثقبٍ قُطره نحو ثماني عشرة بوصة من الأرضية.»

«هل قمتم بفحص جميع فتحات التهوية الممكنة؟»

«أجل. الأمل الوحيد لدينا أن نكتشف نافذةً ما كانت مفتوحة بغرفة استقبال السيد ماندر. ولكن ما لم يكن ماندر جالسًا على حافة النافذة، فأنا لا أفهم كيف أمكنها الخروج بتلك الطريقة. فحتى لو كان قد جلس على حافة النافذة، مثلما يفعل الناس أحيانًا — رغم ندرة حدوث ذلك في شهر نوفمبر — فلا بد أن يكون طول القاتل حوالي سبع أقدام وست بوصات لكي تَنفُذ الرَّصاصة بالزاوية التي نفذَت بها.»

علَّق الرجل قائلًا: «أرى أن لديك مُهمَّة تنتظرك.»

أومأ ديفينش. وقال: «مهمة بغيضة. ولكن ثمة شيئًا علينا تذكره دومًا. الرَّصاصة تذهب إلى مكان ما. إذا لم يتبين أنها اخترقت أيَّ سطح داخل المبنى، إذن فهي لم تُطلق في ذلك المبنى. الأمر أشبه برجل يخبرك كيف أن محتالًا هرَب من غرفةٍ مُوصَدة دون أن يمرَّ عبر الباب أو الجدران أو الأرضية أو السقف أو عبر المدخنة. أنت تعرف أنه خرج بإحدى هذه الطرق، بغض النظر عمَّا قد يبدو إلى الراوي. وبمجرد أن يستوضح رجالي تلك النقطة، سأتمكن من تضييق نطاق البحث.»

«هذا صحيح. ولكن سيواجهون مصاعبَ شديدة في ذلك النطاق الشاسع.»

الفصل التاسع

أسند المحقق ديفينش لأحد رجاله مُهمَّةَ تعقُّب كين، ولآخرَ مُهمَّةَ تعقُّب السيد كيفيم، أما الثالث فذهب إلى جيلوفر لمراقبة ويبلي. ويبدو أن السيد ميليس، مساعد مفوض الشرطة، ذهب بمفرده إلى المنطقة المجاورة لبارستون كورت والتقى باثنين من أصدقاء السيدة بيدن-هايث. وصرَّح كلٌّ واحد منهما على حِدَة بأنه كان أحد المدعوين بحفل البريدج الذي أقيم يوم الأحد وأن مضيفتهم لم تتركهم لأكثر من عشر دقائق طَوال الأمسية.

لم يتبقَّ سوى السيد جيمسون بيدن-هايث. تناول ديفينش العشاء وعاد إلى سكوتلانديارد، متشوقًا لمعرفة شيء عن تحركات هذا الشاب يوم الأحد. وبعد قليل، دخل ضابط التحريات الذي كان قد أسندَ له هذه المهمة ليُبلغه بما اكتشفه.

حدثه قائلًا: «علمت من كبير الخدم أنه لم يذهب إلى السير ويليام ليفورت؛ لأن السير ويليام كان قد سافر إلى اسكتلندا. بحثت عن اسم السيد بيدن-هايث في دليل الأسماء ووجدت أنه يتردد على ناديَين. ذهبت إلى أحدهما، لكن لم أجد له أثرًا هناك. بعدها ذهبت إلى الثاني، وأخبروني أن لديه غرفة نوم هناك وقد مكث بها مساء الأحد. وصل في تمام الثانية عشرة ودخل غرفته.»

«وهل خرج بعدها؟»

«لا أظن يا سيدي. لكنني أظن أنك ربما تُفضِّل إجراء مقابلة معه بنفسك.»

وافقه ديفينش الرأي، وغادر مُتجهًا للنادي، وكان هناك في غضون ربع ساعة. لم يكن ناديًا رسميًّا على الإطلاق وكان معظم المترددين عليه من الشباب ذوي الميول الرياضية ولم يكن مستوى عضويته مرتفعًا للغاية.

عندما سأل المحقق إن كان بإمكانه مقابلة السيد جيمسون بيدن-هايث، طُلب منه الانتظار. بعدها عاد الساعي ليقول إن السيد بيدن-هايث في غرفة نومه وأحدهم صعِد له بالشاي في حوالي الساعة السادسة.

بدا تناول الشاي في الساعة السادسة أمرًا غريبًا بالنسبة لرجلٍ عُرف عنه إدمانه الكحوليات. لكن اتضح أن الشاب قد أخلَد إلى النوم ولم يستيقظ إلا في السادسة. عندما دخل ديفينش الغرفة، كان الشاب لا يزال مستلقيًا في الفراش، مُرتديًا قميصًا وسروالًا ومِبذَل نومٍ أنيقًا مصنوعًا من الحرير.

كان شابًّا فارعَ الطول شديد النحافة ذا وجهٍ بالغ الشحوب، ولكن ذلك لم ينتقص من وسامته شيئًا. كانت ملامحه عابسةً ومقتضبًا جدًّا في كلامه أيضًا. يبدو أنه قد أسرف في الشراب أو ربما لم يحظَ بقسط كافٍ من النوم خلال الأيام القليلة الماضية.

تَحدَّث ديفينش موضحًا مُهمَّته، وأضاف أنه علِم أن الشابَّ قد قضى مساء الأحد عند السير ويليام ليفورت.

ردَّ الشاب قائلًا: «نعم هذا ما حدث. أتريد سيجارة؟»

«هل أنت متأكد من ذلك يا سيدي؟»

حدَّق جيمسون إليه، وأخذَ يتمتم في نفسه، ثم هزَّ رأسه. بعدها قال: «لا، لست متأكدًا. ظننت ذلك، هذا كل ما في الأمر.»

«إذن، هل قضيت الليلة هنا؟»

نهض الشاب مستندًا على مرفقه وبدا عليه الضيق. وقال: «ما الذي تحاول الوصول إليه؟»

بدا ديفينش صارمًا. ورد قائلًا: «يجب أن تعلم يا سيدي أن التحقيقات الرسمية كتلك التي أقوم بها يجب أن تؤخذ على محمل الجد. لذا سأكون ممتنًّا لك إذا فكرت مليًّا قبل الإجابة.»

«فلتكمل حديثك!»

«سيدي، أريد أن أعرف كلَّ تحركاتك يوم الأحد الماضي. أعلم أن السيد ماندر زار بارستون كورت، وأنك غادرت فور وصوله.»

«نعم فعلت؛ إنه وغدٌ همجي!»

قال ديفينش: «ظاهريًّا ذهبت لزيارة السير ويليام، لكن إلى أين ذهبت فعليًّا؟»

«جئتُ إلى هنا؛ فلتأخذ سيجارة! يمكنك أن تدخن سجائرك الخاصة إذا كانت سجائري لا تعجبك.»

هزَّ ديفينش رأسه. ورد قائلًا: «ليس الآن، شكرًا لك.»

«إذن هل تمانع في أن أقرع الجرس؟ أريد شرابًا.»

«معذرة يا سيدي، لكن عليك حقًّا التركيز للإجابة عن أسئلتي.»

تحسس الشاب جيبه بحثًا عن عُلبة السجائر والثقاب، ثم أشعل سيجارة وقال: «أكمل حديثك!»

«إلى أين ذهبت بعد ذلك؟»

«أتيت إلى هنا وأخذت هذه الغرفة، ثم دخلت المتنزه.»

«إلى متى؟»

«عدت في تمام السادسة. كلا؛ لقد ذهبت لزيارة صديق. وتركته في الساعة السابعة، ثم التقيت بصديق آخر. بعدها عدت وتناولت العشاء هنا.»

«وماذا حدث بعد ذلك يا سيدي؟»

بدا السيد جيمسون بيدن-هايث حكيمًا إلى أبعد الحدود. فقال: «صدقني لا أعرف.»

«ولكنك بالتأكيد تعرف، أليس كذلك؟»

«المؤكد أنني لا أعرف! كان صديقاي مِضيافَين، وما إلى ذلك، وتناولت كأسًا أو اثنتين أثناء العشاء. بعدها ذهبت إلى مكان ما، وتناولت كأسًا أو اثنتين. لا بدَّ أن أعترف بأنني لم أكن متزنًا.»

«أتقصد أنك كنت ثملًا؟»

«مخمورًا! ما رأيك؟»

قطَّب ديفينش جبينه. ثم تحدَّث ببطء قائلًا: «أنا مُتشوِّق لمعرفة أين كنتَ مساء يوم الأحد رغم كل ذلك. ألا يمكنك التذكُّر؟ على ما يبدو أن أحدًا لم يلاحظ أنك كنت ثملًا لهذه الدرجة عندما أتيت إلى هنا في تلك الليلة.»

قال جيمسون وهو منهك: «ربما لم يرني أحد.»

تجاهل ديفينش رده، وحاول مناقشته من زاوية أخرى. «ربما يمكنك أن تعطيَني فكرة عن شخصية السيد ماندر. أعلم أنك لم تكن تحبه ...»

«كنت أكرهه بشدة!»

«وبما أن الأمر كذلك، يجب أن أتشكك في وجود قدر من التحامل من جانبك.»

اعتدل جيمسون بيدن-هايث في جلسته فجأة، وتحدث أطول حديث في حياته. قال: «ذاك الرجل! دعني أسألك من يكون؟ كاتب محامٍ مغرور، حلو الحديث، شخصية شديدة

المكر؛ بمقدوره إقناع طاهية بإعداد عشاء مُكوَّن من اثنَي عشرَ صِنفًا أثناء قضاء أمسيتها بالخارج. المشكلة أن والدتي كانت سريعةَ التأثر. سيدة أعمال رائعة، لكنها سريعة التأثر. كان لديه خُطَّة، خُطَّة أعدَّها مُسبَّقًا. لقد أقنعها ... ماذا؟ ذاك الحقير؛ لقد أفلتَ بفعلته، خدعها خداعًا مُحكَمًا. ولم يكن للكلام أيُّ جدوى! أنا لست رجل أعمال. ما الذي أعرفه عن ذلك؟ لا شيء! شخص أهدر ثروة أسرة ليحيا حياة البذخ والصخب! هل أنا من ضيَّع الأموال؟ كلَّا، ليس أنا؛ بل ماندر هو من فعَل. لكن كما قلت لا فائدة من الكلام.»

استلقى على الفراش منهكًا، وأخذ يتنفس بعمق مُحدِّقًا إلى السقف.

أدرك ديفينش أنه لم يَعُد هناك ما يقال. فقال متهكمًا: «حسنًا يا سيدي. أرى أنك لا يمكنك التذكر.»

«هذا صحيح.»

اتجه ديفينش إلى أسفل ليتحدث إلى بوَّاب الرَّدْهة، وسأله عما إذا كان قد لاحظ الحالة التي كان عليها السيد بيدن-هايث حين جاء مساء الأحد. وأظهر بطاقته للرجل فأطلق صافرة اندهاش.

رد قائلًا: «لم يَبدُ عليه شيء خارج عن المألوف، سيدي المحقق.»

«وما هو هذا المألوف؟»

«أعتقد يا سيدي أنه كان قد أفرط في تناول الشراب، هذا كل ما في الأمر.»

«ألم تلاحظ أنه لم يكن متزنًا أو واعيًا، أو أي شيء من هذا القبيل؟»

«كلا يا سيدي. بدا في حالة مِزاجية سيئة، ليس أكثر.»

«هل أتى مستقلًّا سيارة أجرة؟»

«لا أظن ذلك يا سيدي، ولكن ربما دفع أجرة لسيارة كانت تقف على مقربة.»

كان ثمة تناقض في موضع ما، لكن حتى هذا لم يثبت وجود صلة لبيدن-هايث بالقضية. كان واضحًا أنه لم يكن يرغب في الإفصاح عن المكان الذي تواجد به مساء الأحد، لكن زيارة غامضة لمكان ما لا تعني بالضرورة تورُّطه في جريمة قتل.

من الواضح أن جيمسون كان يشك في أن ماندر يحتال على والدته، أو على وشك الاحتيال عليها، ليحصل منها على بعض المال، وبطبيعة الحال كان يشعر بالاستياء إزاء هذا الهدر الكبير لأموال الأسرة. على الجانب الآخر، هل كان ليتحدث بهذا السوء عن القتيل لو كان متورطًا حقًّا في قتله؟ لم تكن هناك إجابة مقنعة لهذا السؤال. أحيانًا يشعر المجرم أن من مصلحته أن يفعل شيئًا تفترض القواعد أنه لم يكن ليفعله.

أطال ديفينش التفكير في الأمر بينما كان يتناول العشاء بأحد المطاعم. كان يبدو أنه ما من شيء مريب تجاه جيمسون، لكن لا أحد يعرف. أحيانًا يبدو مثل هذا الرجل التافه، النحيف الضعيف البنية، غاية في المكر والخداع.

عندما انتهى ديفينش من تناول وجبته، عاد مسرعًا إلى المتجر، مصطحبًا معه هذه المرة الرقيب ديفيز، وتوجَّها مباشرة إلى الشقة. جلس الاثنان في غرفة الاستقبال يدخنان أثناء مناقشة ديفينش للأدلة مع مساعده.

بدأ المحقق الحديث قائلًا: «بما أنه لا يوجد ثقوب أو شقوق بثيابهما، فمن المؤكد أن هناك من ألبسَهما هذه الثياب بعد موتهما، لكننا نريد معرفة من أين أتت تلك الثياب.»

«بالنسبة إلى بِزَّة العمل، أقصد بِزَّة العمل الزرقاء، فهي بِزَّة اعتاد ارتداءها أثناء العمل في ورشته هناك يا سيدي.»

«توقعت ذلك. كان مقاسها مناسبًا له تمامًا لدرجة أنه يستحيل أن تكون مجرد صُدفة. أيضًا كان هناك عدد زوجي من تماثيل العرض الشمعية في تلك الواجهة، وكانت جميعها واقفةً في أزواج. وبما أن ماندر لم يكن يرتدي ملابس تنكُّرية، فقد بدت الآنسة تيومر شاذة عن النمط. هل عرفت من أين جاء الزي التنكري الذي كانت ترتديه؟»

أومأ ديفيز برأسه. «من هنا يا سيدي. يبدو أن المصممين قدموا أفكارًا وتصميمات إلى ماندر. وكان هذا الزي أحد التصميمات التي رفضها، ولكن كبير الخدم تعرَّف عليه. لقد أخبرني أن ماندر تركه ملقًى دون اهتمام.»

قطَّب ديفينش جبينه. ثم قال: «حسنًا جدًّا. هذا بالنسبة إلى الثياب. والآن نأتي إلى هذا الجرح الذي أصاب المرأة. لست مقتنعًا بموضعه. هل بدا لك ... أقصد، إذا كنت ستطعن شخصًا ما، فهل كنت ستختار هذا المكان؟»

فكَّر الرقيب مليًّا. ثم قال: «لا يا سيدي، لا أظن أنني كنت سأختاره. لقد تعجبت أيضًا؛ فالطبيعي هو الطعن إما في الحلق أو فيما بين الكتفين.»

أمَره ديفينش قائلًا: «افتح هذه النافذة واجلس على الحافة، وانظر في هذا الاتجاه.»

نهض ديفيز وامتثل للأمر. بدأ ديفينش يمثل مشهد إطلاق النار، وجرَّب التصويب نحو مساعده من مواضع مختلفة، ثم تنهَّد.

قال: «هذا المكان أعلى بكثير من أي مبنًى مجاور. ولكن من الأفضل تحرِّي الدقة ومواصلة العمل. إن أُطلقت الرَّصاصة من هذه الزاوية، كانت ستصيب مكانًا ما في نطاق ألف ياردة على الأكثر، سواء كان ماندر جالسًا أو واقفًا. علينا أن نتقصَّى في كل المباني

القريبة. فقد نجد نافذةً مكسورةً أو جصًّا أو حجرًا مُشظًّى. يمكننا أيضًا الحصول على بعض الصور الفوتوغرافية من هنا باستخدام عدسة مُقرِّبة لنرى إن كانت ستُظهر أيَّ شيء. سوف تقوم بهذه المهمة غدًا، أليس كذلك؟»

وافق ديفيز، ثم جلس مرة أخرى بعدما أغلق النافذة ليَحولَ دون دخول الهواء البارد الرطب القادم من الظلام خلفه.

قال في تردُّد: «سيدي، لا يمكنني الكفُّ عن التفكير في أن هناك شيئًا مُريبًا بشأن السيد كيفيم.»

«لماذا تظن ذلك؟»

«لقد جاءت سيدة شابة جميلة لزيارته اليوم، يا سيدي. رآها كوربيت تدخل إليه وتبدو عليها جِديَّة شديدة. مكثت لديه ما يزيد على الساعة، ويقول إنها خرجت مبتسمةً وسعيدة جدًّا.»

ضحك ديفينش. ورد قائلًا: «عزيزي ديفيز، لو أن هذا كل ما في الأمر، لأصبح الكثير من رجال المدينة محل اشتباه.»

«كلا، لم تكن زيارتها للسيد كيفيم هي كل شيء يا سيدي. لقد تعقَّبها كوربيت إلى المنزل، وأجرى تحرياته، ويبدو أنها كانت صديقةً مُقرَّبة للآنسة تيومر.»

اندهش المحقق وأخذ يفكر. هل يمكن أن تكون هذه السيدة هي السيدة هوو؟ لقد كانت تعرف كيفيم بالطبع، لكن هل كانت تحاول الحصول على أخبار للصحافة، أم كان هناك دافع شخصي وراء زيارتها؟

رد قائلًا: «ربما لا يعني ذلك شيئًا، لكن عليك مراقبة السيدة هوو، إن كانت هي تلك الشابة. لقد قابلتُها، وتركَت لديَّ انطباعًا إيجابيًّا؛ لكن الفكرة التي كوَّنتها عنها أنها لم تكن تحب صديقتها للدرجة التي أرادت إقناعي بها.»

قال ديفيز: «سوف أراقبها يا سيدي، لكن هناك شيئًا آخر أردت معرفته. هذا الجهاز الموجود بالمتجر الذي يسمح للحارس بسماع صوت أي شخص يتحرك بين الأقسام ليلًا، أظن أن مان ربما عطَّله. أتساءل كيف فعل ذلك.»

قال ديفينش: «من السهل تعطيله؛ ما يثير اهتمامي هو حقيقة أنه عُطل بحيث لا يمكن لأحد ملاحظة ذلك عند الفحص السريع لوصلة الميكروفون.»

«نعم يا سيدي، هذا صحيح.»

«حسنًا، هناك مُهمَّة سأكلفك بها. ربما يكون هذا الرجل يعشق النوم، وأراد أن يغفوَ بين حين وآخر. لا شك أن ذلك الميكروفون يُصدِر ضجيجًا شديدًا أيضًا عند مرور السيارات في الشارع.»

وافقه الرقيب الرأيَ قائلًا: «هذا صحيح، يظنُّ الكثير منهم أن وظيفة الحارس الليلي وظيفة تجلب المال بسهولة.»

«إذن، أرجو أن تتحدث معه مرة ثانية، وعليك أيضًا جمع أيِّ معلومات عنه من محيط سكنه. وتحقق كذلك ممَّا إذا كان السيد كيفيم أو السيد كين، أو أي شخص معنا في هذه القضية، كان على اتصال به. الآن سأصعد إلى السطح. هل معك كشافك؟»

«أجل يا سيدي.»

أثناء صعودهما السلالم أشار ديفينش إلى أن شمعات الاحتراق المفقودة تُسبِّب له حَيرة شديدة.

قال: «لو لم تكن هذه الضوضاء ناتجةً عن هبوط الطائرة الجايروكوبتر، فربما كان سببها المحرك الموجود على المنضدة الموجودة بالورشة. وإذا كانت الضجة بسبب المحرك بالورشة، إذن فالقاتل أزال شمعات الاحتراق بعد أن أنهى مُهمَّته.»

قال ديفيز: «لا أفهم ما تعنيه يا سيدي.»

هزَّ ديفينش كتفَيه. ثم قال: «لو أن طائرة جايروكوبتر لم تهبط هنا، ومع ذلك كانت هناك آثار للإطارات على السطح، فإن هذا سيعطي انطباعًا بأن هبوطًا قد حدث. لكن لتأكيد هذا الانطباع، كان لا بدَّ من وجود صوت محرك الطائرة، أليس كذلك؟ إذن من المؤكد أن القاتل شغَّل المحرك الموجود على المنضدة ليصدر الصوت، ثم أزال شمعات الاحتراق ليثبت أن المحرك لا يمكن أن يكون هو مصدر الصوت.»

عند دخوله سطح الشقة أخرج كشَّافًا من جيبه. وأشعل ديفيز كشَّافه أيضًا.

قال ديفينش: «تشير جميع الأدلة المتعلقة بآثار الدماء إلى أن الاثنين قد قُتلا بالأسفل، لكن الرَّصاصة المفقودة توحي بعكس ذلك، وهذه في رأيي هي المشكلة الحقيقة. لدينا هنا بالأعلى كل ما نحتاجه لحل اللغز، وأود البَدء فورًا. ربما أكون مخطئًا، لكنني أشعر بأننا هنا أقرب لحل اللغز من أسفل. كم عدد الرجال الموجودين بالمتجر الآن؟»

«لدينا بالأسفل سبعة رجال، كل منهم يعمل على مُهمَّة مختلفة يا سيدي.»

«حسنًا. أحضرهم إلى هنا بسرعة. كلا، أرسل اثنين منهم إلى قسم المعدات أولًا، واطلب منهما إحضار غربال لكل واحد منهما. هذه الحواجز الرملية لهبوط الطائرة هي الشيء الوحيد الذي كان قادرًا على صدِّ الرَّصاصة.»

قال ديفيز مندهشًا: «أنت على حق، يا سيدي. لم أفكر في ذلك قط.»

أخذ ديفينش يفكِّر. ثم قال: «إنه مجرد احتمال. لقد ذهبت الرَّصاصة إلى مكان ما. اذهب الآن، أيها الرقيب.»

هُرع ديفيز عبر السلم. واقترب ديفينش من إحدى أكوام الرمال العالية عند أحد أطراف السطح، وركَّز شعاع كشَّافه عليها.

حدث نفسه وهو يرفع ياقةَ مِعطَفه لصدِّ هواء الليل البارد قائلًا: «لو كانت هنا، فسيقلل ذلك من الاحتمالات بعض الشيء، لكن تُرى ماذا كانا يفعلان هنا بالأعلى في فصل الشتاء بحق الجحيم؟»

عندما عاد الرقيب ومعه الرجال السبعة، كان المحقق مُتكئًا على الحاجز يُدخِّن ويُفكِّر. كان يتحلى ببعد النظر حين جعلهم يُحضرون كشافات بالإضافة إلى الغرابيل، ومِن ثَمَّ أصبح هناك الكثير من الضوء المُسلَّط على أكوام الرمال عندما بدأ الرجال العمل.

كانت أكوام الرمال عميقة وكثيفة، وانطفأت الكشَّافات واستُبدل بها أخرى من المتجر مع مرور الوقت. فمُهمَّة غربلة وفحص أطنان من الرمال تحتاج إلى وقت طويل، ومرت ساعتان قبل أن يقتنع ديفينش بأن الكومة الأولى لا تحتوي على أي شيء ذي أهمية.

عند حلول منتصف الليل، نزل إلى الشقة وطلب من كبير الخدم أن يُعِدَّ لهم بعض القهوة الساخنة بينما بدأ الرجال في غربلة الكومة الثانية. أخذ الجميع استراحة عشر دقائق لشرب القهوة، ثم عادوا لمباشرة العمل بحماس جديد.

لكن بدأ التشاؤم يعتري ديفينش وهو يراهم يغربلون الكومة شيئًا فشيئًا. كانت لديه قناعة قوية بأن الرمال ربما تُخفي سرَّ الجريمة، وازداد تشاؤمًا عندما انتهوا من غربلة الكومة الأولى، ونصف الثانية بدون أي نتائج.

قال لديفيز: «يبدو أن الطرق المختصرة لا تختصر المسافات.»

وبينما يقول ذلك، صاح مخبر كان يقف أقصى يمينه بحماس شديد.

«انظر إلى هذا يا سيدي!»

الفصل العاشر

قال ديفينش بعد أن فحص الرمال الملطخة باللون الأحمر التي أشار لها المخبر: «لا شك أنها دماء. ولكن اتركوا هذا الجزء، وليتوقف بقيتكم عن العمل حتى يتسنَّى لنا إلقاء نظرة أفضل. هل تعتقد يا ديفيز أنه من الأفضل أن نترك هذا حتى بزوغ ضوء النهار؟ أقصد هذا الجزء. فأنا أنوي البحث عن الرَّصاصة في الجانب الآخر من الكومة.»

أومأ ديفيز. وقال: «أظن أن ذلك قد يكون أفضل يا سيدي. هذه الدماء موجودة بالجانب الداخلي، وإذا كان ماندر قُتل برصاصة أُطلقت عليه من مسافة قريبة، فلا بدَّ أن من أطلق النار كان يقف عند الجانب الداخلي، لا عند الحاجز.»

أومأ ديفينش. وقال: «وإلا لمرَّت الرَّصاصة عبر كمية مُعيَّنة من الرمل قبل أن يُعترض طريقها. أيها الرفاق، أريد أن يتجه اثنان منكم فقط نحو جانب السور. أريدكما أن تقفا بالضبط مقابل المكان الذي أقف فيه الآن.»

وبينما كان باقي الرجال يركزون كشَّافاتهم على كومة الرمل، وتحرك اثنان منهم حولها، حدَّق ديفينش إلى ديفيز.

سأله قائلًا: «هل تتذكر إن كانت هناك رياح قد هبَّت مساء الأحد؟ أذكر أنه عند خلودي للنوم كان هناك نسيم. بالطبع يمكننا التحقُّق من ذلك في القريب العاجل إذا لم تكن متأكدًا.»

أومأ ديفيز.

وقال: «نعم يا سيدي. كانت هناك رياح قوية نوعًا ما قادمة من الغرب.»

«إذن لا بد أنها هبت عبر هذا السطح؟»

«هذا أكيد يا سيدي.»

قال ديفينش بصوت خفيض: «يجب أن أحقق في طريقة هبوط الطائرة الجايروكوبتر»، ثم التفت مرة أخرى إلى الرجلين اللذين ينتظران أوامره. «غربلا الرمال ببطء وحرص شديدين لمسافة ست أقدام تقريبًا من جانبكما، واعتبرا موقعي هو المركز، واتجها نحو الداخل. ولا تحركا الكومة عمومًا لأبعد مما يمكنكما.»

كانت جميع الكشَّافات مسلطة الآن على كومة الرمل، وبدأ الرجلان العمل بحذر شديد. طلب منهما ديفينش أن يتحرَّيا الدقة الكاملة ثم نزل إلى الشقة بصحبة ديفيز، وفتح الباب المؤدي إلى مسكن الخدم، واستدعى كبير الخدم وسأله عما إذا كان لديه زيت مصابيح.

قال موضحًا: «نريد المزيد من الإنارة بالأعلى.»

كان كبير الخدم متعاونًا. فأوضح له أنه قد سمع أن هناك بعضًا من مصابيح الكيروسين الجديدة معروضة بالأسفل، وبما أن هناك عرضًا يوميًّا للمنتجات، فمن المؤكد أن المصابيح ستكون مملوءة.

قال: «إنها مصابيح من النوع الجديد الآمن يا سيدي.»

أرسل ديفينش ديفيز لإحضار مصباحين، وعاد هو إلى السطح. أخذ يفكر أثناء صعوده في أن السرية التي اقتضتها مناورات السيد ماندر لم تسهل على القاتل مهمته فحسب، بل عرقلَت سَيْر العدالة أيضًا. هذا الدَّرَج الخاص، وتوخي ماندر للحذر ليضمن عدم تلصُّص أحدٍ عليه، مكَّنا القاتلَ من استغراق ما يلزمه من وقتٍ لتنفيذ مُهمَّته، وإعادة وضع الرمال فوق الدماء، وإزالة آثار الجريمة قبل أن يغادر المكان.

قال متأملًا: «ثمة شيء واحد يمكن أن يساعدنا. إذا حاول أي شخص متورط في القضية مغادرة لندن على عجل، فقد نتحصل على دليل لحل اللغز. إن صرحت بأن الرمال ستُزال من فوق السطح، فقد يبعث هذا الخوف في نفس القاتل، لكنني لن أفعل ذلك في الوقت الحالي.»

عاد ديفيز وقام بتركيب المصباحَين قبل أن يتمكن أيٌّ من المخبرَين اللذين يقومان بغربلة الرمل من التوصل لاكتشاف آخر. ولكن بعد مرور خمس دقائق من تسليط الضوء الجديد على المكان، ظهرت الرَّصاصة.

على الفور توقَّف العمل. أخذ ديفينش الرَّصاصة ووضعها في راحة يده، وأخرج من جيبه عدسة مُكبِّرة بينما وقف مساعدوه حوله يُحدِّقون في لهفة.

قال ديفينش: «ها هو الدليل. نفس نوع الرَّصاصة التي كنَّا نبحث عنها بالضبط. ليذهب اثنان منكم إلى المتجر مرة ثانية ويُحضرا قماشًا مشمعًا، أو مماسح غبار، أي شيء

مناسب يمكنكما الحصول عليه، ربما تكون الأقمشة المقاومة للمياه هي الأفضل. ويُفضل أن يبقى أحدكم هنا ليتولى الحراسة حتى الساعة الرابعة، بعدها يأتي إليه زميل آخر ليتناوب معه الحراسة.»

سأل أحد رجاله: «أهذا يعني أننا سنُغلِق أبواب المتجر الليلة يا سيدي؟»

«نعم، هذا ما سيحدث. أريد أن يرى مفوض الشرطة والسيد ميليس هذا عند حلول النهار. والآن علينا تغطية الرمال كما هي، دون أن يلمسها أحد. بالمناسبة، يجب ألَّا يعلم أحد بالخارج أيَّ شيء عمَّا وجدناه هنا على السطح. مفهوم؟»

بعد التوضيح، عاد هو وديفيز إلى غرفة استقبال السيد ماندر الراحل، وجلسا لفحص الرَّصاصة تباعًا. وبعد أن حدَّق كلاهما إليها عن قرب، وضعها ديفينش جانبًا.

سأل المحقق الرقيب: «الآن، أخبرني كيف تقوم طائرة بالهبوط في رأيك؟»

قال ديفيز: «أعتقد يا سيدي أنها تتحرك مع اتجاه الرياح. بالضبط كما تفعل الطيور.»

«كان هذا رأيي أيضًا، وأعتقد أنه صواب. حسنًا، إذا كانت الرياح التي هبَّت على السطح في ليل الأحد رياحًا غربية، والطائرة الجايروكوبتر هبطت هنا بالفعل، فكيف يمكن لمسارات العجلات أن تمتد بين أكوام الرمال طوليًّا؟»

«لكننا افترضنا أنها لم تهبط هنا يا سيدي. أكانت تلك خُدعة؟»

«هذا صحيح، لكن حتى الخدعة السيئة الإعداد قد تعطي تلميحات. لنفترض أن بحَّارًا يحاول أن يجعل المشهد يبدو وكأن أحد البحَّارة الآخرين قد قيَّد رجلًا بحبل. بالطبع سيعقد الحبل بأفضل الطرق التي يُتقنها البحَّارون، أليس كذلك؟»

«بالطبع يا سيدي.»

«مثلما لا يكون لدى الفلاح دراية بكل حيل التجارة. إذن، لو أن رجلًا لا يعرف الكثير عن الطائرات حاول ادعاء حدوث هبوط هنا، فلن يُفكِّر في أي من الصعوبات الناتجة عن اتجاه الرياح في تلك الليلة.»

«أجل يا سيدي.»

«إذن فإن الاحتمال الذي يدور بذهني هو أن ما من طائرة هبطت هنا، لكن شخصًا ما لا دراية له بالطائرات حاول إثبات أن ثمة طائرة هبطت هنا. وهذا من شأنه أن يُسفر عن استنتاج تورُّط كلٍّ من ويبلي وكين.»

«لكن بما أن ويبلي هو الشخص الذي يمكنه قيادة هذا النوع بعينه من الطائرات، فلا بد أن القاتل حاول أن يُلصق به التهمة. ولكن ترى من يحمل ضغينة تجاه ويبلي؟»

قال ديفينش وهو ينهض: «لا أعرف. سأذهب الآن للتأكد من أن الرجل قد اتخذ موقعه لتولي الحراسة بالأعلى، وأن الرمال قد غُطيت جيدًا، بعد ذلك سأخلد إلى النوم لبضع ساعات. أنصحك بأن تخلد للنوم أنت أيضًا يا ديفيز.»

قال الرقيب: «حسنًا يا سيدي.»

لم يأتِ مفوض الشرطة في صباح اليوم التالي، لكن جاء السيد ميليس، وبدا أكثر حماسًا واهتمامًا من المعتاد، وأوضح أن المفوض كان لديه مقابلة مع السيد هاي، محامي السيدة بيدن-هايث.

أضاف قائلًا: «أرى أن خطايا السيد ماندر كانت فاضحة له بعض الشيء. لقد حصل السيد هاي ومراجع الحسابات على كل ما استطاعا التحصُّل عليه من السجلات أمس، وبدآ إجراء تحريات مكثفة. يبدو أن ماندر كان يجمع بعض النقود تحت ستار هذا المشروع، وكان يعمل عمومًا على جمع ثروة صغيرة مُستغِلًّا الظروفَ أفضل استغلال. ما من شك أنه كان عبقريًّا في تأسيس المشروعات الكبرى، لكنني أتخيل أنه لم يكن مثابرًا.»

زمَّ ديفينش شفتَيه مندهشًا. ثم قال: «حقًّا يا سيدي؟ كان يستعد للهروب، أليس كذلك؟ أتساءل عما إذا كان قد تقدَّم بعرض زواج لأخذ الآنسة تيومر معه؟»

هزَّ ميليس كتفَيه. قال: «لا أعتقد أننا سنعرف ذلك الآن. لكن دعنا نصعد لأعلى ونُلقي نظرةً على ما توصلت إليه بخصوص لغز القتل والخيانة الذي تعمل عليه.»

صعِدا السُّلَّم مُتجهَين إلى السطح واقتربا من كومة الرمال التي كانت الآن مُغطَّاة. لم يكن هناك سوى ديفيز وضابط تحريات آخر، وبأمر من ديفينش نزعا الغطاء بأقصى درجات الحذر. اقترب ميليس لينظر إلى الرمال الملطخة بالدم ثم رفع حاجبَيه.

«أيها المحقق، ألم تلاحظ أيَّ شيءٍ غريب عندما رأيت ذلك الشيء لأول مرة يوم الإثنين؟»

«كلا يا سيدي. من نفَّذ الجريمة نفذَّها بمنتهى الدقة. لا بدَّ أنه قد نقلَ الجثة وحرَص على تركها بمكانها حتى يتوقف النزيف تمامًا. بعد ذلك لا بدَّ أنه بدأ العمل على تسوية كومة الرمل لتبدوَ مُنسَّقة كما كانت من قبل.»

«هل سبق لك أن استلقيت على الرمال على شاطئ البحر أيها المحقق؟»

ابتسم ديفينش ابتسامة باهتة. «لا بدَّ أنني فعلت ذلك عندما كنت أصغر سنًّا يا سيدي.»

«أراهن أنك وجدت رمالًا عالقةً بحذائك وثيابك بعدها. أعتقد أنك تفترض أن ماندر كان إما جالسًا أو واقفًا بجوار كومة الرمل هذه؛ تمهَّل لحظة! وفقًا لمسار الرَّصاصة، لا بدَّ

أنه كان جالسًا، إلا إذا كان القاتل كان واقفًا على الحاجز المقابل ليحظى ببعض الارتفاع، أليس كذلك؟»

فكَّر ديفينش مليًّا. ثم قال: «ربما سارت الأمور بصورة مختلفة يا سيدي. لم يكن ماندر ليجلس في إحدى ليالي شهر نوفمبر على كومة من الرمل على سبيل المتعة. وهذا واضح. أليس من المحتمل أنه كان على علم بأن رجلًا يحمل مسدسًا يلاحقه، وعليه ظل يتراجع ببطء للخلف على السطح، حتى سقط على كومة الرمل — سقط على حافة الكومة، وأقصد أنه جلس بمجرد سقوطه — وعندئذٍ أُطلقت الرَّصاصة؟»

أومأ ميليس برأسه موافقًا إياه الرأي. «تلك نظرية جيدة. وبالطبع لم يكن ماندر ليصرخ لطلب النجدة. فقد كان يعلم أنه بعيد تمامًا عن أي شخص يمكنه المساعدة بسبب ترتيباته الخاصة السخيفة. أظنه كان يأمُل ألَّا يُطلِق الرجل الآخر النارَ عليه. لكن ما الذي جعل القاتل لا يُطلق النار منذ اللحظة الأولى؟ لماذا انتظر حتى ابتعد كل هذه المسافة؟ إذا كنت تشك في كيفيم، فلا بد أنها جريمة بدافع الغَيرة. ومن يشعر بالغَيرة لا يُفكِّر في وضع خُطة.»

أومأ المحقق. «لديَّ تفسيران محتملان، لكنَّ كليهما من تخميني. يبلغ ارتفاع الحاجز المحيط بهذا السطح أربع أقدام. هل كان القاتل يدفعه إلى الخلف، على أمل أن يحاول تسلُّق السور لينجوَ بنفسه ومِن ثَمَّ يسقط؟ لو سارت الأمور هكذا، لبدت القصة وكأن ماندر قد انتحر. أم أنه كان قاتلًا محترفًا يقظًا ويعلم أن أفضل مكان لسقوط ماندر هو الرمال، حيث يمكن إخفاء بقع الدماء بسهولة لفترة من الوقت، فضلًا عن أن الرَّصاصة ستختفي بعيدًا عن الأنظار.»

ضحك ميليس.

«ويصعب تحديد أسلوب القتل وطريقته، لبرهة من الوقت، ريثما يتمكن من الهرب؟»

عضَّ ديفينش شفتيه. ثم قال: «يظل لدينا مشكلة الرمال المبعثرة التي ذكرتها. لديَّ فكرة. الشيء الوحيد الذي سيساعدنا هو معرفتنا أن القاتل ربما لم يظل بالمبنى لفترة طويلة فحسب، بل ربما يكون اختبأ حتى فتح أبواب المتجر في اليوم التالي. هذا يعني أنه كان لديه من سبع إلى ثماني ساعات لمحو آثار الجريمة. ولم يتعرض لخطر أن يراه أحد إلا أثناء وجوده بالمصاعد أو بالأقسام بالأسفل.»

أخذ ميليس يدندن نغمات متقطعة للحظات. ثم قال: «إذن، لو كان ماندر سقط على الرمال هنا، فلا بد أن القاتل قد واجَه صعوبةً كبيرةً في تنظيف الملابس من آثار الرمال. ولا أقصد ملابسه لأنها لا تُمثِّل أهميةً كبيرة. فقد كان بوسعه تنظيفها بالمنزل.»

نظر إليه ديفينش محدقًا. «هذا صحيح يا سيدي. دعني أفكر؛ يوجد في الشقة بالأسفل شتى أنواع الأدوات اللازمة، ألديك مانع أن ننزل إلى أسفل يا سيدي؟»

وافق ميليس، ونزلا إلى الشقة، ودقا الجرس لاستدعاء كبير الخدم.

سأله ديفينش: «ألديك مكنسة كهربائية هنا؟»

رد الخادم وقد بدت عليه الدهشة: «بالتأكيد يا سيدي.»

«هل استخدمتموها هنا مؤخرًا؟»

«لا يا سيدي. فكما تعرف، لقد أغلقتم الشقة هنا، و...»

«أعلم ذلك، لكن ألا تستخدمونها بمسكنكم؟»

فرِح كلاهما عندما كشف كبير الخدم عن حقيقة ربما كانا على دراية بها؛ أن الخدم، في قرارة أنفسهم، غالبًا ما يشعرون بضغينة ضد الأجهزة التي من شأنها توفير العمالة. وعليه اتضح أنهم لم يستخدموا المكنسة الكهربائية.

سأل ديفينش: «إذن، أين تحتفظون بها؟»

اصطحبهما الخادم إلى خزانة كبيرة مُدمَجة في أحد الممرات وأخرجَ لهما منها مكنسة كهربائية.

«ها هي يا سيدي.»

على الفور قام ديفينش برفع الكيس الذي يحتوي على الغبار المتجمع وفصله عن المكنسة. قال محدثًا ميليس: «إنه ليس ممتلئًا يا سيدي.»

قال كبير الخدم: «لقد أفرغته بالطبع.»

رد ديفينش: «لكن ليس منذ يوم الأحد.» وأخرج من جيبه مِطواة، وأذِن لكبير الخدم بالانصراف، وحمل الكيس إلى غرفة الطعام حيث وضعه على المائدة.

قال: «ربما أكون مخطئًا يا سيدي، لكن يبدو لي أن هذه المكنسة تنظف الملابس بكفاءة تفوق أيَّ فرشاة، كما أنها لن تبعثر ذرات الرمل كما تفعل الفرشاة. أعتقد أنه من الأفضل أن نفتح هذا الكيس.»

قال ميليس: «فكرة عبقرية يا صديقي العزيز. مزق هذا الكيس بأي طريقة. بالطبع ستظهر أي حبات رمل على هذه المائدة اللامعة المصنوعة من خشب الماهوجني.»

بمنتهى الحرص، شقَّ المحقق الكيس من جميع الأطراف، وأفرغ محتوياته القليلة على المائدة. ثم أخذ يهزها برفق، ثم وضعها بأحد أركان المائدة.

قال ميليس وهو يربت على ظهره برفق: «ليست رمالًا شاطئية، لكنها رمال على أي حال. يوجد نحو نصف أوقية من الرمال هنا بالإضافة إلى مادة أخرى.»

بدا ديفينش متحمسًا في تلك اللحظة. «هذا صحيح. إنها رمال وبعضها يميل إلى اللون الأحمر يا سيدي. لتُلقِ نظرةً عليها باستخدام عدستك المكبرة، بينما أفحص بعضًا من المادة الأخرى المختلطة بها لأُحدِّد ماهيتها.»

أخذ ميليس يفحص كميةً من الرمل، وتركه ديفينش، بعد أن عايَن الغبار والأنسجة المختلطة المأخوذة من الكيس، وقام بجولة في الغرف الأخرى الموجودة بالشقة، بعدها عاد ليجد ميليس جالسًا يدخن ويتأمل المائدة.

قال عندما جاء المحقق: «غبار لا قيمة له بانتظارك يا ديفينش. لكن ما الذي جعلك متحمسًا للغاية الآن؟»

أخذ ديفينش يفرز الغبار مرة أخرى، وفصل عنه بعض أنسجة الصوف.

«سيدي، على الرغم من أن السيد ماندر ذهب في ذلك اليوم لتناول الغداء بصحبة السيدة بيدن-هايث، فنحن نعلم أنه كان يرتدي ملابسَ مصنوعةً من صوف التويد ولم يرتدِ ملابس للعشاء عند عودته. يوحي نوع هذه الأنسجة الصوفية ولونها بأن مصدرها بذلته. ربما سيُظهر التحليل أن هذه الأنسجة منها بالفعل. ومع وجود الرمل هنا، أعتقد أننا يمكن أن نكون متأكدين تمامًا من هذه المسألة.»

قال ميليس: «إنه شيطان عديم المشاعر. لقد جلس وتظاهر بأنه يرتب المكان ... لكن، يا إلهي! من أين جاءت الفتاة التي قُتلت في المصعد؟»

جلس ديفينش، وأخذ يفكر مليًّا في تلك النقطة. ثم قال: «أغلب الظن أن عمال النظافة قاموا ليلة السبت برفع قطعة السجَّاد من المصاعد ليقوموا بعملهم. من الواضح أنهم أعادوا وضع قطعة السجاد في تلك الليلة، وإلَّا لسمعنا عن بقعة الدم سريعًا يوم الإثنين.»

«أظن ذلك.»

«لكن السجادة لم تكن موجودة بالمصعد عندما قُتلت به الفتاة، إن كانت قد قُتلت بالمصعد من الأساس. لو أن ذلك ما حدث، لوجدت بقعة الدم على السَّجادة وليس تحتها.»

تمتم ميليس قائلًا: «كلام منطقي جدًّا، أتفق معك في رأيك؛ فلتُكمل حديثك.»

قال ديفينش: «هذا يوحي لي بأنها لم تُقتل في المصعد. لا يمكنني تخيُّل القاتل يرفع السجادة، ثم يطلب من الفتاة أن تدخل المصعد، ثم يقتلها.»

«إذن وُضعت بقعة الدم هناك بهدف إرباكنا؟ احتمال قائم. ربما أتت جدواه؛ فبالرغم من أن الجريمة لم تكن دمويةً للغاية يا ديفينش، فقد كانت دموية إلى حدٍّ ما. لكن عمومًا، كما نتفق أنا وأنت، عنصر الغَيرة حاضر في هذه القضية. لا يمكننا تجاهُل ذلك. لقد علَّق

القاتل ضحيتَيه بغرض إذلالهما بوضعهما في ملابسَ تنكُّرية في واجهة المتجر. لو أن قتل ماندر هو الهدف المقصود، وكانت الفتاة مجرد ضحية غير مقصودة، فما من سببٍ لوضعها هي الأخرى بواجهة العرض.»

أومأ ديفينش برأسه. قال: «ثمة احتمال آخر يا سيدي وهو أن ماندر والفتاة كانا عاشقين. علاوة على ذلك، لو أن ماندر كان يفكر في إغلاق المتجر، إما لأنه توقَّع الفشل لهذا المكان في النهاية، أو لأنه كان ينوي طَوال الوقت جمع الأموال ثم الهرب بها، فربما اتفق معها على الذَّهاب معه. ألم تذكر الصحف أيَّ شيءٍ عن ذَهاب السيد ماندر إلى أمريكا الجنوبية لدراسة احتمالات تأسيس شركة أخرى هناك؟ أعتقد أنه كانت هناك أخبار عن ذلك. على أي حال، لقد جاءت الآنسة تيومر إلى هنا، لسبب أو لآخر، لزيارة ماندر.»

«سأسلم بذلك. واصل حديثك!»

«لنفترض أنها كانت في هذه الشقة عندما دقَّ أحد الأجراس. من المؤكد أن هذا إما جرس الباب الخلفي أو الباب المقابل للمصعد. وبالطبع لم يكن ذلك الجرس الذي يُقرع لاستدعاء كبير الخدم.»

«بالتأكيد، ليس في الليل.»

«حسنًا، ربما طلب ماندر من الآنسة تيومر أن تختبئ عن الأنظار. بعدها نزل أو اتجه نحو الباب الآخر في هذا الطابَق. سنفترض أنه قابل عند الباب رجلًا يحمل مسدسًا. وهذا الرجل أجبره على فتح الباب تحت تهديد السلاح. فاضطُر ماندر لإدخاله الشقة. دار بينهما حوار هنا، وربما شجار.»

«احتمال وارد جدًّا، خاصة إن كان الأمر قد انتهى بإطلاق النار.»

«حسنًا يا سيدي. إما أن ماندر اصطحب الزائر إلى السطح، أو أنه انطلق مسرعًا وحاول الهروب إلى هناك. تبعه الرجل، وسمعت الآنسة تيومر ضجيج الشجار، ووقع الخطوات أثناء الجري، فخرجت ولحقت بهما. عندما صعدت إلى هناك، كان ماندر قد تحرَّك حتى وصل إلى الرمال وسقط. عندئذٍ أطلق الرجل النار عليه. ربما صاحت الفتاة في هذه اللحظة، وعلم القاتل بافتضاح أمره. ومن ثم طاردها، وطعنها. وبسبب الظلام، ربما جاءت الطعنات عشوائية، في موضع منخفض لم يكن ليختاره في وضح النهار؛ في أسفل الظهر كما نعلم. إذا كان القاتل هو العاشق الغيور، فلا بدَّ أنه اكتشف لاحقًا ماهية زائر ماندر، وهذا يُفسِّر فعلته الأخيرة وهي تعليق جثتيهما بواجهة المتجر.»

قال ميليس: «أظن أنك أنت من فعلها يا ديفينش. مؤلفو الروايات البوليسية معهم كل الحق، بالفعل المحققون هم الأخطر والأكثر دهاءً!»

الفصل الحادي عشر

في عصر اليوم الذي صعد فيه السيد ميليس والمحقق ديفينش إلى سطح متجر ماندر، كان السيد كيفيم يتناول الشاي بشقة السيدة هوو. لم يُعَدْ فتحُ أبواب المتجر في ذلك اليوم، بناءً على طلب السيد هاي ومراجع الحسابات، وكما وعد ديفينش، ولكن لم يكن من المقرر أن يُستأنف العمل به مرة أخرى حتى يوم الإثنين التالي. اتفق الجميع على أن الشركة لن تخسر شيئًا بسبب هذا الحادث المأساوي؛ وذلك لأن نصف سكان لندن كانوا عازمين على التسوق في المكان الذي شهد هذا الحادث بحلول أول فرصة لذلك. حتى إن أحد الأشخاص قال على سبيل المزاح: «كان ماندر يتمتع بعبقرية في جذب الانتباه والشهرة لدرجة أن مقتله صار في حد ذاته إعلانًا ترويجيًّا للمتجر!»

بدا السيد كيفيم في حالة معنوية أفضل في ذلك اليوم، إما لأن حبه للقتيلة قد تحوَّل إلى كراهية، أو لأن تعاطف السيدة هوو المؤثر كان مفيدًا بالنسبة إليه، لكنه كان مُشوَّش الذهن إلى حد كبير.

قال في توتُّر وهو يتناول كعكة صغيرة: «هناك رجل يراقبني في كل مكان.»

ردت بابتسامة باهتة قائلة: «لديَّ شك قوي في أن هناك سيدة تفعل الشيء نفسه معي، لكنني أعتقد أن هذا إجراء روتيني.»

بدا شبه مستاء. ثم قال: «أتقصدين أن لديهم مبررًا للاعتقاد بأنني ربما أكون مذنبًا؟»

قضمت هي الأخرى قطعة من كعكة وأرخت رموشها الطويلة وهي تتحدث قائلة: «لا أقصد أنك مذنب، كلا، لكن، كما تعلم، عليهم التصرف بهذه الطريقة. فكل من تربطه صلة بالمتجر ...»

قاطعها قائلًا: «لكنك ليس لك صلة بالمتجر.»

قالت: «كنت صديقة إيفي.»

ضحك متألمًا. وقال: «لقد كنت ... كنت صديقًا لإيفي أيضًا.»

«وهم يراقبونك، أليس كذلك؟ هذا أمر طبيعي.»

سألها كيفيم إن كان بإمكانه التدخين، وأشعل سيجارة. ثم قال: «ربما كنت سأشعر بالغيرة لو علمت بالأمر.»

قالت: «ألم تعلم، ألم تشكَّ ولو قليلًا؟»

نظر إليها مُحدِّقًا. «كلا، لم أفعل. بالطبع من الغريب أن أقول ذلك.»

قالت الأرملة الضئيلة البنية بجدية: «لا أعتقد أنني كنت صديقةً مُقرَّبةً لها أو لك. انتابني الشكُّ مرة أو مرتين، لكنني لم أقل شيئًا. أتعتقد أنه كان يجب عليَّ التحدث؟»

لم يكن كيفيم ينظر إليها. لو أن ديفينش كان مشاهدًا خفيًّا لهذا المشهد لقال إن السيدة هوو ليست صديقةً للرجل لأنها أرادت أن تكون له شيئًا أكبر من ذلك؛ بل كانت بالفعل شيئًا أكبر في قَرارة نفسها.

قال كيفيم وهو ينفث سحابة من الدخان ويُحدِّق إليها وهي تتصاعد: «أتساءل لو أن هذه هي حقيقتها؛ لم يكن الزواج لينجح. أنا شخص غريب إلى حدٍّ ما.» وأضاف بنبرة اعتراها بعض الغموض: «يبدو مضحكًا أن أخبرك بذلك، لكن فعلتها قتلت حبي لها؛ قتلته بلا هوادة.»

سألته في شرود وهي تمدُّ يدها للإمساك بكوبه لتُعيد مَلْأه: «ماذا؟»

«كنت أعشقها بجنون. من يعرف شعوري الآن — لو أن أحدًا بإمكانه معرفة ذلك حقًّا — كان سيقول إنه لم يكن حبًّا حقيقيًّا. يقولون إن الحب يستمر ويحيا، حتى إن تلقيت صفعةً على وجهك، حتى إن تعرَّضت للخيانة والغدر، لكنني لا أومن بذلك، ولم أومن به أبدًا.»

تمتمَت وهي تراقبه قائلة: «يا إلهي، إنه مجرد اعتقاد. أنا أيضًا لا أومن بذلك. الغالبية العظمى هذه الأيام مسالمون، في الحب والحرب. أعترف أنني أحب الأخذ بالثأر. حتى في المحاكم يسألون إن كان الشاهد لا يهوى الانتقام. ما معنى يهوى الانتقام؟ وكأن الأخذ بالثأر جريمة. لو أن الآخرين يتركوننا وشأننا، لَما كان هناك ما يدفعنا للانتقام.»

بدا بالكاد يستمع إليها. قال: «فعلًا، عندما سمعت بما حدث، وعلمت بما فعلته، اختفت كل مشاعر الحب. لقد نالت ما تستحقه. بالطبع يبدو من البشاعة أن أقول ذلك، لكن هذه هي الحقيقة. لقد نالت ما تستحقه. كنت على استعداد لأن أدعها تفعل بي ما تشاء. وحينها كانت ستحصل على كل ما تتمناه. الآن لا أشعر حتى بالأسف عليها.»

قالت السيدة هوو: «لا توجد امرأة تستحق ذلك. هل تعتقد أنها استطاعت خداع شخص آخر؟»

«تقصدين ماندر؟ لكنها لا يمكن أن تكون جريمة قتل وانتحار. الشرطة موقنة بذلك.»

أصرَّت قائلة: «ربما شخص آخر، شخص لا تعرفه حتى. إنه احتمال قائم. فلا أعرف أي شخص كان سيُقدِم على قتلها.»

هزَّ كتفَيه. ثم قال: «وأنا أيضًا لا أعرف. لكنني أعتقد أن رجال الشرطة مخطئون في ظنهم أن الطائرة الجايروكوبتر لم تهبط على السطح. كيف يعرفون ذلك؟ ما من أحد قد سمع صوت إطلاق نار، لكن هناك رَصاصة أُطلقت ...»

قالت: «أنت تعلم أنه نادرًا ما يعيش أحد بشارع جافيكين. لو كنا لا نزال في تلك الأيام الخوالي حين كنا نعيش في ...»

«أعلم ذلك. والناس هناك يظنون أن أيَّ دويٍّ هو صوت انفجار إطار بمكان ما، لكن وفقًا لكلام كين هناك آثار إطارات على السطح. أخبره المحقق بذلك. كما سُمع صوت تشغيل محرك. من يمكنه الجزم بأن ذلك الرجل الذي يُدعى ويبلي لم يأتِ لزيارته.»

هزت رأسها. وقالت: «إنه شخص غامض، أليس كذلك؟»

«لا أعرف الكثير عنه. يقول كين إنه عبقري في الميكانيكا، رغم أنه جاهل. تعلمين ما كان يفعله ماندر. كان يسرق أفكار الناس. كان سيخذلنا جميعًا فيما بعد، كما أرى الآن.» وأضاف بمرارة: «لقد سرق ما لم يستطع الحصول عليه بلباقة.»

قالت في تحفُّظ: «لكن ماذا عن هذا الرجل المدعو ويبلي؟»

زمَّ كيفيم شفتَيه لحظةً، ثم نظرَ إلى الشاي بكوبه وارتشفَ منه قبل أن يستأنف حديثه. «لم يكن بإمكان ماندر اختراع تلك الطائرة الجايروكوبتر. كثيرًا ما كنت أتعجب لهذا. بعد التحاقي بالعمل معه مباشرة، اصطحبني في جولة بسيارته لمناقشة بعض الأمور. تعطلت بنا السيارة، وأقسم أنه لم يعرف ما الذي يجب فعله. ظل يعبث قليلًا، وبعد ذلك استدعى رجلًا من المرأب.»

عندما توقف قالت السيدة هوو بلهفة: «أكمل حديثك.»

«حسنًا، أقصد أن أقول: أليس من الممكن أن يكون ويبلي هو من اخترعها؟»

«ماذا؟»

«لا غرابة في ذلك. هذا ما أظنه. وحتى كين يعتقد ذلك. لم يكن ويبلي يمتلك المال اللازم لإجراء التجارب. وكان باستطاعة ماندر أن يشتريَه بثمن بخس، ويأمره بألا يفتح

فمه وينبس بكلمة. إنه ليس أول مخترع يُخدع وتُسلب منه براءة اختراعه، ويعجز عن إثبات حقه. وكان ماندر يتأكد من هذا قبل أن يستوليَ على براءات الاختراع.»

قالت رفيقته بخجل: «ومع ذلك ...»

قال كيفيم وكأن شيئًا من اليأس قد اعتراه: «شخص ما ارتكب هذه الجريمة. تعرفين ذلك. قد يُقال إن هناك دافعًا كافيًا في الغَيرة. ألا يتحقق هذا الدافع عندما يخترع شخص ما طائرة شهيرة ثم يأتي أحدهم ليحتال عليه ويستولي عليها؟ أستطيع القول إن هذا الدافع كان موجودًا.»

تمتمت السيدة هوو في تعاطف: «ليتني فكرت في ذلك وأخبرت به المحقق حينما أتى لمقابلتي. سأفعل ذلك إن زارني مرة أخرى. يمكنني القول إن الجهلاء عادة ما يكونون مستهترين. إنهم يستشيطون غضبًا عندما نسيطر على أنفسنا.»

قال كيفيم وهو ينظر إليها خلسة: «هناك سؤال واحد فقط يدور بذهني؛ إيفي. لماذا قتل إيفي؟»

احمرَّ وجه السيدة هوو خجلًا قليلًا. وقالت: «إذا كان الحديث عنها يزعجك، فدعنا لا نتطرق إلى هذا.»

احمرَّ وجهه. وقال: «كلا، لا يزعجني. أخبرتك أنني لم أَعُدْ أكنُّ لها أيَّ مشاعر الآن. لا أكنُّ أيَّ مشاعر على الإطلاق! كل ما هنالك أنني أتساءل. إنني أشعر بالقلق إزاء مراقبتي. أعتقد أن ثمة أبرياء قد قُبض عليهم من قبل. لو أنني فقط أستطيع الوقوف على سبب لقتلها، لارتاح عقلي. لم أتسبب في ضرر لأحد. وهي من زجَّت بي وسط كلِّ هذا.»

قالت السيدة هوو: «أنت؟ عجبًا، أنت لا يمكنك قتلُ ذبابة.»

«بالطبع لم أكن لأقتلها، لكن أظن أنني كنت سأرغب في ذلك لو أنني الشخص الذي دخل الشقة.»

سألت: «أليس من الممكن أن تكون امرأة أخرى؟»

«امرأة أخرى حملتهما للأسفل ووضعتهما بواجهة العرض؟ ولكن ماذا تظنين؟ وإن كان ويبلي هو من فعلها، كما أظن، فماذا كان دافعه لقتلها؟»

أخذت السيدة هوو تفكر في صمت لدقائق معدودة. ثم قالت: «ربما الخوف لأن إيفي قد رأته. أظن أنها كانت في الشقة، أليس كذلك؟»

عضَّ شفته. ثم قال: «نعم. هذا أكيد. تبًّا لك يا ماندر! كان يحصل على أي شيء يرغبه بأي وسيلة ممكنة.»

«وهل هذه الفكرة ستساعدنا؟»

أومأ برأسه. «تبدو فكرة بسيطة، لكنها لم تطرأ بذهني مطلقًا. تقصدين أنه كان لزامًا التخلص من شاهد العيان؟»

أمعنَت النظر إليه. ثم قالت: «هذا ما أظن. لقد حدث ذلك كثيرًا من قبل. أعتقد أن الناس يفكرون أنهم لن يُشنقوا مرتين على جريمتين.»

لوَّح إليها بإيماءة استياء. ثم قال: «لا تتحدثي بهذا الموضوع.»

بدا عليها التعاطف مرة أخرى. وقالت: «لقد خُدعت في إيفي. لم أظن قط أنها يمكن أن تفعل ذلك. تصرُّفها هذا يجعلني أتساءل لماذا وافقت عليك.»

قطَّب كيفيم جبينه. وقال: «هذا السؤال يراودني طَوال الوقت. هل كان ذلك قسوة صارخة منها أم ماذا؟ أتذكر الآن أنها طلبت مني ألا أُخبر ماندر على الفور بخبر خطبتنا. قالت إنها ستخبره لاحقًا. ولم يَبدُ طلبها هذا غريبًا بالنسبة إليَّ حينها.»

زمَّت السيدة هوو شفتيها. قالت: «لا يمكنني تفسير ذلك.»

قال فجأة: «انظري إلى المتجر، ما زال مُغلقًا. ثمة مشكلة ما. مراجع الحسابات والسيد هاي بالأسفل. وهناك شائعة تقول إن ماندر قد ارتكب أخطاءً فادحة وكان ينوي الهروب.»

اندهشت السيدة هوو. «هذا مضحك. أتذكر الآن؛ لا أظن أن الأمر له عَلاقة بذلك ...»

«ماذا تقصدين؟»

قالت بهدوء: «منذ فترة وجيزة سألتني إن كنت أعرف أيَّ شيء عن أمريكا الجنوبية. ظننت أنه مجرد سؤال بدافع الفضول.»

قال كيفيم: «كان ذاهبًا إلى هناك في رحلة عمل. أمريكا الجنوبية! كانا سيهربان إلى هناك.»

قالت السيدة هوو: «لا يمكنني تصديق ذلك.»

قال بصوت عالٍ نوعًا ما: «تلك هي الحقيقة. منذ عام تمكنت من إقناعها بخطبتنا. لم تكن قد التقت بماندر حينها. وبطبيعة الحال كنتُ غايةً في الحماس واللهفة. أردت منها أن ترتب للأمر. أعتقد أنها قبلت فقط لتتمكن من خداعي في النهاية.»

«أتظن حقًّا أنها كانت ستذهب معه إلى أمريكا الجنوبية؟»

بدا مقتنعًا. وقال: «لمَ لا أظن ذلك؟ ولكن لو أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام، وكان هو سيذهب إلى هناك، فأعتقد أنها كانت ستذهب معه. أعتقد أنهما كان يسخران مني فيما بينهما.»

قطَّب جبينه بلامبالاة، ثم مسح جبهته بمنديله. بدأت السيدة هوو تتحدث بهدوء.

قالت: «يجب ألا أشعر بالقلق أكثر مما ينبغي. أنت بعيد عن الشبهات. لقد كنتَ في حديقة ريجنت في تلك الليلة. من المؤسف بالطبع عدم وجود شهود لإثبات ذلك، لكن على أي حال، كيف كنت ستتمكن من الدخول؟ أفكر الآن فيما سيقوله رجال الشرطة لأنفسهم في هذا الشأن.»

أومأ برأسه. ثم قال: «أعتقد أن بإمكان أي شخص إيجاد وسيلة للدخول، لكنني لم أفعل ذلك.»

«كيف؟»

أخذ يفكر. ثم قال: «كان ماندر يعيش في الشقة بمفرده. ماذا سيحدث إن دقَّ أحدهم الجرس؟ عليه إما تجاهله، أو النزول لفتح الباب. لعله قال لنفسه إنه ربما كانت برقية مهمة. وما من أحد يعيش في المباني الواقعة على جانبَي الممر الخلفي حيث نقوم بتحميل البضائع.»

قالت وهي تحدق به في فضول: «لكنه لم يكن ليسمحَ بدخول أي شخص خطير.»

سألها كيفيم: «حسنًا، ماذا كان بوسعه أن يقول لو كنت أنا هذا الشخص؟ من المفترض أنني لست خطرًا. بل لا أمثل أيَّ خطر فيما يتعلق بهذا الأمر. أو إذا كان من يقف على الباب رجلًا خطيرًا، فبإمكانه تهديده.»

أومأت برأسها. ثم قالت: «ماذا ستقول إذا ما أُجري تحقيق معك؟»

«سأخبرهم بما فعلت فقط. ليس خطئي أنني لم أقابل أحدًا.»

اقتربت منه. ثم قالت: «كان من حسن حظك أن ماندر لم يدعُك قط إلى الشقة. أقصد أنه لو كان من المعروف أنك تتردد عليه هناك ...»

«لم أدخلها مطلقًا إلا حين ذهبت مع ذلك المحقق.»

«لماذا يبدو لي أنك تعرف كل شيء عن هذه الشقة؟»

قال في عجالة: «بالفعل أعرف عنها كل شيء إلى حد ما. أخبرني كين ببعض التفاصيل، وسمعت بعض المعلومات عنها أثناء بناء المكان. أؤكد لك أن كل ما أعرفه عنها قد سمعته من الآخرين.»

بدا الارتياح على وجه السيدة هوو. «أتمنى أن تأتيَ لزيارتي متى شعرت بالاكتئاب.»

رد قائلًا: «يسعدني ذلك، إن بقيت في المدينة، لكن لا أحد يعرف ماذا سيحدث لاحقًا. إذا لم تسِر الأمور على نحوٍ جيد، ربما يقومون بإجراء تغيير. أعتقد أن موت ماندر من

شأنه فسخ العقود. لقد أبرمت عقدي معه وليس مع وسيط، وكما تعرفين لم يكن له شركاء.»

«ماذا ستفعل في هذه الحالة؟»

قال: «ربما أسافر إلى الخارج. قبل أن أحصل على عرض ماندر، كنت قد تلقيت عرضًا للعمل في محلات هيلدرد في مدينة بيونس آيرس.»

تمتمت السيدة هوو قائلة: «أتقصد أمريكا الجنوبية أيضًا؟»

نظر إليها بقلق. وقال: «لا تخبري أحدًا بأي شيء عن ذلك. أفهم ما تعنينه. لكن مهلًا، أنا لا أنوي الهرب. عندما أسافر، سيعرف الجميع بذلك.»

وافقته الرأي وقالت بينما همَّ واقفًا: «الأمر مختلف تمامًا بالطبع، لكن لا تنسَ وعدك.»

رد وهو يبتسم ثانية مصافحًا إياها: «لقد ساعدتِني كثيرًا. عليَّ تذكُّر ما قلته بشأن احتمال وجود شاهد عيان. هل يجب أن أخبر ديفينش أيضًا بأنني لم يساورني أي شك مطلقًا إزاء ما كان يحدث؟ بالطبع لن يكون ثمة سبب للغَيرة ما دمت لم أكن أعرف بالأمر.»

شدت على يده بحرارة. وقالت: «بالطبع عليك أن تفعل ذلك. ولكنه شيء سخيف؛ أعني أن تظن أنهم سيشتبهون بك على أي حال.»

أومأ كيفيم برأسه. يبدو أنها قد روَّحت عنه قليلًا. «هذا ما أظنه. إلى اللقاء.»

رافقته السيدة هوو إلى الخارج، ثم عادت وجلست. في البداية، بدت حائرة قليلًا وقلقة بعض الشيء. ثم اختفت كل التعابير عن وجهها، وابتسمت.

الفصل الثاني عشر

وصلت السيدة بيدن-هايث إلى المتجر في عصر اليوم الذي اجتمع فيه ديفينش وميليس لأول مرة. جاء مراجع الحسابات وغادر ثانية، بينما ظل السيد هاي هناك، وتعهَّد أمام الشرطي الموجود عند الباب بمرافقة السيدة، وقادها إلى غرفة السيد ماندر الخاصة.

قال ميليس الذي كان يساعد ديفينش مجددًا في حل لغز السطح: «اجتماع آخر. حريٌّ بي أن أعود لمباشرة مهام عملي، ولكن هذه المهمة مغرية جدًّا أيضًا.»

سأله المحقق وهما يستقلان المِصعد إلى الطابَق السفلي: «في رأيك، ما الذي تريده هذه السيدة هنا يا سيدي؟»

ضحك ميليس وهز كتفَيه. ثم قال: «ربما تكون قلقة بشأن نجلها العزيز، أو كما أشرتَ مؤخرًا، بشأن أموالها. أظن أننا سنخبرها بالمعلومات التي حصلنا عليها اليوم من مكتب الجوازات.»

جلس السيد هاي، وهو رجل فظٌّ ضئيلُ البنية يبدو عليه التوتر، على رأس المائدة، بينما جلس السيد ميليس قُبالته، في حين جلس ديفينش في تواضع في مواجهة السيدة الثرية عبر طاولة السيد ماندر الباهظة الثمن. فترت همة ميليس قليلًا، كما كانت عادته. وانتظر ديفينش ليدير دفة الحديث. وتنحنح السيد هاي بعد أن قلب بصره سريعًا بين وجوه الحاضرين.

ثم أردف قائلًا: «من المؤسف أننا توصَّلنا إلى حقيقة أن السيد ماندر — إحم — كان يضارب في البورصة على نحو صارخ. ثمة مبلغ كبير من المال لا نستطيع تفسير اختفائه.»

انتبه ميليس. وقال: «عرَفنا اليوم أن السيد ماندر استصدر مؤخرًا جوازَي سفر. الأول كان سليمًا تمامًا. أقصد أنه يصرح بكل وضوح بأنه كان مسافرًا في رحلة عمل إلى أمريكا الجنوبية.»

قالت السيدة بيدن-هايث قائلة: «لقد أخبرني بذلك. لقد أوضح لي أن هناك فرصة مربحة لافتتاح متجر آخر هناك.»

قال ميليس وهو يميل بجسده إلى الأمام: «واضح تمامًا، ولكن، كما قلت، لا بأس تمامًا من ذلك. أما جواز السفر الثاني، فقد صدر باسم الآنسة لينكتون، سكرتيرته ...»

قاطعته السيدة بيدن-هايث قائلة: «ولكن السيد سكوفيلد ...»

«قطعًا. السيد سكوفيلد هو سكرتيره الخاص، ولا توجد موظفة هنا باسم الآنسة لينكتون.»

انفعلت السيدة بيدن-هايث قائلة: «ولكن ما كان ليجرؤ قطعًا على القيام بذلك؟»

«حسب علمي أن الأمر لم يكن يتطلب الكثير من الجرأة، وإنما يتطلب قدْرًا من السرعة فحسب. فمكتب جوازات السفر لدينا لا يهتم بنا كثيرًا كمسافرين، رغم أن المرء يُخيَّل له من صيغ جوازات السفر أنه ذو سلطة شبه أبوية. ولا أعتقد أنهم مدركون، مثلًا، أن الآنسة تيومر، التي تعمل وكيلة للمشتريات هنا، قد تسافر باسم الآنسة لينكتون — السكرتيرة.»

تخضب وجه السيدة بيدن-هايث. ثم أردفت تقول: «إذن، أهي تلك الفتاة؟»

أومأ ميليس برأسه. «صورة جواز سفر جيدة حقًّا. بإمكان المرء أن يتعرف عليها منها. يبدو أنه لا يوجد شك كبير في أن السيد ماندر قد خطَّط للاختفاء، مصطحبًا ما يواسيه.»

أومأ السيد هاي. ثم أضاف بأسلوبه الرتيب الذي يتقنه جيدًا: «أظن أننا ربما يكون في مقدورنا تعقُّب الأموال واستعادة أغلبها من حسن حظنا. أتمنى ذلك قطعًا. إنها رياح عصيبة لا تأتي بخير لأحد.»

ظلت السيدة بيدن-هايث تُحدِّق إلى ديفينش على مدى الدقيقة الأخيرة. ثم قالت بشيء من الفظاظة: «ما فتئ هذا المحقق يزعج ابني جيمسون.»

قال ميليس بلُطف: «أنا واثق بأنه يفعل ذلك بأقل قدرٍ مستطاع. أؤكد لكِ أن ديفينش أحد أكثر مساعديَّ احترامًا.»

«ولكن لماذا يفعل هذا من الأساس؟»

ابتسم ميليس. ثم قال: «نحن نُعزِي كلَّ شيء في إطار قضيتنا إلى «المعلومات الواردة». لقد سمعنا أن السيد بيدن-هايث يُكنُّ كراهيةً شديدةً للراحل. لا شيء غريب في ذلك بالطبع. ربما كرهه عشرات غيره. ولكن بناءً على تحقيق متواضع أجريناه، يبدو أن السيد جيمسون بيدن-هايث قد نسي أين ذهب مساء الأحد الماضي. أرجو ألا تعتقدي أننا نولي دلالات أكبر مما ينبغي لتلك الحقيقة؟»

نظرت إلى ديفينش. وقالت له: «أخبرني بأنك زرته في ناديه. وأظن أنه قد قدَّم لك سببًا.»

رد ديفينش قائلًا: «أجل، يا سيدتي.»

صاحت قائلة: «أنا نفسي أودُّ أن أعرف أين ذهب، ولكن فكرة أنه ربما يكون لذلك أي صلة بمقتل السيد ماندر فكرة منافية للمنطق تمامًا.»

وردت أخبار إلى المكان في ذلك اليوم، وأفصح ميليس عن جزء منها بلطف، بينما ظل المحقق ملتزمًا الصمت.

قال: «لقد وردت إلينا أخبار بأن السيد جيمسون بيدن-هايث كان موجودًا في الممر الخلفي لهذا المكان في ليل الأحد. وهذا الأمر ليس ذا أهمية بحدِّ ذاته. ولكن ...» وتحسس جيب صدريته وأخرج علبة ثقاب فضية «الأحرف الأولى المكتوبة عليها هي «جيه بي إتش».»

أخذت العلبة، وزَمَّت شفتَيها. وعقَّبت قائلة: «لم أتعرف عليها. تقول أين وجدتها؟»

«في الممر الضيق، حيث يقومون بتحميل الشاحنات.»

وأضاف المحقق: «ومن هناك يوجد دَرَج يؤدي إلى شقة السيد ماندر.»

حدَّقت إليه بنظرة غاضبة. ثم قالت: «حتى ولو كانت تخص ابني، ربما يكون قد زار المكان، أو فكَّر في زيارته، ليلتقيَ بالسيد ماندر.»

تمتم ميليس قائلًا: «لعله كان يفكر فقط في زيارته. هذا هو انطباعي، ولكنك تلاحظين إلى أين يقودنا هذا الاكتشاف. التحريات الروتينية والعامة بالنسبة إلينا هي أمر معتاد. نادرًا ما نلتفت إليها ما دامت في إطار الروتين. ولكن حالما نصل إلى جزئية خاصة، نُضطر إلى اتخاذ إجراء، بكل أسف.»

كانت تتحلى بالجرأة ولم تَجفِل. وأردفت قائلة: «أنا متأكدة من أن ثمة تفسيرًا لذلك.»

«أنا متأكد من ذلك. ولكن ترين المأزِق الذي نحن فيه. السيد جيمسون بيدن-هايث لا يستطيع أن يتذكر أين ذهب. وآمُل — بما أنك تعرفينه تمام المعرفة، أليس كذلك؟ — أن تتمكني من مساعدتنا.»

نهضت السيدة بيدن-هايث. وقالت: «سألتقي به على الفور. هل ستأتي معي يا سيد هاي؟ أظن أنك تستطيع أن تشرح له الأمر بمزيد من الحزم.»

قال المحامي وهو يهبُّ واقفًا: «بالتأكيد، إذا كنتِ ترغبين في ذلك.»

أعادت السيدة بيدن-هايث العلبة إلى ميليس، الذي وضعها في جيبه. شحب وجهها في تلك اللحظة، ولكنها حاولت الظهور بأفضل حالة ممكنة في هذا الموقف وعدم إظهار أي شيء.

قال ميليس عندما ذهبت: «يا لها من امرأة مِقدامة!»

وافقه ديفينش الرأي. ثم علَّق قائلًا: «عساها تحصل من جيمسون على معلومات أكثر مما حصلت عليها. هذا يوضح لكَ إلى أيِّ مدًى كان يكره ماندر؛ إذ انفعلت على هذا النحو.»

قال ميليس وهو يهمُّ بالرحيل: «أردت أن أعرف إن كانت ستفعل. لم يكن لديها أي مبرر لتورطه في الموضوع، ولكنها فعلت. هل تظن يا ديفينش أنه صعِد بالفعل إلى الشقة في تلك الليلة؟»

رد المحقق قائلًا: «لا أستطيع أن أجزم بذلك. ربما فعل.»

عندما غادر مساعد المفوض، نزل ديفينش إلى القسم الذي يُحتفظ فيه بالأسلحة الرياضية. ولفتَ نظرَه شيء واحد منذ البداية؛ ألا وهو حقيقة أن المسدس الماوزر الذي عُثر عليه بالأسفل كان محشوًا بطلقة واحدة فقط؛ هي تلك الطلقة التي استُخدمت. وقد أوعز له ذلك بأن الفاعل قناص بارع، وواثق جدًّا من تصويبه، ولكن حتى ذلك لا يمكن اعتباره دليل إثبات.

انضم إليه الرقيب ديفيز هناك بعد قليل، ووجده يفتش بكدٍّ بين عُلب ذخيرة الأسلحة الرياضية ويحرص أشد الحرص على إعادة كل شيء كما وجده بالضبط. وأسفل كومة من العُلب الأخرى والحاويات الكارتون، عثر بالصدفة على صندوق صغير مسطح.

قال متهللًا وهو يخرج الخزانة: «هذا يشبهها، يا ديفيز. كما تلاحظ لم يكن هناك مبيعات كثيرة لذخيرة الماوزر؛ لقد تراكم عليها غبار السنين، أليس كذلك؟»

رد الرقيب قائلًا: «ثمة صندوق ناقص من الخراطيش أسفل منها.»

«أوه، رائع! هو كذلك فعلًا. هذه خراطيش عيار ١٢ محشوَّة بطلقات عيار ٦. لقد باعوا دزينتين منها أو نحو ذلك بنظام التجزئة.»

«الخرطوش عيار ١٢ لا يتناسب مع هذا المسدس يا سيدي.»

«هذا صحيح. كما أن السيد ماندر لم يُقتل بطلق ناري صغير الحجم. لقد توصلت إلى اكتشاف على أي حال أيها الرقيب. لو أن الخراطيش بيعت من الصندوق الموجود بالأسفل، كيف أخرجوا هذا الصندوق دون أن ينفضوا الغبار عن ذخيرة المسدس هذه؟»

بدا ديفيز مسرورًا. وأردف قائلًا: «لم أُفكِّر في ذلك من قبل يا سيدي. ولكن من المؤكد أن هذا الصندوق بيع كما يبيعه المصنعون، أي سليمًا؟»

وزن ديفينش حاوية الخرطوش براحة يده، ثم رفعها فوق رأسه، وأشار.

ثم قال: «ثمة مساحة كافية لخروج قذيفة واحدة فقط. أظن أنها ستدوَّن في تقرير الجرد القادم كتوالف جراء النقل. ولكن ذلك الثقب الصغير أحدثه شخص يعرف الطريقة التي تستقر بها القذائف داخل الحاوية.»

قال الرقيب بانبهار: «إذن لا بدَّ أنه من وضع الغبار على الصندوق. يبدو أنه فكَّر في كل شيء.»

«باستثناء حقيقة أن ويبلي لن يعرف طريقه للنزول إلى هنا. قد يكون من المفيد تلفيق دليل واحد مزيف، ولكن من الإفراط تلفيق دليلَين غير متوافقَين. احزم هذا، وأرسله ليفحصه رجالنا.»

كان في متناولَهما كَميات وفيرة من ورق التغليف والأربطة، وبينما كان ديفيز يحزم الحرز بكل حرص، طرح ديفينش سؤالًا.

«هل لديك أي أخبار عن كيفيم؟»

«أجل يا سيدي، لقد ذهب إلى شقة السيدة هوو مرة أخرى. أتساءل إن كانت تلك السيدة تحبه يا سيدي؟»

فكَّر ديفينش في الأمر مليًّا. وقال: «ربما. ما قالته عن صديقتها المتوفاة حين قابلتها كان به بعض الخبث. ولكن لا أرى لها يدًا في هذه الجريمة حتى الآن. ثمة أي معلومات عن الحارس؟»

ربط ديفيز آخر عقدة. ثم قال: «إنه جندي نظامي قديم. تدرب في شبابه لدى أحد الحدادين، والتحق بسلاح المهندسين الملكيين، وانضم إلى سلاح الإشارات عندما اندلعت الحرب. أُصيب عام ١٩١٥، وعاد إلى الوطن، وذهب في وقت لاحق من العام نفسه، ولديه سجل عسكري مشرف. ثمة شيء واحد يبدو ذا أهمية بخصوصه؛ طبيعة الإصابة التي تلقَّاها. لقد أُصيب في الرأس بشظية قنبلة، وعانى من الأرق بسببها. ومن واقع ما أستطيع استنتاجه، لم يكن ليمكث في المستشفى كل هذه المدة التي مكثها بسبب تلك الإصابة فقط.»

أومأ ديفينش. وقال: «فهمت. سيكون من المفيد الحصول على رأي طبيبه المدني. ابحث في هذا الأمر، من فضلك. لا يمكن أن أُصدِّق أن شخصًا دخل وخرج ليل الأحد دون أن يُسمع له صوت. ما لم تكن آثار ما بعد تلك الإصابة تجعله يعاني من النعاس. وقطع وصلة الميكروفون، إذا ما كان هو الفاعل، كان من شأنه أن يكون محاولة لمنحه فرصةً ليغفوَ قليلًا بين نوبات الحراسة.»

«يا له من حارس رائع، لو كان كذلك يا سيدي!»

«تمامًا. ولكن إذا أمكننا مراقبة كل حارس في كل ليلة، أراهن أننا سنكتشف أن نسبةً لا بأس بها منهم يأخذون غفوات قصيرة! لا أرى سوى اعتراض واحد على ذلك. لم يكن القاتل ليجازف بإنزال الجثتين إلى الطابَق السفلي، لو لم يكن يعرف نقطة ضعف الحارس.»

وافقه الرقيب الرأي قائلًا: «أظن أن مان قد صار على «قائمة المشتبه بهم»، وسأُجري تحرياتي. الآن، ما الذي سنفعله حيال تلك الرمال الموجودة في الطابَق العُلوي؟»

فكَّر ديفينش مليًّا. ثم قال: «أظن أننا سنستدعي كيفيم وكين وويبلي إلى هنا غدًا، ونأخذهم إلى السطح. يمكنك أنت والرجال أن تكشفوا الغطاء عن الرمال، لكن اجعل الأمر يبدو وكأنكم بدأتم العمل للتو. إثارة الأعصاب أحيانًا تساعد في كشف الخبايا.»

اتفق ديفيز معه في الرأي بكل حماس. «فكرة جيدة يا سيدي. حسنًا، سآخذ هذا إلى سكوتلانديارد، ثم أواصل التحريات عن الحارس.»

«هل ... لكن تمهل للحظة. هل جاءت أي تقارير عن السيد بيدن-هايث؟»

«لا شيء ذو أهمية. إنه يتجول في المدينة كالمعتاد، وقام بزيارة واحدة. كانت لمنزل السير ويليام ليفورت. ولكنه لم يمكث هناك دقيقة. وخرج من هناك وقد بدا كئيبًا.»

قال المحقق: «وماذا كان هناك في منزل السير ويليام تسبب في هذه الكآبة؟» ثم أردف: «حسنًا يا ديفيز. انصرف!»

ولكن لم يغادر ديفينش القسم عندما غادر الرقيب. فقد أخذ يتأمل الصندوق المكسور الذي يحوي خراطيش الأسلحة الرياضية ويتساءل.

قال في نفسه: «لا أعرف الكثير عن البيع والشراء، ولكن من الغريب بالنسبة إليَّ أن يكسروا صندوقًا به مائة خرطوش، ويبيعوا بعضه، ثم يعيدوا الصندوق أسفل مخزون نادرًا ما يكون عليه طلب.»

أزاح الصندوق بحرص، ورفع الغطاء، وجفل قليلًا حين رأى أن الذخيرة مبعثرة على نحو فوضوي، وليست مرتبة مثلما يعبئها المصنعون. أخذ الصندوق إلى منضدة، وأزاح الخراطيش وتفاجأ بوجود ثلاث شمعات احتراق.

قال وهو يمسك ما اكتشفه بحرص: «لا بد أنه مجرم بالسليقة. ولكن ربما يكون قد ارتكب زلة في مكان ما.»

وأخرج من جيبه منفاخًا، ونفض الغبار عن أسطح شمعات الاحتراق. ثم خرج ليبحث عن رجل كان لا يزال يلتقط صورًا للمبنى بكل نشاط، وأحضره ليلتقط صورًا.

قال عندما انتهى الرجل من العمل: «أخشى ألَّا يكون ذلك مجديًا، ولكن حمض تلك الصور بأسرع ما يمكنك، وسنتأكد بأنفسنا.»

وبعد أن أنجز كل ما بوسعه إنجازه في ذلك القسم، وبينما كان في طريقه إلى المِصعد المؤدي إلى الممر الموجود خارج شقة ماندر، جاءه شرطي ليُبلغه بأن السيد بيدن-هايث يرغب في مقابلته.

قال ديفينش، وهو يشعر بالفخر بنفسه: «أحضره إلى هنا، من فضلك. توقعت زيارته اليوم.»

بدا جيمسون بيدن-هايث أكثر حيوية عن آخر مرة التقى به ديفينش. لم تعلُ وجهَه أمارات انزعاج، وإنما مزيج من الشعور بالاستياء والارتياب المتجهم.

قال دون مراعاة لأي رسميات بعد أن أحضره الشرطي، ثم غادر مرة أخرى: «أخبرني أحدهم أنك حصلت على علبة ثقاب خاصة بي.»

«علبة مكتوب عليها الأحرف الأولى من اسمك يا سيدي على أي حال.»

«وجدتها خلف هذا الصرح اللعين، أليس كذلك؟»

«بالضبط يا سيدي.»

«إذن، لماذا لم تخبرني من قبل بحق الجحيم؟»

«لأنها لم تصبح في حوزتنا إلا في وقت مبكر هذا الصباح.»

حدَّق إليه جيمسون بنظرة ساخطة. ثم قال: «وما رأيك فيها؟»

ابتسم ديفينش. وقال: «إنها تبدو مثيرةً للشكوك يا سيدي.»

«هراء! إنها تعني على أقصى تقدير أنني كنت خلف منزله.»

«أجل، إنها تعني لك على أفضل تقدير يا سيدي. ولكن كما ترى، أنت لا تتذكر أين كنت في ذلك اليوم.»

«حسنًا، كنت في الممر الضيق الخلفي.»

«ذاكرتك تتحسن يا سيدي. من المؤسف أنك لم تَقُل ذلك من قبل.»

«يا لها من ملاحظة سخيفة! أنا لم أقل إنني دخلت إلى هنا. وإنما قلت إنني كنت خلف هذا المكان.»

«هل لي أن أعرف السبب؟»

«أردت أن أتشاجر مع ماندر. إذا أردت أن تعرف.»

«وتتذكر هذا أيضًا؟ ألا يخطر بذهنك أن فُقدان الذاكرة أثناء تحقيق شرطي من شأنه أن يجعلك محل شك نوعًا ما؟»

عضَّ الشاب شفته. ثم قال: «قرعت جرسه اللعين، ولم يأتني رد. لذا غادرت وذهبت إلى النادي.»

«أخشى يا سيدي أن بعد كل هذه التفاصيل لا يمكنني التعويل على كلامك نظرًا لأنك كنت ثملًا للغاية ليل الأحد لدرجة أنك لم تدرك ماذا كنت تفعل.»

جاء الرد مفاجئًا؛ إذ قال: «لم أطلب منك أن تفعل. لا أريد أن تصبح شئوني الخاصة على الألسنة في هذه المدينة اللعينة، هذا كل ما في الأمر.»

«نحن لا نفشي أدلة الشهود، ما لم يكن ذلك ضروريًّا. هل تقصد أن تقول إنك كنت في مكان ما في تلك الليلة لا ترغب أن يعرفه أحد؟»

«أجل، هو كذلك.»

«أين؟»

«لدى السير ويليام ليفورت.»

«وما الغرض؟»

احمرَّ وجه بيدن-هايث ثم بدا عليه الخجل. قال مترددًا: «آه ... حسنًا، أنا وابنة السير ويليام ...» ثم توقف.

«هل من المفترض أن أصدق هذا، يا سيدي؟ كبير الخدم قال إنك لم تكن هناك.»

«من شأنه أن يفعل. لقد أمرته بذلك. الحقيقة هي أن الأمر لا يروق السير ويليام بعض الشيء.»

كان ثمة شيء من الخجل غير المصطنع والتنافر والارتباك يشوب سلوك الشاب جعل ديفينش يبتسم رغمًا عنه.

قال: «لنصعد إلى الشقة يا سيدي، بحيث يمكنك أن تجلس في هدوء وتخبرني بالأمر.»

بمجرد أن دخلا الشقة، واستكن جيمسون في كرسي مريح، شرع في الحديث. تحدث بأسلوبه المتقطع المعهود، وكثيرًا ما كان يكرر الشيء نفسه، بكلمات متقطعة أكثر، ولكن ما أراد أن يخبر ديفينش به حقًّا هو أنه قد وقع في حب الآنسة ليفورت، وأنه يظن أن ثمة شعورًا نحوه من جانبها أيضًا. وفي وقت سابق من هذا العام، التقى بأصدقاء قدامى في فندق جودوود وكان «ثملًا»، وتصادف أن قابل السير ويليام وابنته هناك.

منعه السير ويليام من دخول منزله، وحتى الفتاة بدت مترددة بخصوص الاستمرار في هذه العَلاقة بعد تلك الواقعة. ونظرًا لأنه كان «متيمًا بها ببساطة»، لم يفقد الأمل. وفي يوم الأحد الذي وافق يوم وفاة ماندر، انطلق إلى المدينة، عندما كان ذلك «النذل الصخاب»

يزور بارستون كورت. عرف أن السير ويليام كان خارج المدينة، فذهب إلى منزله في المساء، وقيل له إن الآنسة ليفورت خرجت لحضور عرض خاص للوحات وستعود على العشاء. وصرح لكبير الخدم بنيته انتظارها حتى عودتها، بل أعلن أنه سيبقى سواء وافق كبير الخدم أو اعترض. وما ساعده في الأمر أنه عرض على الرجل خمسة جنيهات، مع وعدٍ بأنه إذا أسفرت الزيارة عن أي متاعب لاحقة له، فسيقول إنه رفض أن يرحل.

ولكن لم تعد الآنسة ليفورت على العشاء، وشكَّ في أن كبير الخدم يعرف مكانها؛ ولذا اتصل بها هاتفيًّا وأخبرها باسم الزائر.

وإذا كان باقي القصة حقيقيًّا، فقد أثبتت أنه يُكِنُّ عاطفةً بلهاء لفتاة قررت بالفعل أنها من المستحيل أن تتخذه زوجًا لها بسبب سلوكياته. كما أنها أثبتت أنه كان حتمًا ثملًا عندما زار المنزل. فحتى أكثر العشاق ولهًا لن يمكث وهو في كامل قواه العقلية في بيت شخص آخر، ويظل هناك لما بعد الساعة العاشرة على أمل أن تلتقيَ به الفتاة على غير رغبتها. لقد نجحت الجنيهات الخمسة في رَشوِ كبير الخدم ليلتزم الصمت بخصوص الزيارة، ولكن لا شك أن الشاب صار أكثر اتزانًا عندما غادر المنزل عما كان حين دخله.

سأله ديفينش قائلًا: «لقد غادرت المنزل في حالة مزاجية سيئة جدًّا. إلى أين ذهبت بعد ذلك؟»

تجهَّم جيمسون. ثم ردَّ قائلًا: «وأنا أسألك! ألن يجعلك ذلك تستشيط غضبًا؟»

«ربما يا سيدي. ولكن إلى أين ذهبت؟»

«ذهبت؟ أردت أن أنال من أحدهم، وكان ماندر الشخص الوحيد الذي أعرفه وكنت أريد أن أنال منه بشدة. فذهبت إليه، وقرعت جرس شقته اللعين. كان الظلام في ذلك الممر الضيق حالكًا كظلمة القبور، وفقدت علبة ثقابي البغيضة أثناء محاولة تلمُّس طريقي إلى الباب.»

«هل استمررت في قرع الجرس؟»

«قطعًا فعلت.»

نظر إليه ديفينش متأملًا. ثم تساءل: «بما أن ذاكرتك للتفاصيل يبدو أنها تحسنت، فلعل بإمكانك أن تخبرني متى حدث هذا؟»

أومأ جيمسون برأسه. «أستطيع أن أقول إن الساعة كانت الحادية عشرة تقريبًا.»

«ولم ترَ أحدًا، أو تسمع أحدًا؟»

«ولا مخلوقًا واحدًا.»

استأذن ديفينش وذهب ليتصل بمنزل السير ويليام ليفورت. رد كبير الخدم، واستفسر عن هُويَّة المتصل.

ردَّ الطرَف الآخر بجِدَّة: «المحقق ديفينش من مكتب سكوتلانديارد. لماذا لم تخبرني بأن السيد بيدن-هايث جاء مساء يوم الأحد؟»

ساد صمت قصير عند الطرَف الآخر من المكالمة، ثم تمتم صوت خافت يوضح صاحبه أنه لم يُرِد إثارةَ مشاكل؛ نظرًا لأنه رأى أن السيد لم يكن في حالته الطبيعية.

سأله ديفينش: «كم مكث من الوقت؟»

رد كبير الخدم: «لم أستطع صرفه من المكان يا سيدي. لم يكن السير ويليام موجودًا في المنزل، كما أخبرتك، والآنسة آنيتا كانت بالخارج، وكنت في موقف حرج إلى حد ما. وفي الساعة العاشرة، يا سيدي، اتصلت الآنسة آنيتا. وقالت لي أن أخبر السيد المحترم أنها سافرت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وعاود الزيارة مجددًا منذ ذلك الحين يا سيدي.»

شكره ديفينش، ووضع السماعة. تأكد حينها من أن قصة الشاب تحمل قدرًا من الحقيقة، رغم أنه ربما كان هناك وقت متاح له لقتل ماندر بين مغادرة منزل السير ويليام ووصوله إلى النادي.

قال وهو يَهُمُّ بالجلوس مرة أخرى: «حسنًا يا سيدي، إذا كنت قد تعرَّضت لأي مشكلة، فالخطأ خطؤك.»

رد جيمسون قائلًا: «أنا لا ألومك، ولكني أقول إن مهمتك بغيضة. لا يروقني أبدًا أن أقضيَ حياتي في التلصص على الآخرين!»

هزَّ ديفينش كتفَيه في استخفاف. وأردف يقول: «القتل مسألة بشعة للغاية. نحن لا نستهين في التعامل مع هذه المسألة في سكوتلانديارد، مثلما يفعل بعض الناس.»

سأله جيمسون بنبرة ارتياح: «إذن، فالأصفاد لا تنتظرني؟»

أجاب ديفينش: «ليس في الوقت الحالي يا سيدي، ولكن يجدر بي أن أنصحك بالتخلص من مسدسك ذاك يا سيدي.»

كانت هذه محض خُدعة، ولكنها أتت بثمارها. فقد جفل جيمسون.

رد في عجالة قائلًا: «إنه المسدس الذي كنت أستخدمه في الحرب البائدة. هل تعتقد أن من الأفضل أن أبيعه؟»

«من الأفضل كثيرًا يا سيدي. الآن، لديَّ مهامٌّ كثيرة لأُنجِزها، ولذا سأتمنى لك يومًا سعيدًا. يمكنك أن تستقلَّ المِصعد لتنصرف.»

عندما انصرف بيدن-هايث، صعِد ديفينش إلى السطح، وتبادل أطراف الحديث مع الرجل الذي كان يتولى نوبة العمل هناك.

قبل أن يغادر مكتب سكوتلانديارد، رتَّب لمقابلة الطبيب الشرعي — الذي فحص الجثتين لأول مرة — على سطح الشقة. كان لا يزال يتحدث مع ضابط التحريات حين وصل الطبيب الشرعي وحيَّاه.

«حسنًا، أيها المحقق، ماذا هنالك؟»

سار ديفينش عبر السطح. ثم قال: «لقد سمعتَ أننا نشكُّ في أن ماندر أُردي قتيلًا هنا، وسقط على تلك الكومة من الرمال، ومِن ثَمَّ وفَّر للقاتل وسيلةً مؤقتة للتستر. يبدو هذا منطقيًّا تمامًا حتى الآن، ولكن ما يؤرقني حقًّا هو مقتل تلك الفتاة، وبالأخص كيفية إصابتها بذلك الجرح. هل في رأيك أنه استلزم عنفًا بالغًا؟»

أشعل الطبيب سيجارةً بينما أخذ يفكر في الأمر مليًّا. ثم أجاب بعد فترة صمت طويلة قائلًا: «لا أستطيع أن أجزم بذلك. فالنصل كان طويلًا وحادًّا.»

«هل خطر لك احتمال حدوث أي صراع بينها وبين القاتل؟»

«بدا لي أنها تعرضت لقدرٍ من الإكراه. كانت هناك كدمات، غير بالغة الشدة أو الخطورة، أعلى الذراعين كلتيهما. وقد أعطتني انطباعًا بأن أحدهم أحكم قبضته عليها.»

«هل كان يقف أمامها أم خلفها؟»

«خلفها. هذا أمر مؤكد تمامًا. العلامات تُظهر ذلك.»

«إذا أراد أحد أن يقتلها، فلماذا يطعنها في أسفل الظهر؟»

«لا أعرف. لعلها كانت مسألة مصادفة ما لم يكن القاتل يعرف مهمته جيدًا. تلك العلامات الموجودة على كلتا الذراعين توحي بأن شخصًا يدفع آخر أمامه، ويحرص على أن يسلكا الطريق الذي أراده.»

قال ديفينش: «هل تمانع في أن تجرب هذا على رجلنا هذا؟» ثم أشار إلى ضابط التحريات ليأتي إليه. ووجَّه حديثه إلى الضابط: «سيشبك الطبيب ذراعيك من الخلف.»

أمسك الطبيب بالرجل من أعلى الذراعين ودفعه أمامه. وقال له: «امشِ بخُطًى سريعة، يا صديقي! أين تريدنا أن نتوقف يا ديفينش؟»

أجابه المحقق قائلًا: «حسنًا يا سيدي، إذا سمحت فسأخبرك بما أوحت لي به وجهة نظرك. ربما أمسك القاتل بالفتاة بالأسفل ودفعها لتصعد درجات السلم أمامها ومنه إلى هذا السطح.»

«هذا رأيي.»

قال ديفينش بمزيد من التمهُّل: «أو، بما أن علينا أن نفترض أنها جاءت إلى هنا بمحض إرادتها، وأنها كانت مع حبيبها، فربما تكون قد استُخدمت كدرع واقية.»

جفل الطبيب. وأردف يقول: «تبدو فكرة رائعة، يا صديقي العزيز. ولكن إذا طعنت درعك البشرية، فإنك ستفقد ما كنت تحتمي به! كيف تتغلب على تلك الإشكالية؟»

أومأ ديفينش برأسه، وذهب ليلقيَ نظرةً من فوق الحاجز. وقف هناك يُحدِّق إلى الفراغ دقيقتين، ثم عاد وقد بدا أكثر سعادة من ذي قبل.

«حسنًا، سنقوم بإعادة تمثيل الجريمة، إذا لم تمانع أيها الطبيب. من الأفضل أن يمثل صديقنا هنا دَور ماندر؛ إذ إنه يستطيع أن يتحمل السقوط على نحوٍ أفضل منك.» ابتسم ضابط التحريات ابتسامة واسعة إثر سماع ذلك، بينما ضحك الطبيب، ثم أردف ديفينش: «وأنت ستمثل دَور الفتاة. ليس لديك اعتراض، أليس كذلك؟»

«إطلاقًا، إذا كان هذا سيساعدنا.»

«عظيم. عليك أن تحمل قلمًا أو أي شيء ليقوم بدور السكين؛ أجل، هذا سيفي بالغرض. يجب أن يقف جونز هنا. إنه يمثل دَور ماندر. وسيكون علينا أن نستعين بالجانب الآخر من الرمال لتمثيل واقعة السقوط. الآن، أنا أقوم بدَور القاتل. ومعي سلاح آلي. سأستخدم كشَّافي اليدوي باعتباره السلاح. صعِد ماندر بصحبة الفتاة إلى هذا السطح كملاذ لهما. ثم أصعد أنا بعدهما. يرتعد ماندر من المواجهة. وسواء أكان يُعوِّل على شهامة المتسلل، أو كان في شدة الفزع، فلا يعنيه من يعاني ما دام سيهرب.»

«بدأت أستوعب دَوري يا ديفينش.»

«على أي حال، بمجرد أن وصل إلى هنا، أمسك بالفتاة من ذراعَيها، وصدَّرها كهدف للمعتدي.»

«ولكن لم يُطلق عليها النار.»

هزَّ ديفينش رأسه في نفاد صبر. «أعرف ذلك. لنقل إن ماندر بحوزته سكين أو خنجر. ليس بمقدوره أن يُحكِم قبضتَه على الفتاة وهو يمسك بذلك السلاح بيده. فدسَّه في جيبه بصفة مؤقتة. وبينما كان يعود بظهره إلى الحاجز الرملي، تحاول الفتاة التملُّص لتحرر نفسها، فيستل السكين مرة أخرى. دعونا نمثل هذا.»

على الفور وقف ضابط التحريات وراء الطبيب، ووضع القلم الذي يمسكه في جيبه، وأمسك بالرجل الواقف أمامه من أعلى ذراعَيه، ورجع بظهره خطوات نحو الرمال، بينما كان ديفينش يتقدم ممسكًا بالكشَّاف وكأنه سلاح.

قال المحقق: «الآن، حاول أن تتملص للهروب يا سيدي.»

حاول الطبيب أن يتملص ليحرر نفسه، ثم توقَّف. وأردف قائلًا: «الإرشادات المسرحية من فضلك؟»

قال المحقق: «المكان مظلم هنا. تقدَّم مسافة ياردة، وستجدني أتقدم نحوك هكذا» ثم تقدم بخطوة واسعة بينما كان الطبيب يقترب. ثم أردف يقول: «الآن، اقفز بسرعة إلى الوراء، واجعل ذلك السكين جاهزًا للدفاع عن نفسك، يا جونز! الآن بصفتك ماندر، تمسك بالسكين بيدك. تتعثر وتسقط فوق الرمال. ثم يسقط فوقك الطبيب، الذي يمثل دور الفتاة، ويطعنك من غير قصد.»

قال ديفينش عندما قام الاثنان الآخران ونفضا الرمال عن نفسيهما بعد إعادة تمثيل الجريمة: «من الجائز أن الجريمة وقعَت بهذا الشكل؛ المعضلة الوحيدة أمامنا هي الصراخ. لا بد أنهم أحدثوا ضجيجًا صاخبًا، ولكن يبدو أن أحدًا لم يسمعهم.»

رد الطبيب قائلًا: «هذا المكان ليس سكنيًّا والبعض لا يسمعون الصرخات عندما ينامون. بالإضافة إلى أن المكان مرتفع. أجزم بأن هذا مُحتمَل حدوثه.»

عقَّب المحقق قائلًا: «لدينا بعد ذلك صوت المحرك. إذا نزل جونز إلى الشقة، وأصدرنا صوت صرير، يمكنه أن يخبرنا كيف يبدو الصوت من أسفل. ويمكنه أن يطلب أيضًا من رئيس خدم ماندر أن يسمع الصوت من مسكن الخدم. ولكن الأشخاص الذين يُرهفون السمع لصوت ما يسمعونه بحدة مضاعفة عن أولئك الذين لا ينصتون إلى أي أصوات ويكونون نائمين حين صدورها.»

أومأ ديفينش. فنزل جونز إلى أسفل، وأجروا التجربة. وبعد عشر دقائق صعِد جونز مرة أخرى.

قال: «لم يكن الصوت عاليًا جدًّا بالنسبة إليَّ، ولم أستطع أيضًا تحديدَ اتجاه الصوت يا سيدي. سمع كبير الخدم صوتًا خافتًا، ولكنه يقول إنه كان يظنه صرير مكابح.»

قال ديفينش: «حسنًا، نظرية لا بدَّ أن أحاول التفكير فيها. ربما تكون قد اصطدمت بظهرها في السكين، أو أن ماندر سقط وبيده السكين متجهًا لأعلى. هل من الممكن أن يتسبب ثقلها في الجرح؟»

رد الطبيب قائلًا: «هذا ممكن.»

الفصل الثالث عشر

عندما وصل الحارس الليلي في الساعة العاشرة، وجد المحقق الذي لا يكلُّ ولا يملُّ في انتظاره، وأعرب عن دهشته بعض الشيء.

قال ديفينش بلطف: «كنت فقط أتساءل عما إذا كانت مشكلة النوم ما زالت تؤرقك. كما تلاحظ، سيكون من المحرج بالنسبة إليك إذا عرفنا أنك كنت يقِظًا طَوال الليل، ومع ذلك تُصرُّ على أنك لم ترَ شيئًا.»

شحب الرجل قليلًا. ثم قال: «ولكني لم أرَ شيئًا بالفعل يا سيدي.»

«إذن، لا بد أنك كنت نائمًا، هذا كلُّ ما في الأمر.»

عضَّ الحارس شفته. وتساءل قائلًا: «ما الذي تقصده بنومي على أيِّ حال يا سيدي؟»

«سمعت أنكَ أُصبتَ في رأسك أثناء الحرب، وخطر لي أن هذه الإصابة ربما خلَّفت عواقب غير مندوبة. ولكن بالطبع إن لم يكن الأمر كذلك، فلن أُضطر إلى استجوابك أكثر من ذلك بشأن تلك النقطة. ولكن سأسألك بضعة أسئلة أكثر إزعاجًا من ذلك.»

«هل حديثي معك محاط بالسرية يا سيدي؟ ربما يكون الأمر خطيرًا بالنسبة إليَّ.»

«أتمنى أن تدرك ذلك. ولا يسعني إلا أن أقول لك إنني أنصحك بقول الحقيقة. نحن حريصون في سكوتلانديارد على تسهيل الأمور بقدر الإمكان لمن يقولون ما يعرفونه بدون أي رتوش. في حين نتعامل بطريقة أخرى مع من يجملون الحقائق.»

«حسنًا، أنت محق يا سيدي.»

«أتمنى أن أكون كذلك. هيَّا تفضَّل. أخبرني ما مشكلتك.»

لعق الرجل شفتَيه الجافتين. وأردف قائلًا: «أنا لا أنام جيدًا يا سيدي، ولا أستطيع النوم مطلقًا أثناء النهار. ولا يسعني فعل أي شيء حيال ذلك، رغم ما بذلته من محاولات مضنية. فالمرء لا يستطيع أن يعيش والنوم يجافي عينَيه يا سيدي.»

قال ديفينش: «كقاعدة عامة لا يستطيع فعلًا. ولكن من الوقاحة بعض الشيء أن تُعين هنا كحارس ليلي برغم علمك بما تعانيه. هل تقصد أن تقول إنك تعجز عن النوم أثناء ساعات الراحة من العمل، فتأتي إلى العمل لتنام هنا حيث ينبغي لك ألَّا تفعل؟»

«أخشى أن أقول إن الأمر كذلك يا سيدي. أنا لا أريد أن أنام، ولكن يغلبني النعاس، ولا أستطيع مقاومته، عندما أجلس في مقصورتي بين جولات الحراسة.»

«فهمت. ولكن السيد ماندر حرَص على أن يوفر لك وسائل تساعدك على البقاء يقظًا.»

تلوَّن وجه الرجل. ثم قال: «أجل، أظن أنه فعل يا سيدي.»

«أنت تعلم أنه فعل. ولم تُكلِّف نفسك عناء إدراك أن الجهاز لا يمكنه أن يلحق أي ضرر. ولكن ربما تكون قد أغلقت مفتاح التشغيل بدلًا من قطع سلك التوصيل، أليس كذلك؟»

لم يلاحظ الحارس الفخ الذي يتضمنه السؤال. وأجاب قائلًا: «أظن أنني شعرت بالفزع ونسيت أن أفتحه مرة أخرى، يا سيدي، ورآه أحدهم؟»

«أوه، بالضبط. إذن، لقد قطعت السلك بالفعل؟ حسنًا، لا شيء يضاهي تحري الصدق عندما تكون مضطرًّا لذلك. بربك! من الأحمق الذي رشَّح واحدًا من أهل الكهف ليتولى وظيفة حارس ليلي؟»

لاحظ نظرة دهشة في عينَي الرجل، ثم ذلك التعبير الغريب الذي يوحي بأن الرجل يحاول التفكير في إبداء بعض المراوغة.

«لقد التقيت بالسيد ماندر يا سيدي، وحصلت على الوظيفة. فلديَّ سجل عسكري مشرف.»

شعر ديفينش من ذلك التعبير الذي تسلَّل إلى وجه الرجل أنه لا يقول الحقيقة. «هل أنت متأكد من أن رئيس هذا المشروع التجاري الكبير يعيِّن جميع العاملين بنفسه؟ بربك! هل هذا محتمل؟ أريدك أن تخبرني بما حدث بالضبط، وأنت تعرف أن لديَّ وسائلي لكشف الحقائق.»

«انتظر لحظة يا سيدي. أتقصد من الذي رشحني للوظيفة؟»

أدرك المحقق أنه من الحكمة دومًا أن يُترك للمرء اختيار مهربه بنفسه ما دام سيحصل في النهاية على المعلومات المطلوبة.

«أجل، من الذي رشَّحك للوظيفة؟»

«السيدة بيدن-هايث يا سيدي.»

نظر إليه ديفينش هُنيهة نظرةَ تأمُّل. لماذا كان عليه أن يَحمِل الرجل على الاعتراف بذلك؟ هل كان هناك أيُّ شيء وراء ذلك؟ وبعد فترة صمت ثقيلة استأنف حديثه مرة أخرى.

سأله: «هل كان هناك سبب محدد جعلها ترشحك للوظيفة؟»

«حسنًا، لقد جاء الترشيح من خلال السيد بيدن-هايث يا سيدي. لم يكُن يُكِنُّ أيَّ مودة للسيد ماندر على الإطلاق، ولكنه أخبر والدته، وهي ساعدتني يا سيدي.»

«فهمت. ولكن من أين لك بآراء السيد بيدن-هايث الخاصة بشأن القتيل؟ يبدو لي هذا أمرًا غريبًا.»

تململ الحارس في وقفته. وأردف قائلًا: «حسنًا، يا سيدي، لقد كنت مرساله في الحرب، إذا كان لا بد أن تعرف، ولم أتمنَّ العمل لدى ضابط أفضل منه مطلقًا.»

كظم ديفينش دهشته، وبدت عليه نظرة متجهمة. ثم قال: «نحن في طريقنا إلى الحقيقة الآن. ولكن من المؤكد أن الحرب انتهت قبل عدة سنوات، أليس كذلك؟ وكراهية السيد بيدن-هايث للسيد ماندر وليدة أشهر قلائل حسبما أظن.»

«بل أطول من ذلك يا سيدي. فقد كان السيد ماندر موظفًا إداريًّا لدى هؤلاء المحامين الريفيين.»

«لنفترض جدلًا أنها امتدت لعام أو عامين أو حتى ثلاثة. لقد كان ذلك بعد الحرب بفترة طويلة. هل ظللت على اتصال بالسيد بيدن-هايث؟»

أومأ الحارس برأسه. ثم قال: «كان معتادًا على إرسال خمسة جنيهات لي كل عيد ميلاد يا سيدي، ولكن لم يكن ثمة ضرر من ذلك، رغم أن عليَّ أن أردَّ الجميل إذا كان هناك ما في وُسعي أن أقدِّمه.»

«ماذا تقصد بذلك؟»

«هو من أنقذني بعد أن فُجِّر المبنى يا سيدي، وكاد أن يفقد حياته جرَّاء ذلك.»

كان ديفينش يحاول سبر أغوار الرجل ومعرفة ما يخفيه من خبايا. فقال متسائلًا: «ثم؟»

«حسنًا يا سيدي، كنت مستقرًّا في عمل حتى تُوفي مخدومي، وتخلى ابنه عني. فكرت في السيد بيدن-هايث، وكتبت إليه. وذكرني لدى السيدة، كما أخبرتك، وحصلت على الوظيفة.»

زمَّ ديفينش شفتيه. وعلَّق قائلًا: «إذن هل كنت تلتقي بالسيد بيدن-هايث بصفة شخصية منذ أن حصلت على الوظيفة؟»

«أجل يا سيدي، زرته لأشكره، وذهبت إليه في ناديه بضع مرات لأخبره بأحوالي. لقد طلب مني القيام بذلك يا سيدي.»

بدا المحقق أكثر جِدية من ذي قبل، وأثارت نظرته المحدقة توتر الحارس أكثر من ذي قبل.

قال: «حسنًا، اسمع! ربما كان بإمكانك أن تخبرني بكل هذا من قبل، وعجزك عن أن تكون صريحًا معي لا يؤثر فيَّ كثيرًا ولا يدفعني للوقوف في صفك. رأيت أنه من المريح أن تتجاهل بعض التفاصيل المهمة إلى حدٍّ ما. فكيف تتوقع مني أن أُصدِّق أنك تقول الحقيقة الآن؟»

«أنا أقولها يا سيدي. حقًّا أقولها.»

«ولنفترض أنك تقول الحقيقة فعلًا، فكيف لي أن أعرف أنك ستُجيب بصدق عن السؤال التالي الذي سأطرحه؟ الحِنث باليمين أمرٌ جِدُّ عظيم، وقد تُضطر لاحقًا لأداء اليمين.»

رد الآخر بنبرة يائسة: «سأخبرك بالحقيقة يا سيدي، أيًّا ما كانت.»

«جيد جدًّا. هل رأيت السيد بيدن-هايث داخل هذا المتجر مساء الأحد الماضي، في أي مكان داخل المتجر، أو داخل المصاعد؟»

«كلا يا سيدي. لم أرَه مطلقًا. وسأقسم على ذلك. ماذا عساه يفعل هنا؟»

«نحن نعلم أنه قرع الجرس الخارجي لشقة السيد ماندر في تلك الليلة. فكِّر ثانيةً! هل رأيته أم لم ترَه؟»

بدا على ملامح الحارس إما الدهشة أو الخوف. كان من الصعب تحديد أي الحالتين كان عليها. فصاح بحدة قائلًا: «لم أرَه يا سيدي. أقسم إنني لم أرَه! لم يكن السيد بيدن-هايث ليقتل أحدًا. إنه رجلٌ صالح رغم إفراطه في تناول الخمر. يا إلهي، قريبًا سأجد نفسي متهمًا بالقتل.»

«لا أحد يتهمه بالقتل»، كان هذا رد ديفينش الذي رأى أن جيمسون الثمل لا بدَّ أن لديه خصالًا طيبة مستترة وراء تصنعه تلك العجرفة السافرة كي يبثَّ مثل هذا الإخلاص في نفس جندي المراسلة الذي كان يعمل لديه، إلا أنه أدرك أيضًا أن القاتل ربما يبدو ملاكًا في أعين من يحبهم. وأردف قائلًا: «أهذه إجابة عن تروٍّ وتفكيرٍ؟»

«هي كذلك يا سيدي. لا يسعني قول أي شيء آخر.»

أذِن له ديفينش بالانصراف، وغادر، وعاد إلى المنزل. وبحلول الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كان في منزل الطبيب، الذي باشر الحالة الطبية للحارس، وطرح بعض الأسئلة على الطبيب الذي كان في منتصف العمر.

سأله، بعد أن أوضح قضيته، قائلًا: «هل من الممكن أن يتسبب الجرح الذي أصاب رأسه في مثل هذه الأعراض التي وصفها لي؟»

أجابه الطبيب قائلًا: «الأرق وارد. ولكن عددًا قليلًا جدًّا من مرضاي ممن يعانون من تلك الشكوى يشتكون من النعاس الشديد في المساء.»

«ولكن إذا كان الشخص حارسًا ليليًّا ...»

قاطعه الطبيب قائلًا: «لم يَعُد كذلك منذ فترة طويلة جدًّا. فالعادات تترسخ بقوة بمجرد أن تتشكل، وقد اعتاد الجنس البشري لقرون النوم ليلًا. فنحن نصير مرهقين مع حلول الليل تلقائيًّا، ويُعزى ذلك جزئيًّا إلى أننا نعمل أثناء النهار؛ وأؤكد لك أن الجزء الآخر من السبب هو أن الطبيعة والعادة يجعلاننا نَعدُّ الليل لا شعوريًّا هو وقت النوم.»

أومأ ديفينش. وقال: «فهمت وجهة نظرك.»

«إذن، لستُ مضطرًّا إلى الاستفاضة في توضيح الأمر أيها المحقق. وربما تصحح عادة النوم بالنهار والاستيقاظ في المساء هذه النزعة؛ ولكن إذا صار الشخص حارسًا ليليًّا مؤخرًا فحسب، أظن أن العادة الموروثة ستجعل شعوره بالأرق كشعور الشخص الطبيعي. بعبارة أخرى، إذا كان لا يستطيع أن ينام؛ فلن يستطيع النوم في الليل. ونظرًا لأن الأرق شكوى عصبية بصفة عامة، فسيكون أكثر عرضة للنوم أثناء النهار أيضًا؛ نظرًا لأن عقله الباطن لا يَعدُّ فترة النهار هي فترة اليقظة.»

كان ديفينش مهتمًّا بهذه النظرية، ولكنه كان عليه أن يواصل مُهمَّته. فقال: «أظن أنك محق يا سيدي، ولكن أودُّ أن أعرف الآن إن كان الرجل قد اشتكى إليك من الأرق؟»

هزَّ الطبيب رأسه نافيًا. وقال: «كلا.»

«ولكنه كان يتردد عليك من وقت لآخر؟»

«مرتين تقريبًا. وفي كلتا المرتين، كان يعاني مما يشتكي منه معظم مرضاي، ألا وهو عسر الهضم. وبالنسبة إلى الطبقات العاملة، يبدو عسر الهضم وكأنه سرطان أو مرض قلبي أو أي شيء آخر سوى ما هو عليه.»

قال ديفينش متأملًا: «أتعجب من ذلك.»

قال الطبيب بينما كان المحقق ينهض من مكانه: «ولكن انتظر لحظة. لن أقسم بأن الرجل لم يعانِ من الأرق. يجب أن تتذكر أن رجالًا مثله يعتبرون طبقتنا عصبة واحدة،

ومن المرجح أن نُفضي بالسر بعضنا إلى بعض. ونظرًا لعلمي بأنه يعمل حارسًا، فربما كان يخشى أن يوخزني ضميري، ويقودني لإفشاء سره إلى رب عمله.»

قال ديفينش: «سأضع هذا في اعتباري»، وشكره على المعلومات، وانطلق لمقابلة السيدة مان، زوجة الحارس. وجدها امرأة نحيفة ولكنها نشيطة بدت تجسيدًا لروح الاحترام. كانت ترتدي ملابس أنيقة جدًّا في ذلك الوقت من الصباح بالنسبة إلى طبقتها، وكان مسكنها مفروشًا بأثاث مريح. وبدت أنها وزوجها، في بعض الأوجه، ينعمان بسبل الراحة التي لا تتناسب مطلقًا مع أجر حارس ليلي بسيط.

قال ديفينش: «حسنًا يا سيدة مان، لقد التقيت بزوجك، وهو يشتكي من أنه يعاني من الأرق؛ أقصد عدم النوم. من المهم بالنسبة إلى سير القضية التي أعمل عليها إثبات أن مان كان مستيقظًا ومنتبهًا في تلك الليلة.»

قالت السيدة مان بجدية: «لولا ما يحصل عليه من النوم أثناء النهار، ما استطاع أن يواصل العمل يا سيدي. صدقًا ما كان يستطيع ذلك! لقد قُذفوا بالقنابل ليلًا، واعتاد أن يقلقني قبل أن يحصل على هذه الوظيفة؛ إذ كان يجلس على الكرسي بينما كنت أرقد في الفراش، أو يذرع الغرفة ذَهابًا وإيابًا. كان يعاني من أرق شديد جدًّا، وهذه هي الحقيقة.»

عرَف ديفينش ما أراد أن يعرفه، ولكنه كان حريصًا على ألا تخبر السيدة زوجها بما قالته بالضبط.

وافقها الرأي قائلًا: «شيء فظيع، ولكن أظن أن بيئة العمل الجديدة ربما تساعده على النوم ليلًا. أظن أنه يشعر بالنعاس. إن تغيير الأجواء يساعدنا جميعًا كما تعرفين.»

عندما غادر، كان فرحًا جدًّا بالحقائق الجديدة التي اكتشفها، على الرغم من أنها كانت تعارض حكمه على شخصية الرجل المعني. فعبارة كاذبة في قضية قتل لا تثبت أن الكاذب هو القاتل؛ ولا حتى تثبت أنه يتستَّر على القاتل.

ولكنها أثبتت شيئًا واحدًا تمامًا؛ ألا وهو أن مان لم ينَمْ ليلًا، وإنما حصل على قِسط ممتع من النوم بالنهار، رغم أنه أنكر ذلك. فمن يعاني من الأرق يكون محظوظًا إذا نام لمدة ثلاث ساعات أو أربع في الأربع والعشرين ساعة. وإذا نام هذه الساعات بالنهار، فمن المرجح أن تزداد يقظته ليلًا.

قال ديفينش في نفسه: «الاستنتاج هو أنه كان يقظًا تمامًا، وأنه رأى أو سمع شيئًا، ولكنه يخشى البوح بذلك. وإن لم يكن متورطًا في جريمة القتل بنفسه، فالاستنتاج أنه رأى شخصًا ما في المتجر مدانًا بها، أو صار الآن يشكُّ في إدانته. والرجل الذي ربما تواجد هنا والذي يُكِنُّ له الولاء والإخلاص هو السيد جيمسون بيدن-هايث!»

الفصل الرابع عشر

جلس الرقيب ديفيز يستمع إلى ما كان لدى المحقق بخصوص اكتشافاته الأخيرة. وعندما انتهى المحقق من حديثه، رفع حاجبَيه في دهشة، وعلَّق بأن الأمر يبدو مريبًا.

ردَّ ديفينش قائلًا: «رغم أنها قد تكون مجرد معلومات مضللة، فالحقيقة هي أنني أرى أنه لا بد من وجود عَلاقة ما بين بيدن-هايث ومان بخلاف الجنيهات الخمسة التي يرسلها في أعياد الميلاد. من شأن الضابط السابق أن يرسل هذه الأموال تخليدًا لذكرى الأيام الخوالي، ومن الطبيعي أن يزوره الجندي السابق ليشكره على تعيينه في الوظيفة. ولكن لماذا ينبغي عليه أن يزور بيدن-هايث عدة مرات في ناديه ليخبره بأحواله؟ ما الذي لديه ليخبره به؟»

كان الرقيب مراقبًا متمرسًا، ورجلًا بارزًا في رتبته. علَّق قائلًا: «أظن يا سيدي أنه بالنظر إلى أن السيد بيدن-هايث كانت تساوره الشكوك بأن ماندر سيحتال على أمه، فهل من الممكن أن يكون قد أرسل مان ليكون جاسوسًا عليه؟»

أجابه ديفينش قائلًا: «هذا ما كنت أتساءل عنه. لقد رأيت مسكن مان يبدو مريحًا للغاية، وساورتني الشكوك بخصوص حصوله على إعانات مالية. ولكن حتى هذا الأمر يكتنفه لغز. ما الذي يعرفه حارس ليلي عن الأمور المالية، حتى إن جاءته الفرصة ليسمع شيئًا عنها؟ وما الفرصة التي من شأنها أن تسنح له في المساء، على أي حال؟»

«لا توجد أي فرصة على الإطلاق يا سيدي. يمكنك أن تقول إن محاسبًا متمرسًا، يمكنه أن يتواجد في المساء ويمكنه أن يصل إلى خزائن المكتب ودفاتره، سيكون قادرًا على إجراء تفتيش. ولكن حينئذٍ لم يكن السيد ماندر ليُضيف مدخلات زائفة في السجلات الرسمية. سمعت أن لديه مجموعةً خاصة في شقته بالطابَق العُلوي.»

«بالفعل. هذا ليس محلَّ نقاشنا. فلدينا هنا رجل ينال قسطًا من النوم بالنهار، لا بالليل، ولكنه يقول إنه لا يمكنه النوم بالنهار ولكنه ينام بالليل حينما يتعيَّن عليه ألَّا يفعل. هل استجوبت الحراس الموجودين في الأجزاء الأخرى من المبنى؟»

«فعلت يا سيدي. يوجد ثلاثة رجال إجمالًا، وفيهم مان، وقد استجوبت الاثنين الآخرين. كما تعرف، يُقسَّم هذا المبنى إلى ثلاثة أجزاء ليلًا لمزيد من السلامة، مزودة فيما بينها بأبواب مقاوِمة للحرائق. إذا تمكَّن أي شخص من فتح الأبواب واندلع حريق، فلا فائدة من وجودها بالأساس. ولكن الوضع الحالي هو أن هذه الفواصل تُغلَق تلقائيًّا عندما يُغلق المتجر، ولا يستطيع الحراس حتى أن يتواصلوا فيما بينهم.»

«أعرف ذلك. حسنًا، ما تفسير مراوغة مان، ما لم يكن بيدن-هايث قد زرعه هنا لغرض ما؟ إذا ساءت الأمور أكثر من ذلك، يجب عليَّ أن أخيف الرجل قليلًا. يمكنني أن أجد فرضية تُفسِّر هذا الأمر؛ بيد أن الأدلة الموجودة لدينا، حتى الآن، تحول دون إثباتها.»

«هل لي أن أعرف يا سيدي ما التفسير في رأيك؟»

«أجل، سأخبرك. كان لديَّ في البداية انطباع بأن السيدة بيدن-هايث ربما تكون واقعة في حب ماندر، أو كانت واقعة في حبه. فمن الأسهل أن تبتز سيدة في منتصف العمر حال وجود عاطفة من جانبها تجاهك بالإضافة إلى مجرد الأمل في تحقيق أرباح. من حين لآخر تأتينا قضايا لنساء يُخدَعن بهذه الطريقة. ومن ناحية أخرى، أعطتني السيدة بيدن-هايث انطباعًا بأنها حريصة جدًّا على المال ولا تهتم بما سواه.»

ضيَّق ديفيز عينَيه. وقال: «لنفترض يا سيدي أنها كانت تحب الرجل بالفعل ونستبعد ما دون ذلك، كيف يكون ذلك ممكنًا؟»

ردَّ ديفينش قائلًا: «الأمر سهل نوعًا ما. إذا كان جيمسون، الابن، يشك بأن أمه تدعم رجلًا يكرهه ويعتبره نصابًا، من الناحية المالية، بل واقعة في حبه أيضًا ومن المرجح أن تجعل من نفسها أضحوكة بسببه، سيرغب بطبيعة الحال في قطع أواصر هذه العلاقة.»

«هذا صحيح يا سيدي. لم يكن ليرضى أن يصير ماندر زوجًا لأمه.»

«أجل. حسنًا، ربما كانت الشكوك تساوره أيضًا أو كانت لديه معلومات تُفيد بأن خصمه يتسم بالتحرر بعض الشيء. أحيانًا تبالغ السيدات المُسنَّات في عواطفهن، بيد أنهن دومًا يُفرطن في شعورهن بالغَيرة عندما يقعن في الحب، لعلمهن بأنهن في موقف تنافسي عصيب أمام الفتيات الشابات. ماذا لو افترضنا أن جيمسون بيدن-هايث قد وضع مان هنا ليُطلِعه على أيِّ شيء يحدث في الشقة بالدَّور العلوي؟ فلم يكن ماندر يمنع العاملين

بالمنزل من دخول الجزء الخاص به من الشقة إلا في المساء، وفي المساء أيضًا زارته الآنسة تيومر، وربما لم تكن أولى زوَّاره!»

ابتسم ديفيز. وقال: «هذا يفسر يا سيدي صعوبة سماع أو معرفة أي شخص خارج الشقة بما يدور داخلها. سيكون لغزًا يصعب حله!»

وافقه ديفينش الرأي. وأردف يقول: «أجل، ولكننا نعرف الآن أن الرجال الذين خدموا بسلاح المهندسين الملكيين عادةً ما يكونون حرفيين مهَرة. لا أقول إنه كان قادرًا على ذلك، أو إنه فعله حقًّا، ولكن لنفترض أن مان صعِد خفيةً ذات ليلة وطبع المفاتيح الأصلية لتقليدها أو اكتشف سر القفل. وإذا كان لديه نسخة من المفتاح، فلربما يكون قد دخل وتجسس.»

أومأ ديفيز برأسه. وقال: «أجل، يمكنه ذلك يا سيدي. وربما يكون السيد بيدن-هايث قد أخبره بأن ماندر يُخطط لعملية نصب.»

قال ديفينش مومئًا برأسه: «ثمة شيء واحد يجعلني على يقين إلى حد كبير أن هذه العَلاقة التي كانت بين ماندر والسيدة بيدن-هايث كانت تنطوي على ما هو أكثر من المال. لقد قيل لي إن الابن شخص ذو طبيعة متعجرفة. وكرمه مع مان هنا لا يؤثر على تلك النقطة؛ لأن رجلًا من تلك النوعية يميل بطبيعته لأن يكون لطيفًا مع أولئك الذين لا يطالبون بالمساواة ولا يستطيعون المطالبة بذلك من الأساس. ولكنه كره ماندر لسلوكه وشخصيته، وهذا يجعلني أظن أن جزءًا من السبب يعود إلى الخوف من أن أمه — التي تبوَّأت بالفعل مكانةً معينة إثر زواجها من أبيه — كانت ستحط من شأن العائلة بزواجها من هذا «الوغد الصخَّاب»، كما يطلق عليه.»

وافقه ديفيز الرأي. وقال: «ثمة شيء لا أستطيع أن أفهمه بخصوص مان. يبدو أنه رجل ذو سلوك قويم وأمين، ولكنه كان يتلقى راتبًا على وظيفة لم يكن يؤديها.»

ابتسم ديفينش. وعلَّق قائلًا: «ولكن من الذي كان يدفع راتبه؟ لقد كان بالطبع خادم ماندر اسمًا، ويلتزم تجاهه بواجبات. ولكننا نعرف الآن أن السيدة بيدن-هايث هي الشخص الحقيقي وراء هذا المتجر، وتلك هي الطريقة التي سينظر بها ابنها جيمسون إلى الموقف. بإمكاني تخيله وهو يخبر الحارس بأنه لا يتعين عليه أن يخشى وخز الضمير. فلو حدثت مشكلة أثناء تجسسه، فإن الخسارة ستقع على كاهل السيدة بيدن-هايث، ومِن ثَم ستقع المسئولية على كاهله.»

«أتقصد السيد جيمسون؟»

«بالطبع. وهذا صحيح. فمن يدفع الرواتب يفترض أن له الكلمة العليا، حتى إن كان هناك رئيس صوري.»

«ولكن إذا وقعت سرقة، فستُضطر شركات التأمين إلى دفع تعويض يا سيدي.»

«بالطبع، ولكن هل تظن أن شخصًا مثل جيمسون سيُفكِّر في ذلك؟ لا أظن أن الأمر قد خطر بباله من الأساس.»

ساد الصمت بضع لحظات. وأخذ كلا الرجلين يفكران، ولم يكن تركيز أي منهما الآن على الشاب. كان ديفيز أول من بادر بالحديث.

«أين معطف الفتاة وقبعتها وقفازها يا سيدي؟»

هزَّ ديفينش كتفيه. ثم قال: «منذ أن فُتحت القضية وأنا أفكر في ذلك. ليس لديَّ أدنى فكرة. ولو أن لديَّ فكرة، لانتابني شعور بأنني على الطريق نحو الوصول إلى لُبِّ هذه القضية. ولكن بما أنك أثرت الموضوع، فما رأيك أن نبحث عنهم؟»

«أين يا سيدي؟»

«في هذا المتجر بالطبع. ولكن سيكون علينا أن نتصل بالسيد كيفيم لنرى شكل المِعطَف والقبعة اللذين كانت ترتديهما الفتاة.»

استطاع ديفيز الاتصال بالسيد كيفيم، وناول السماعة إلى المحقق. طرح ديفينش سؤالين، ثم استمع بكل جِديَّة لدقيقة. ثم قال: «شكرًا لك يا سيدي أنا ممتن جدًّا لك»، ثم أغلق الخط.

قال لمساعده وقد تهللت أساريره: «يا لحظنا يا ديفيز. يقول كيفيم إنها كانت ترتدي مِعطفًا جديدًا أنيقًا من الصوف الإنجليزي، ووصفه لي. كانت قد اشترته من هنا في ... ولكن انتظر لحظة. هل ذلك القسم موجود في هذا الجزء من المتجر؟»

«أظن ذلك يا سيدي. رأيت واحدًا يبيع معاطف نسائية صوفية.»

«حسنًا، كانت هذه هي المرة الأولى التي ترتديه فيها يا ديفيز، وكانت ترتدي قبعة جديدة مناسبة له، اشترتها من هنا أيضًا.»

قال ديفيز مندهشًا: «أظن يا سيدي أنه إذا كانت القبعة والمعطف قد تُركا هنا بعد وقوع الجريمة، فلا بد أن نجدهما بالتأكيد، أليس كذلك؟»

«أجل، إذا بحثنا في المكان الصحيح. ولكن انتظر لحظة. لقد حصلت في اليوم الأول على قائمة بأسماء وعناوين رؤساء الأقسام المختلفة.»

«موجودة في دفتر ملاحظاتي.»

«حسنًا. ابحث عن اسم رئيس القسم الذي يبيع هذه المعاطف الصوفية، وكذلك رئيس قسم القبعات. انظر إن كنت تستطيع الاتصال بهما هاتفيًّا، واطلب منهما أن يأتيا إلى هنا. وإذا لم يجيبا عن الهاتف، فاستقل سيارة أجرة وأحضرهما على الفور.»

جلس وأشعل سيجارة، وأخذ ينفث دخان سيجارته بشراهة وحماس، بينما رفع رقيبه سماعة الهاتف. وبعد مرور خمس دقائق، كانت المهمة قد أُنجزت. وكان الموظفان اللذان أرسل في طلبهما في طريقهما إلى المتجر.

طُلب من رجل الشرطة الواقف على الباب الرئيسي أن يقتادهما عند وصولهما إلى قسم المعاطف الصوفية، وبعد مرور عشرين دقيقة دخلت سيدة أنيقة في منتصف العمر، وعرَّفت نفسها بأنها الآنسة جاي.

سألها ديفينش بعد أن أجلسها قائلًا: «هذا قِسمك يا آنسة جاي، أليس كذلك؟»

«أجل.»

«هل تتذكرين أن الآنسة تيومر اشترت مِعطفًا صوفيًّا من هذا القسم، أم ليس لديك عِلم بذلك؟»

أومأت الآنسة جاي. ثم أضافت بنبرة رقيقة: «ربما لم أكن لأعرف لو أنها كانت عميلة عادية؛ ولكن الآنسة تيومر جاءتني، وذهبت معها بينما كانت تختار المعطف؛ فقد كان بإمكاني أن أخبرها أيها أفضل قيمة.»

قال مبتسمًا: «لا شك في ذلك. هل المعاطف الموجودة في قسمك هي منتجات حصرية، أم يمكن أن أصفها بأنها ذات نمط موحد؟»

ابتسمت هي أيضًا. وقالت: «لقد دفعت مقابلًا له اثنَي عشر جنيهًا، ومعطف بهذا السعر وبهذه الخامة الصوفية لن يكون منتجًا حصريًّا. انتظر لحظة، أظن أن لديَّ ستة معاطف منه، أم أربعة فقط؟ يمكنني أن أستوضح الأمر.»

رافقها ديفينش إلى مكتبها وكان عبارة عن غرفة صغيرة ذات جدران خشبية، وراجعت بعض الدفاتر، ثم رفعت رأسها.

«نصف دزينة. لحظة من فضلك حتى أراجع العدد الذي بعناه.»

ولكن مرت عشر دقائق كاملة قبل أن تتمكن من البت في الأمر، ثم أعلنت أن عدد المعاطف الذي بيع كان ثلاثة، وفيها المعطف الذي اشترته الآنسة تيومر.

«وما التاريخ الذي بيعت فيه آخر قطعة؟»

«هل هذا يهم؟»

«قد يهم. لعل بإمكان مساعدتك تقوم بإحصائها أو تتبين تاريخ البيع، أليس كذلك؟»

بدا الارتباك على الآنسة جاي من ملاحظته. وأجابته: «كانت القطعة التي اشترتها الآنسة تيومر هي الأخيرة. حدث هذا في يوم الجمعة. أما القطعة الثانية فقد بيعت يوم الخميس.»

«هل هذه المعاطف معروضة على حوامل العرض في القسم؟»

«ليست المعاطف محل التحقيق. إنها موجودة على شماعات مُعلَّقة على قضيب بداخل خزانة خشبية مقسمة. هل تودُّ أن تراها؟»

رد ديفينش قائلًا: «هذا تحديدًا ما أودُّ أن أراه.»

أومأت الآنسة جاي وقادته عبر القسم إلى حيث يوجد صف طويل من الخزانات، مغطاة بألواح من الخشب، لتشكل جزءًا مساحته سبع أقدام. كانت الأبواب المبطنة بالخشب عبارة عن أبواب منزلقة، دفعت أحدها إلى الخلف ثم أعادته مرة أخرى.

«تلك معاطف صوف الناربيت. معذرة. ها هي.»

أزاحت أحد الألواح الخشبية إلى الوراء أكثر، وكشفت عن صفٍّ من معاطف مغلفة بإحكام.

وشرعت تقول: «هذه معاطف الصوف الإنجليزي بتلك الدرجة من الألوان»، ثم حدقت وشهقت.

تساءل وهو يراقبها عن كثَب: «أيها؟»

صاحت في حماس قائلة: «تلك — تلك الأربعة!»

كتم ديفيز صيحةَ انتشاءٍ وبهجة. بينما ابتسم ديفينش ابتسامةَ انتصارٍ خفيفة.

«هل أنتِ متأكدة من ذلك، يا آنسة جاي؟»

ازدردت لُعابها وقالت: «قطعًا. انظر! سأخرجها لك.»

قال ديفينش: «فتلضعيها على تلك المنضدة هناك.»

أخذت المعاطف الأربعة إلى المنضدة ووضعتها متباعدة على مسافات قصيرة.

قال المحقق: «حسنًا، يا آنسة جاي. أتمنى أن يكون بوسعك تمييز واحد عن الآخر، أم أن في هذا مشقة كبيرة بالنسبة إليكِ؟»

بدت مندهشة إلى حدٍّ ما من هذا الطلب. فعقَّبت قائلة: «بالطبع أستطيع. هذا أمر سهل جدًّا. إذا كان هناك واحد يخص الآنسة تيومر، فلم تكن سترتديه وعليه بطاقته.»

التفت ديفينش إلى ديفيز. وقال: «خطأ ساذَج يُحسب على أحدنا يا ديفيز! بالطبع أنت محقة يا آنسة جاي. حسنًا، أيها يخصها؟»

كانت أصابعها ترتعش بينما كانت تفحص المعاطف تباعًا. وعندما التقطت المعطف الثالث في الصف، أفلتته مرة أخرى كما لو أنه أحرق أصابعها. من الواضح أن شعورًا ما قد انتابها تجاه لمس أيِّ شيء يخصُّ امرأة مقتولة، ربما يتعلق بخرافة ما.

«ها هو! يا إلهي! يا لها من فكرة خبيثة أن يوضع هنا.»

قال: «إنها فكرة جيدة جدًّا، من منظور أحدهم. ربما يكون قد بيع لشخص آخر، إذا كانت المساعدة في عجالة من أمرها أو تتسم بالإهمال، وهكذا يكون قد تُخلِّص من الدليل ... مرحبًا أيها الشرطي، ما الخطب؟»

«الآنسة دورين تودُّ مقابلتك يا سيدي.»

ظهر شرطي للتو، يصطحب معه سيدة نحيفة وسمراء في العَقد الخامس من عمرها تقريبًا. وقالت الآنسة جاي للمحقق إن هذه زميلتها من قسم القبعات النسائية.

أوضح لها ديفينش ما تم اكتشافه، وعضَّت الوافدة الجديدة شفتها.

وقالت في حذر: «أرى ذلك ذكاءً شديدًا من جانبك، وبإمكاني أن أخبرك بأمر تلك القبعة في الحال. لقد كانت نموذجًا استثنائيًّا في حد ذاته، رغم أن المرء ربما لا يرى فيها شيئًا يتعدى مجرد قطعة قش وشريطة. ربما تكون موجودة هنا الآن، إذا كانت قد أعيدت مثلما حدث مع هذا المعطف؛ فأنا متأكدة من أننا كنَّا جميعًا في غاية الانفعال والضيق صباح يوم الإثنين الماضي من فحص البضائع. وبالطبع لم يُسمح لنا بأن نمسَّ أي شيء، بمجرد أن تولى رجالك المسئولية.»

ابتسم ديفينش. كانت هذه نوعية المساعدين التي تروقه. أردف قائلًا: «حسنًا! ديفيز، خذ هذه المعاطف الأربعة إلى الشقة بالطابَق العلوي واحتفظ بها هناك. هيَّا يا آنسة دورين، سنرى إن كانت القبعة موجودة حيث نود أن تكون.»

قالت أثناء تحركهم، وبصحبتها الآنسة جاي: «لا أظن أنني أودُّ أن تكون موجودة في قسمي.»

ومرة أخرى توصلوا إلى اكتشاف آخر. القبعة التي كانت ترتديها الآنسة تيومر وُضعت في المكان الذي أُخذت منه. فوضعها ديفينش في صندوق للقبعات، وصادرها، وأذن للسيدتين بالانصراف بعد أن شكرهما على مساعدتهما. ثم أرسل في طلب خبير بصمات لرفع البصمات من الأبواب المنزلقة، وتصويرها إذا وجدت. وأخيرًا، استقل المصعد إلى أعلى، حاملًا القبعة في صندوقها، وانضم إلى الرقيب ديفيز الذي كان يتفحَّص المعاطف الأربعة.

قال الأخير مُبديًا إعجابه: «لقد أصبت الهدف يا سيدي. هذا يوضح أن الفاعل من داخل المكان، وإلا فكيف تمكَّن السيد بيدن-هايث من معرفة أي شيء عن هذه الأقسام؟»

ضحك ديفينش. وقال: «ولكن لماذا يحاول أحدهم أن يُزيِّف عملية هبوط الطائرة، في محاولة ظاهرية لتوريط ويبلي؟ حتى ويبلي نفسه من شأنه ألا يعرف الكثير عن دواخل هذا المتجر مثله مثل بيدن-هايث؛ نظرًا لأن الأخير، كما يعرف جميعنا الآن، ربما يكون قد زار هذا المتجر عدة مرات مع والدته.»

«هذا صحيح يا سيدي. ولكن إذا كانت الآنسة تيومر قد قُتلت فوق السطح، فلماذا يتكبد الجاني مشقة إنزال القبعة والمعطف إلى هنا؟»

أجابه ديفينش قائلًا: «ما لم يكن ماندر هو من قتلها، وهو ما يبدو أمرًا مستبعدًا حسبما تبدو الأمور في الوقت الحالي يا ديفيز. بالمناسبة، ما زال قفاز اليد اليسرى مفقودًا!»

الفصل الخامس عشر

بعدما فحص ديفينش القبعة والمعطف جيدًا، غلَّفهما وأرسلهما إلى سكوتلانديارد. بعد ذلك نظر إلى ديفيز.

«من الواضح أنها كانت تشعر هنا وكأنها في منزلها تمامًا. لقد وصلت، وخلعت مِعطفها وقبعتها لتشعر بالارتياح، ثم قُتلت فيما بعد، إما على السطح أو في المصعد. ترى أيهما قُتل أين؟ ولو أن أحدهما قُتل بالمصعد، فهل هو السيد ماندر، أم الآنسة تيومر؟»

«وهل قُتل أحدهما بالمصعد يا سيدي؟ لو أن السيد ماندر هو من قُتل به، فأين أثر الرصاصة؟ لقد وجدناها في الرمال، عندما أمرتنا بأن نبحث هناك، لذا فلا بد أنك فكَّرت ...»

«تراودني الكثير من الأفكار يا صديقي العزيز؛ لأن ذلك يشعرني بالارتياح. وأخشى أنه سيطرأ بذهني المزيد والمزيد أيضًا. الاكتشاف الذي توصلت له اليوم يزعجني. هذا المصعد، على سبيل المثال، يستحق اهتمامنا.»

تركا الجزء الخاص بماندر من الشقة، وأغلقاه مرة ثانية. كانت السجادة ذات الوبر الكثيف لا تزال بمكانها على أرضية المصعد، فرفعها ديفينش بحذَر وفحص بُقَع الدم الموجودة تحتها.

وبينما كان الرقيب يُعلِّق على كلامه، تمتم قائلًا: «يقول الطبيب إنه كان نزيفًا داخليًّا إلى حد كبير. ربما كانت البقعة الصغيرة الموجودة في مِصعد البضائع، حيث عُثر على الخنجر، مصدرها الخنجر نفسه. ولم يكن هناك ما يكفي من الدماء للإيعاز بأن شخصًا ما قد طُعن هنا بالفعل.»

«لا يا سيدي، لم يكن هناك.»

«لكن هنا، بافتراض أن ما قاله الطبيب صحيح، كان يوجد الكثير من الدماء.»

«لكنه لم يكن كثيرًا بما يكفي بحيث تمتصه هذه السجادة يا سيدي.»

«وعلى أي حال، أيعقل أن يرفع القاتل السجادة ويطلب من ضحيته الوقوف داخل المصعد بينما يطلق عليه الرصاص، أو يطلب ذلك من الفتاة بينما يطعنها، ثم يعيد السجادة مكانها ثانية؟»

«بالطبع لا يا سيدي.»

«من أين يأتون بهذه السجادة؟»

«يمكنني أن أسأل يا سيدي.»

«فورًا. ولكن في هذه الأثناء، هلا تحضر لي هنا كل قطع السجاد الموجودة بجميع المصاعد؟»

شعر ديفيز بالدهشة، لكنه مضى في أداء المهمة. وعندما عاد ومعه أول ثلاث قطع من السجاد، وجد ديفينش يتحدث هاتفيًّا مع المسئول عن قسم السجاد، ويطلب منه المجيء.

وأخيرًا، أُحضرت مجموعة السجاجيد الموجودة بمصاعد هذا الجزء من المتجر ووُضعت على أرضية أحد الأروقة.

سأل ديفينش وهو يتأمل الصف الطويل بشعورٍ بالغ من الرضا: «أتلاحظ أي شيء فيها يا ديفيز؟ عندما تنظر لمجموعة من الأشياء كل على حدة، تبدو متشابهة إلى حد كبير من حيث الحالة إذا كانت جميعها جديدة تمامًا.»

«نعم يا سيدي، لكنني أرى ما تقصده الآن.»

«أتقصد أن هناك فارقًا ضئيلًا؟»

«نعم إنها جميعًا نظيفة للغاية، لكن سجادة المصعد الذي فحصناه للتو تبدو أكثر نظافة من البقية؛ بل إنها تبدو جديدة يا سيدي.»

قال ديفينش: «علينا الانتظار حتى يأتيَ رئيس قسم السجاد. سنعرف منه إن كان لديهم نسخ متطابقة منها.»

مرَّ ما يقرب من نصف ساعة قبل وصول رئيس قسم السجاد، ولكن عندما أتى، وافقهم الرأي على الفور في أن السجادة التي يشيرون إليها تبدو جديدة تمامًا. وعندما قلبها على الجانب الآخر، أسقطها من يده.

ثم أضاف قائلًا: «لكن هذا مستحيل. بالتأكيد هذه هي السجادة التي ...؟»

قاطعه ديفينش قائلًا: «نعم، لكن الجانب السفلي كان ملطخًا بالدماء من أرضية المصعد، وهذا لا يعني شيئًا.»

زمَّ المدير شفتَيه. ثم قال: «لو أنها لم تكن هناك، لقلت بالتأكيد إنها ليست السجادة التي كانت موجودة عند افتتاح المتجر.»

«ألديك نسخ متطابقة من هذه القطع، لاستبدالها عندما تبلى؟»

«لا، لا توجد نسخ مطابقة. لكن قد تكون هناك قطعة مختلفة في هذه المجموعة أُرسلت كعينة عند اختيار قطع السجاد.»

«دعنا نتحقق من ذلك.»

تحرك المدير كما لو كان سيتجه إلى قسمه، ثم توقَّف فجأة وحكَّ رأسه. «انتظر لحظة؛ دعني أتذكر. يا إلهي. لقد اختار السيد ماندر تلك القطعة. لقد كانت له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بمعظم التجهيزات والسجاد. كان دقيقًا جدًّا في التفاصيل الصغيرة.»

«أتقصد أن العينة أُرسلت له؟»

«نعم.»

«إذن أين ذهبت؟»

«لا أعلم. ربما تكون في شقته.»

قال ديفينش: «سنذهب إلى هناك الآن، وسأكون سعيدًا إذا رافقتنا.»

لكن هذه المرة عندما دخلوا الشقة، دق ديفينش الجرس مستدعيًا كبيرَ الخدم، بعدما فتح مزلاج الباب المشترك. حضر كبير الخدم، وسأل عما يمكنه القيام به لأجلهم.

كان المحقق قد أحضر معه السجادة من أسفل. سأله وهو يرفعها له: «أتذكر هذه؟»

حدَّق إليها الرجل ثم أومأ برأسه. «إنها سجادة ... سجادة غرفة البلياردو الخاصة بالسيد ماندر يا سيدي. كان يضع عليها حامل عصي البلياردو.»

حدق رئيس قسم السجاد. ثم قال: «لا، هذه السجادة من أحد المصاعد بالأسفل.»

وقبل أن يُنهيَ كلامه، اتجه ديفينش إلى غرفة البلياردو، وتبعه الآخرون على عجل.

«لا توجد سجادة أسفل حامل عصي البلياردو.»

كان كبير الخدم آخرَ من دخلَ، وحين وصل قطَّب حاجبَيه. ثم قال: «كانت هناك يا سيدي.»

قال ديفينش: «من الأفضل أن نبحث في الشقة بأكملها لنرى إن كان هناك واحدة مثلها.»

قال ديفيز: «لا يوجد مثلها. لقد فتشت الشقة بأكملها، ولم أعثر على واحدة تشبهها. لو أن هناك واحدة مثلها هنا، كنت سألاحظها، بما أنها تشبه قطع السجاد الموجودة في المصعد.»

علَّق ديفينش وهو يغمز خلسةً للرقيب قائلًا: «حسنًا، الأمر ليس بالمهم.» ثم أضاف محدثًا رئيس قسم السجاد: «لست بحاجة إلى تعطيلك أكثر من هذا يا سيدي»، وأومأ أيضًا لكبير الخدم المترقب لينصرف.

عندما غادر كلاهما، أخذ هو وديفيز يحدقان أحدهما بالآخر في صمت.

كسر ديفينش حاجز الصمت أولًا. «لقد صرنا نعلم الآن يا ديفيز أن أحدهما قُتل بذلك المصعد. لا بد أن القاتل أزال السجادة التالفة، وصعد إلى هنا وأخذ سجادة غرفة البلياردو.»

«إذن لا بد أنه شخص على دراية جيدة بمعالم الشقة، وعلى دراية بأن السجادة التي كانت هنا هي نسخة طبق الأصل من السجاد الموجود بالمصاعد بالأسفل.»

«بالتأكيد، هذا ما يبدو عليه الأمر. لكن من منهما قُتل هنا؟ هل من الممكن أن يكون هناك قاتلان من منطلق أن لدينا قتيلَين؟ أثمة احتمال أن يكون هناك شخصان تعاونا معًا لارتكاب جريمتَي القتل، أم عمِل كلُّ واحدٍ منهما على حدة؟ وأخيرًا، هل من المحتمل أن تكون إحدى الجريمتين وقعت أولًا، وجاءت الأخرى على سبيل القِصاص؟»

«ماذا تقصد يا سيدي؟»

«أقصد هل قُتلت الآنسة تيومر، ثم أُطلق النار على من قتلها انتقامًا لها؟»

«أتقصد السيد كيفيم؟»

«لا يمكننا الجزمُ بذلك. لا أرى سببًا يدفع السيد ماندر لقتل الفتاة، لكن بالطبع لا يمكنني تجاهل هذا الاحتمال.»

«وإذا كان السيد كيفيم هو من قتل ماندر، فربما شعر بمرارة شديدة بعدما اكتشف أمرهما، ما دفعه لاتخاذ قرار بعرض جثتيهما بواجهة المتجر.»

«بالضبط. حسنًا، اسمعني يا ديفيز، أريدك أن تذهب إلى جيلوفر وتتأكد من أن ويبلي لم يكن بمقدوره إخراج الطائرة الجايروكوبتر دون أن يسمعه أحد. كما تعرف، إنها من النوع الذي يمكن طيُّه ودفعه في مرأب كبير. وضَيْعة جيلوفر ليست مكانًا مأهولًا بالسكان، ولا يمكننا الجزم بأن الطائرة لم يتم إخراجها من المرأب ودفعها لمسافة ما، حيث لا يمكن سماع صوت المحرك من الضيعة. وهذا من شأنه أن يفسر أيضًا الآثار الموحلة. إحدى النقاط التي أثارها ويبلي هي أن أرضية الإقلاع كانت مفروشة بمادة صُلبة. لكنه إذا أخذ الطائرة إلى أحد الحقول وقام بتشغيلها هناك، فسيكون الأمر مختلفًا.»

عندما ذهب ديفيز، جلس ديفينش وأخرج مفكرته وقلمه.

حدَّث نفسه قائلًا: «سأسجل التوقيت الذي ذكر المشتبه بهم أنهم تواجدوا خلاله بالخارج ليل الأحد»، وعلى الفور شرَع في تدوينها.

السيد كيفيم. من الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا إلى الساعة الثانية صباحًا.

الآنسة تيومر. تركت شقتها عند الساعة العاشرة إلا ربعًا.

أضاف: «لكنها، بالمناسبة، ليست أحد المشتبه بهم»، ومحا ما كتبه.

السيد كين. من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الحادية عشرة والنصف.

بيدن-هايث. ترك منزل ليفورت في حوالي العاشرة، وعاد إلى النادي عند منتصف الليل.

أخذ يُحدِّق إلى هذه الأوقات ويُفكِّر. «هذا يعني أن جريمة القتل وقعت بين الساعة العاشرة والثانية صباح اليوم التالي؛ هذا إذا ما صدَّقت أقوال الرجال. لست متأكدًا من قدرتي على ذلك، باستثناء السيد بيدن-هايث الذي رآه بواب النادي.»

رأى أن من الأفضل عمومًا أن يذهب لإثارة قلق بيدن-هايث مرة ثانية، وعلى الفور اتصل بالنادي الخاص بالشاب. ذكر للمتحدث اسمه وعمله ليضمن الحصول على ردٍّ مباشر، فقيل له إن السيد بيدن-هايث ليس بالنادي، لكن ربما يعود قبل العشاء، تحديدًا عند الساعة السادسة والنصف.

لذا قضى ديفينش بعض الوقت في فحص مكان المصعد، والتركيز أكثر على تفصيلة كان يعرفها بالفعل لكن لم يُولِها الكثيرَ من الاهتمام.

كانت هذه التفصيلة هي حقيقة أنه يوجد في كل قسم من الأقسام الثلاثة بالمتجر، وبكل الطوابق، باستثناء الطابَق العُلوي في الجزء الذي ارتُكبت فيه الجريمة تحديدًا، مدخل للتنقل عبر الأقسام، أو ممرات، تربط طرف كل طابَق بالطرف الآخر.

أما في الطابَق العُلوي، حيث كان يوجد ديفينش الآن، كان الوضع مختلفًا. فقد كان السيد ماندر حريصًا جدًّا على الخصوصية لدرجة أنه، باستثناء الباب الوحيد الموجود، عزل نفسه عن غرفة الخدم وعزل غرفة الخدم عن باقي أجزاء الطابَق العُلوي عن طريق جدار لا يوجد به أي باب مطلقًا.

كانت المخازن تشغل مساحة الجزء المتبقي من هذا الطابَق العلوي، ومنها يهبط مصعد البضائع، لكن أي شخص بشقة ماندر لا يستطيع أن يصل إلى المخازن إلا عن طريق النزول للطابَق السفلي والسير حتى الوصول إلى مصعد البضائع.

بعد أن رسم رسمًا صغيرًا بُدائيًّا للغاية، لكنه كافٍ للغرض منه، لهذه السمة تحديدًا، غادر ديفينش المتجر وتناول بعض الطعام. بعد ذلك توجَّه إلى سكوتلانديارد، وقابل السيد

ميليس، الذي وافقه الرأي في أنه لا ضرر من إثارة خوف بيدن-هايث قليلًا؛ ومِن ثَم غادر ديفينش متجهًا إلى نادي جيمسون.

كانت تحيته فاترة بينما كانت تحية بيدن-هايث تحمل امتعاضًا واستياءً، ورغم ذلك دُعي لغرفة نوم الشاب مرة أخرى، وجلس ليبدأ حملته الاستفزازية.

قال بنبرة استرضائية: «لست هنا هذه المرة لإثارة قلقك يا سيد بيدن-هايث. ما كان ينبغي أن أزعجك لولا أننا توصلنا إلى بعض الأدلة التي تؤثر على موقفك ... لنقُل الآمن؟»

أسفرت هذه الملاحظة البريئة عن نتيجة غير متوقعة.

فقد جحظت عينا بيدن-هايث من محجرَيهما، وسرعان ما شحب لونه. ثم صاح قائلًا: «ماذا تقصد بحق الجحيم؟»

«أقصد الحارس الذي كان في الخدمة تلك الليلة.»

يبدو أن هذا لم يطمئن الشاب، رغم محاولته إظهار عدم اهتمامه. قال: «وما عَلاقة هذا بي؟»

«أعلم أنك مَن رشَّحته ليشغل هذه الوظيفة.»

«أعتقد أن والدتي هي مَن فعلت ذلك أيها المحقق.»

رد ديفينش بجفاءٍ قائلًا: «إذن أعتقد أن هذا هو السبب وراء قدومه لشكرك!» ثم أضاف محتدًّا: «من فضلك يا سيدي، لا داعي للمراوغة. نعلم أنه كان جاسوسك في المتجر. لقد أخبرَنا بنفسه بذلك، وأخبرَنا أيضًا أنك كنت بالفعل السبب وراء تعيينه.»

حاول الشاب أن يحافظ على رباطة جأشه. فقال: «حسنًا، هذا صحيح تمامًا. لكنني لا أرى صلةً لي بكل ذلك حتى الآن.»

«كل ما هنالك يا سيدي أنه نظرًا لأنك تهتم لأمره، وسلوكه ليلةَ وقوع الجريمة لا يمكن تفسيره، حتى إننا قد راودَتنا شكوك بالغة ...»

«يا إلهي، هذا هراء! مان رجل صالح. ولم يكن ليؤذيَ ذبابة، وما من سبب يدفعه لكُره ماندر. في الحقيقة، يمكنني القول إنه جبان، وعصبي للغاية كقط مذعور.»

«وجندي نظامي قديم؟»

«نعم، لكن الجنود قبل سنوات لم يكونوا يتوقعون خوض حرب ضخمة. لقد انضم الكثير منهم فقط ليؤمن لنفسه وظيفة.»

«لنتحدث عن النقطة المهمة يا سيدي. في تلك الليلة لم تكن هناك جريمتا قتل بالمتجر فقط، بل إن إحداهما ارتُكبت في مِصعد للركاب، ولدينا سبب قوي للاعتقاد بذلك. بعدها

نزل القاتل للأسفل مستقلًّا مِصعدًا للبضائع، أو لنقل إنه استخدمه على أي حال. الآن لا يمكننا تصديق أن مِصعدَين استُخدما في تلك الليلة دون أن يرى الحارس أحدًا أو يسمع شيئًا.»

«لماذا لا تسأله هو، وليس أنا؟ ما عذره؟»

«اعترف أنه يعاني من الأرق نهارًا، ويقول إنه يشعر بالنعاس ليلًا، وتلك مشكلة خطيرة بالنسبة إلى رجل كان يقوم بمهام عمله حينها.»

وأضاف تفسيرًا بخصوص الجهاز المثبت في كابينة الحارس، وأوضح حقيقة أن سلك التوصيل قد قُطع.

سأل بيدن-هايث بنظرة شك واضح: «وهل اعترف أنه فعل ذلك؟»

«لم يكن ليعترف بذلك إذا لم يكن هو من فعلها حقًّا إلا إذا ...»

«إلا إذا ماذا أيها المحقق؟»

«إلا إذا كان قد اختلق عذر الأرق ليُبرر عدم سماعه أو رؤيته أي شيء.»

«إذن هل تعتقد أنه مُذنِب وارتكب جريمتَي القتل دون وجود أي دافع؟»

«لا يمكننا الجزم بذلك بعدُ يا سيدي. ثمة تفسير آخر مُحتمَل. وهذا إلى حدٍّ ما الذي دفعني للقدوم إلى هنا.»

عضَّ الشابُّ شفته، وبدا عليه الحذر الشديد. «إنه سمع شيئًا ما؟»

«وأنكر ذلك. نعم.»

«لكن إذا لم يكن هو من ارتكب جريمتَي القتل أيها المحقق، فلماذا يُنكر ما سمِعه؟»

قال ديفينش بجفاءٍ أكثر من ذي قبل: «ربما يحاول التستر على شخصٍ ما. أتخيل أن السيناريو هنا يدور حول رجل تربطه بشخصٍ ما عَلاقة صداقة ومعاملة حسنة. وقد رأى هذا الشخص، لكنه لم يشأ أن يوشيَ به.»

فجأة تصبَّب جبين بيدن-هايث عرَقًا، وأخذ يُحدِّق إلى المحقق كما لو كان منوَّمًا مغناطيسيًّا.

ثم قال متلعثمًا: «لا تعجبني نبرة صوتك أيها المحقق.»

«معذرة يا سيدي، لكن هذا هو مربط الفرس. لقد ساعدت مان في الحصول على هذه الوظيفة. وعُثر على عُلبة ثقابك بالخارج في الممر.»

«لكن، يا إلهي! أنا لم أدخل هناك من الأساس. أخبرتك أنني قرعت الجرس فترةً طويلة حتى سئمت.»

«لدينا أقوالك فقط يا سيدي بدون دليل.»

شهق بيدن-هايث ثم هزَّ كتفَيه. قال: «تمهل لحظة. أفهم ما تعنيه. أعلم أن الأمور تبدو منطقية من وجهة نظرك. لكن أقسم لك إنني لم أدخل المبنى. أنا أحمق لعين لأنني اقتربت منه.»

«ولكن بما أنك اقتربت منه يا سيدي، فسوف يبدو الأمر حرجًا للغاية إذا تحتَّم عليك الإدلاء بشهادتك.»

تساقطت قطرة عرق على خد الشاب. «يبدو موقفي سيئًا. أعترف بذلك. لكن ما الذي يمكنني فعله؟ لا أستطيع إحضار أي شاهد ليُثبت أنني لم أدخل المبنى.»

نظر إليه ديفينش نظرة ثاقبة، وحاول أن يجعل نظرته مُحمَّلة بأكبر قدر مستطاع من الرصانة والجدية.

«حسنا يا سيدي، عليك أن تفسر الأمر بطريقة ما، أو تتحمل العواقب. لو أن مان لم يكن يشعر بالنعاس كما ذكر، ولم يكن ينتبه إلى واجباته الوظيفية، تُرى ماذا كان يفعل؟ إذا رفض التصريح بأنه رأى شيئًا، فإما أنه يكذب، أو يقول الحقيقة. بفرض أنه يقول الحقيقة، فأين كان عندما تحرك المِصعدان لأعلى وأسفل؟ أعتقد يا سيدي أنه لم يذهب إلى الباب الخلفي المفتوح على الممر ليتحدث إليك، أليس كذلك؟»

لعق بيدن-هايث شفتَيه الجافتين. ثم قال: «نعم، لم يفعل ذلك.»

نهض ديفينش.

«حسنًا يا سيدي، بما أنك لا تستطيع تقديم أي تفسير لهذه التناقضات في أقوال مان، أخشى أنني يجب أن أبلغ سكوتلانديارد بهذه التفاصيل. بعدها سيحددون إن كان هناك داعٍ لاستدعائك للإدلاء بشهادتك عند استئناف التحقيق.»

نظَر إليه بيدن-هايث في يأس، ثم سارع بالتطوع بالإدلاء بشيء ما.

قال: «لا أهتم كثيرًا بنفسي، لكن لا أريد أن يقع هذا المسكين في مشاكل إذا كان بإمكاني المساعدة.»

جلس ديفينش مرة ثانية. «إذن يا سيدي، دعني أسمع ما لديك.»

الفصل السادس عشر

بدأ بيدن-هايث حديثه وبدا مُحرَجًا للغاية: «اسمعني أيها المحقق، أنا متأكد من أن لديك من النزاهة ما يكفي لعدم إقحام اسم والدتي في هذا الأمر. عندما أقول «السيدة س» فربما ستفهم على الفور من المقصود.»

«أسمعك يا سيدي، أكمل.»

لعق جيمسون شفتَيه مرة ثانية. ثم قال: «حسنًا ... كانت هناك سيدة تدعى «س» لديها أموال طائلة، كما تعلم. إنها شخصية رائعة وما إلى ذلك، لكننا جميعًا لدينا نقاط ضعف. وقد كانت سريعةَ التأثر إلى حدٍّ ما، والتقت بشخصٍ نذل، رجل أَسَر لُبَّها. كان يتحدث بمعسول الكلام، وظل يغازلها ويتملقها دون كللٍ أو ملل، ويبدو عمومًا أنه قد نجح في التقرُّب إليها للزواج منها.»

أومأ ديفينش برأسه. قال: «أتفهم ذلك يا سيدي.»

واصل جيمسون حديثه، وهو يتلوَّى قليلًا في مقعده: «كانت المشكلة في أن هذه السيدة لديها ابن. لم يكن هذا الابن يمانع أن تتزوج السيدة «س» مرة ثانية، لكنه بكل تأكيد كره فكرة زواجها من شخص حقير كهذا.»

«أمر طبيعي جدًّا يا سيدي.»

«بالضبط. على أي حال، حاول هذا الابن بذل قصارى جهده لإبعادها عن هذا الحقير، لكن للأسف كانت كل محاولاته تبوء بالفشل طَوال الوقت. لا أعلم إن كانت السيدة «س» قد اعتبرت هذا النذل الفارس المغوار بالنسبة لها، لكن بدا الأمر كذلك. أتعلم، لو كانت اكتشفت أمره، لجُن جنونها. إنك لا تضع ثروتك تحت قدمَي شخص ما حينما يتقدم بك العمر دون أن تتوقع منه قيمة في المقابل وحقوقًا لا يتمتع بها أحد سواك، إذا كنت تفهم قصدي.»

«من المؤكد أن السيدة «س» كانت تشعر بالغَيرة.»

«بالتأكيد. حسنًا، كان ابنها هذا مستشيطًا غضبًا من هذا الأمر، من فكرة أن هذا النذل يسيء لعائلته، وفي الوقت نفسه يبدد ثروتها هباءً كذلك. بالطبع لن تلوم هذا الابن على رغبته في منع هذا الزواج، إذا كنت تعلم ما أعنيه.»

«ينبغي أن أفهمه على الأقل.»

«حسنًا. تلك هي المسألة. لكن الابن لم يكن يعلم كيف يبدأ في التعامل مع الأمر، ولم يكن لديه دليل ضد مان ... ضد الرجل باستثناء وجهه. كان يرى أن وجه هذا الرجل من النوع المتمرس على مغازلة الفتيات الجميلات، وكانت ثمة شائعات تدور حول ذلك أيضًا، وإن لم تكن صريحة بما يكفي للاستدلال بها.»

رد ديفينش على الفور، وقد اقتنع نوعًا ما الآن بأن جيمسون بيدن-هايث يقول الحقيقة، قائلًا: «وأعتقد أنه لم يفكر قط في الاستعانة بمخبر خاص؟»

«بالطبع فكَّر في ذلك، لو أنك تسأل. ولكنَّ أولئك المخبرين يبدون أوغادًا، وهو لم يرغب في إخبارهم بشأن السيدة «س»، كما يمكنك أن تتخيل، إذ كان يُكنُّ قدرًا من الاحترام للسيدة العجوز.»

«بالطبع لم يرغب في ذلك. ماذا بعد؟»

«حسنًا، ظهر رجل يبحث عن عمل، وتصادف أن كان يدين له بجميل، أو هكذا كان يظن، وكان مهذبًا جدًّا، ومِن ثَم كان هو الشخص المناسب للمهمة.»

«تقصد من كان سواه يمكن الزج به للعمل بوظيفة داخل متجر كبير؟»

«بالطبع، كما أنه ليس من نوعية الأشخاص الذين يفشون أسرار الآخرين. أيًّا كان ما يراه سيحتفظ به لنفسه. حسنًا، كانت الفكرة كالآتي. كان عليه مراقبة شقة ماندر، وكان لديه مفتاح للباب الخلفي المُطل على الممر. كان واضحًا تمامًا أنه ما من أحد قد يزور هذا النذل قبل الساعة العاشرة؛ لأن كبير الخدم يمكنه أن يدخل ويخرج قبل الساعة العاشرة.»

«فهمت.»

«على أي حال، لو أن أي شيء حدث، أنا ... أنا أقصد أن الحارس كان سيُعفى من الوظيفة، وأي ضرر كان سيُصلَح؛ لذا لم يكن هناك ضير من تعيينه بهذه الوظيفة.»

قال ديفينش بهدوء: «لكن التجسس عمل غير أخلاقي يا سيدي. نحن نقوم به لأنه واجبنا، ومن أجل خدمة الصالح العام.»

قال جيمسون: «معك حق. لم يكن ينبغي أن أقول لك ما قلته في هذا الصدد منذ بضعة أيام. لقد تراجعت عنه وأعتذر. لكن دعنا نركز على النقطة الأساسية، لم يتمكن مان

من التوصل لأي معلومة دقيقة؛ لأنه لم يقدر على التواجد بالخارج بالممر طَوال الوقت. لم يكن خطأه، لكن هذا الابن الشاب انزعج قليلًا بسبب ذلك، وتراءى له أن الأمور ستتطور بسرعة قبل أن يتمكن من التدخل ...»

قال ديفينش: «من الواضح أن ماندر كان يخطط للهرب مع الآنسة تيومر.»

«لم يتسنَّ لي معرفة ذلك. أقصد أن ابن السيدة «س» لم يكن في أفضل حالاته مساء يوم الأحد، وقرَّر التجول والمراقبة بنفسه. دقَّ جرس الباب الخلفي للمتجر، وليس الباب المؤدي إلى سُلَّم ماندر الخاص، وخرج مان. كان مان يقوم بالحراسة بعد وصوله لاستلام وردية عمله، ورأى فتاة تدخل من الباب الخاص.»

اندهش ديفينش. «يا إلهي، هل رأى ذلك؟»

«أجل. حسنًا، ظن الشاب «س» أنه سيمسك بماندر متلبسًا، وكان به ما يكفيه من القلق ما دفعه للتفكير في تلك الخطة الساذَجة بدق الجرس الخاص وإجبار ماندر على تحمُّل تبعات أفعاله. ما من أحد يعلم إن كان ماندر العجوز قد قُتل حينها أم أنه نظر من أعلى وعلم من الطارق ولم يُجب، لكنه لم يظهر على أي حال. مِن ثَم عاد ابن السيدة «س» إلى النادي عندما سئم من دق الجرس. وفيما بعد شعر بخوف شديد؛ لأنه أسقط علبة الثقاب الخاصة به في الممر ولم يتمكن من العثور عليها.»

«وأخيرًا حاول أن يخدع رجال الشرطة ويقنعهم أنه لا يعلم أي شيء عن القضية.»

احتج جيمسون قائلًا: «لا، لم يفعل ذلك حقًّا، أليس كذلك؟ لم يقصد بكلامه الخداع.»

سأل ديفينش: «هل رأى مان منذ ذلك الحين؟»

«نعم، لكن مان أخبره أنه لا يعلم شيئًا. بعدما أخبر الشاب بما لديه من أخبار عند الباب الخلفي، عاد ليواصل عمله، وأنا أصدقه. كما تعلم أيها المحقق، مان رجل في غاية الاحترام.»

أخذ ديفينش يتفرَّس في وجه الشاب بعناية شديدة. كان يعلوه تعبير لم يبدُ مراوغًا، وشعر المحقق عمومًا برغبة في تصديق أنه قد روى القصة الحقيقية. لو أنه ظن حقًّا أن والدته سوف تتزوج ماندر، وشك في أن الرجل ليس جشعًا فحسب، بل متهتك أيضًا، فربما يكون في ظنه أنه كان ينقذ والدته من مستقبل بائس، ما يبرر سلوكه الملتوي.

«في أي وقت قرعت الجرس؟»

«أظن بعد نحو الحادية عشرة بقليل.»

قال ديفينش وهو ينهض للمغادرة: «عظيم جدًّا يا سيدي. لكن بالطبع لا بد من التأكد من صحة روايتك، وعليك ألا تغادر المدينة لأي سبب حتى تحصل على إذن منا.

ولكن إذا وجدت أنك قد أخبرتني بالحقيقة، فسأسعى لإبقاء اسم السيدة «س» بعيدًا عن القضية.»

مد جيمسون يده ليصافحه. وقال: «كنت أحمق للغاية أيها المحقق، في أكثر من موقف. لكنني سأضع حدًّا لهذا. أتمنى لك حظًّا سعيدًا.»

غادر ديفينش وهو مستغرق في التفكير. أراد أن يرى السيد ميليس بعد ذلك، ولحسن الحظ أن السيد ميليس كان متلهفًا جدًّا لرؤيته. عندما دخل غرفة مساعد المفوض في سكوتلانديارد، استُقبل بهمهمات رضًا.

«تفضل أيها المحقق. أنت تحديدًا الشخص الذي أردت رؤيته. لقد أثبت أحد خبرائنا الأكْفاء عدم صحة افتراضك الأخير، وأريد أن أسمع منك اقتراحات لكيفية تعديله.»

أشار إلى ديفينش ليجلس على أحد المقاعد، ثم أشعل سيجارةً ليُضفيَ أجواء مثيرة.

بدأ حديثه، مشيرًا بسيجارته كما كان معتادًا أن يفعل على مسرح الهواة، قائلًا: «تلك الرَّصاصة. إنها ليست الرَّصاصة الحقيقية التي قتلت ماندر.»

قال ديفينش: «ساورني شك في ذلك.»

ضحك ميليس. فلم يعتقد أن من المحتمل أن يكون ديفينش قد شكَّ بالأمر، بل ظن أنه كان يحاول التعتيم على خطأ طبيعي للغاية.

واصل حديثه قائلًا: «لقد أُطلقت الرَّصاصة بلا شك، وأُطلقت من مسدس ماوزر. لكنها أُطلقت على الرمال، وليس على ماندر. هناك فرق بالتأكيد. فهذا يعني مثلًا أن هناك رَصاصتين قد أُطلقتا وليس واحدة.»

أومأ ديفينش برأسه. «إذن ربما يكون ماندر قد أصيب بالفعل في المصعد يا سيدي.»

مازحه قائلًا: «نعم، أظنه قد أصيب برصاصة سحرية تطايرت في الهواء وتحوَّلت إلى شظايا صغيرة، ولهذا السبب لم نتمكن من العثور عليها! وتدفق الدم لأعلى من أسفل السَّجادة الموجودة بأرضية المصعد؟ لا بد أنها جريمة فريدة من نوعها!»

قال ديفينش: «لم نعثر على السجادة التي كانت بالمِصعد يا سيدي»، ومضى يشرح ما فعله في ذلك اليوم مردفًا: «ليس بعد.»

بدا السيد ميليس مذهولًا ومتحيرًا في الوقت نفسه. فقال: «يا إلهي! إذن هذا الشاب السكير كان يتجول حول المكان في تلك الليلة، وها هو الآن يقص علينا قصة خرافية.»

«لست متأكدًا من ذلك يا سيدي.»

نسي ميليس أن يشير بسيجارته. «حقًّا؟ وأنت لست بالشخص الذي لا يجيد الحكم على الأشخاص أيضًا. لكن ما الموقف الآن؟ أعتقد أنك لم تَعُد تشكُّ بكيفيم أو كين أو ويبلي؟»

عقد ديفينش حاجبَيه. وقال: «لا أظن أنني انتابني الكثير من الشك تجاه ويبلي من قبل، لكن كيفيم مشتبه فيه محتمل وكين كذلك.»

«ماذا لدينا ضد كين؟»

«ليس لدينا سوى فرضيات يا سيدي، لكن هذا ينطبق عليهم جميعًا. إذا كان لكين صلة بهذه الجريمة من الأساس — وأقر أنه لم يرُق لي على الإطلاق — فربما يكون لذلك عَلاقة بهذه الطائرة المروحية. يبدو ويبلي عبقريًّا بعض الشيء فيما يتعلق بالميكانيكا، لكن كين دفعني للاعتقاد بأن الشخص الذي يمكنه اختراع الطائرة لا بد أنه كان لديه معرفة تقنية عالية.»

«أتقصد العلم الذي يقوم عليه الاختراع؛ الرياضيات العليا وما إلى ذلك؟»

«هذا ما أقصده يا سيدي. هناك أشخاص يمكنهم فعل أي شيء بالآلات لكنهم لا يفهمون شيئًا عن النظريات العلمية التي تعتمد عليها. أمَّا كين فهو شخص على درجة عالية من التعليم والمعرفة.»

«أتعتقد أنه قد يكون المخترع؟»

«كان يشعر باستياء شديد حيال المكافآت التي يحصل عليها المخترعون، رغم أنه كان يتحدث على نحو موضوعي إلى حدٍّ ما. إن كان هناك أي حُجة ضده، فسوف يتمثل في افتراض أن ماندر قد سرق اختراعه، وويبلي هو من أكمله، أو ربما يكون كين قد عُين تحديدًا بسبب الطائرة الجايروكوبتر ووافق على عدم المطالبة بحقه كمخترع، لكنه شعر بالسخط عندما وجد أنها تحقق مبيعات سريعة. لماذا ذهب لمقابلة ويبلي؟ هل سمع أن ماندر سيقدمه على أنه المخترع الحقيقي؟ هل قابل ماندر في الشقة في مساء الأحد هذا، ووجده مصممًا على الالتزام بالترتيب الأصلي الذي نفترضه الآن؟»

«هذا احتمال بعيد جدًّا.»

«هو كذلك يا سيدي. وفي تلك الحالة، ربما يكون أطلق النار على ماندر، ثم اكتشف بعدها وجود الآنسة تيومر كشاهد عيان. فتخلص منها باستخدام الخنجر الذي كان بغرفة استقبال ماندر، وربما يكون زيَّف دليلًا من شأنه إدانة ويبلي (الذي كان، وفقًا لهذا الافتراض، متورطًا في هذه المؤامرة ضده) أو كيفيم، الذي كان على عَلاقة سيئة معه. لست

مقتنعًا بذلك فعليًّا، لكن ربما يتحتم علينا دراسة هذا الافتراض إذا ثبت عدم صحة كل الاحتمالات الأخرى.»

قال السيد ميليس: «أردت أن أسمع منك لأن المحقق هيمب حصل على معلومة عارضة، أو ربما تكون عارضة، مثيرة للفضول عن القضية. إنها لا تتعلق بكين أو كيفيم، لكن قد تجعلنا نُكوِّن فكرة جديدة عن تلك الفتاة الغريبة التي قُتلت.»

أنصت ديفينش باهتمام وقال: «سأكون سعيدًا جدًّا لسماع ما لديه يا سيدي.»

التقط ميليس سماعة هاتفه وطلب استدعاء المحقق هيمب إلى غرفته، ثم التفت ثانية إلى ديفينش.

تحدث قائلًا: «كما تعلم، لديَّ الكثير من العَلاقات من مختلف طبقات المجتمع، وبالطبع يعلم الناس من أكون. من حين لآخر، يُطلَب مني حلُّ بعض المشكلات الاجتماعية بشكل غير رسمي. أقصد في الحالات التي تكون فيها السرية التامة ضرورية للغاية نظرًا للمكانة الاجتماعية لمعارفي. منذ بضعة أيام، اتصلت بي ابنة أخت صديقة قديمة لي، سوف أشير إليها بـ السيدة «س».»

«أهي غير السيدة «س» خاصتي يا سيدي؟»

«نعم. كانت الفتاة على وشك الزواج من أحد النبلاء والحصول على لقب ماركيزة، ولكن كانت هناك كارثة لم يكن من الملائم أن تَنميَ إلى علم الماركيز. لقد تحدثت إلى الشابة ووجدتها فزعة جدًّا وفي شدة الخوف. لو كان بإمكاني التعامل مع المشكلة بنفسي دون تدخل من أحد، لفعلت. لكنها كانت تتجاوز قدراتي؛ لذا أسندت المهمة إلى هيمب، خبير الابتزاز لدينا.»

«ألم يكن هناك شخص أفضل يا سيدي؟»

«لا. لا أظن أنني كنت سأجد من هو أفضل منه.» كان هناك صوت طرق على الباب، ورفع بصره وقال بصوت عالٍ: «تفضَّل أيها المحقق.»

دخل شخص في غاية الأناقة واللطف. ألقى التحية على ميليس، وأومأ برأسه إلى ديفينش، ثم طُلب منه الجلوس.

«هيمب، أعتقد أن القضية التي طلبت منك العمل عليها تحمل قدرًا من التشابه مع قضيتين أخريَين تسبَّبتا لك في بعض الحَيرة، أليس كذلك؟»

«أجل يا سيدي بدا لي أن الفاعل واحد.»

«كلتاهما أثارتا حيرتك، لكنني فهمت منك أن هذه السيدة أعطتك مؤشرًا.»

«نعم يا سيدي. أعتقد أن السبب في ذلك هو أنها أفلتت بفعلتها بسهولة في القضيتين الأُخريَين، لذا نسيت اتخاذ جميع الاحتياطات.»

«احتمال كبير. هل أنت متأكد الآن؟»

زمَّ هيمب شفتيه. «إلى حدٍّ كبير؛ بل أظن أنني متأكد تمامًا.»

كان ديفينش مهتمًّا للغاية، فمال للأمام. ثم تساءل: «هل أي من المشتبه بهم في قضيتي متورط؟»

كانت الإجابة: «أحد شهودك. السيدة هوو، تلك السيدة التي تقوم بأعمال مجتمعية، وبحكم عملها تطَّلع على بعض الأسرار.»

ضرب ديفينش بيده على ركبته. «السيدة هوو؟ لقد فاجأتني، ولكنني لست مندهشًا. ولكن أيمكننا افتراض أنها والآنسة تيومر كانتا صديقتين، بما أن السيدة هوو كانت تبتزها؟»

قال ميليس مقترحًا: «ربما تكون السيدة هوو قد سمعَت عن الهروب المرتقب إلى أمريكا الجنوبية، واستغلت ذلك كوسيلة للحصول على المال.»

كان هيمب يتفرَّس زميله. «ألديك أي اعتراضات على ذلك يا ديفينش؟»

ردَّ ديفينش على الفور قائلًا: «لديَّ الكثير من الاعتراضات. لا أصدق أن سيدة ستحتفظ في دفترها برقم هاتف مبتزها. لا بدَّ أن هناك أسبابًا أخرى.»

بدا هيمب مرتابًا. بينما بدا على ميليس الاهتمام.

«إذن أيعني ذلك أنك لست متأكدًا من أن السيدة هوو لها أي صلة بهذه القضية؟»

«أعتقد أن لها صلة بالقضية يا سيدي، لكن أظن أن السيدة هوو والآنسة تيومر متورطتان في ذلك معًا.»

«كيف استنتجت ذلك؟»

«من شخصيتها الثابتة من نمط حياتها يا سيدي. لقد سمحت الآنسة تيومر للسيد كيفيم بالتودد إليها، بينما كانت في الوقت نفسه تُدبِّر مؤامرةً مع ماندر. كانت مخطوبةً للمدير ومن المفترض أنها ستتزوجه، وتزور شقة ماندر بمجرد أن يتركها حبيبها. سيدة كهذه، يبدو واضحًا أنها بلا أخلاق، قد تفعل أي شيء.»

وافقه ميليس الرأي، بينما بدا هيمب أكثر اتفاقًا معه. فقال: «أظن أنك قد تكون على صواب. لو أن ماندر كان يواجه أزمة مالية، أو ينوي الهرب بالأموال، وإذا كان في الوقت نفسه مفتونًا بالآنسة تيومر بما يكفي لكي تقترح عليه الهروب، فهذا يعني أنه كان مستسلمًا لها تمامًا. وربما خططت هي والسيدة هوو للحملة بتلك الطريقة.»

تساءل هيمب: «لكن لماذا وافقت على خطبتها لكيفيم؟»

ابتسم ديفينش. «رجل في مثل تخصصك ويطرح سؤالًا كهذا! ربما لم يكن لديها ضمير، ولكنها كانت تحب كيفيم.»

ضحك ميليس قائلًا: «تصلح أن تكون طبيبًا نفسيًّا يا ديفينش. أتفق معك تمامًا. وقد وضع ماندر نفسه في مأزِق عندما استصدر جواز سفر للآنسة تيومر باسم آخر. لكن كل هذه التفاصيل لا تساعدنا في حل لغز جريمة القتل. لا يمكن أن يكون ماندر قد أطلق الرَّصاص على نفسه، وقتل الفتاة، ثم وضع الجثتين بواجهة العرض بالأسفل، وبعدها صعِد لأعلى وأطلق الرَّصاصة من المسدس الماوزر في الرمال! ولو فرضنا أنه قام بالحيلة الأخيرة بمنتهى الإتقان، ماذا عن آثار إطارات الطائرة وشمعات الاحتراق المفقودة، إلى آخره؟»

هزَّ هيمب كتفَيه. «حسنًا يا سيدي، الشخص الذي نبحث عنه ليس مثيرًا للشك. لقد جعلت السيدة الشابة ترسل المال مساء أمس كما طُلب منها. ولو تمكَّنت من الحصول على إذن بالتفتيش اليوم، فسيكون من الأفضل تنفيذه في أسرع وقت ممكن.»

سأل ديفينش: «إذن لتفتيش شقة السيدة هوو؟»

«نعم، حسنًا يا هيمب. سأتولى هذا الأمر على الفور. من فضلك أخبر ديفينش إذا توصلت إلى أي معلومات لها عَلاقة بقضيته. لا أظن أننا بحاجة إليك في شيء آخر الآن.»

ألقى هيمب التحية عليهما وغادر.

التفت ميليس إلى ديفينش. قال مبتسمًا: «أرى أنك تُحرِز تقدُّمًا، على الرغم من أنني لست متأكدًا من الاتجاه الذي تسير فيه. لا شك أن من المحتمل أن الآنسة تيومر كانت متورطة أيضًا في هذه المؤامرة الاحتيالية. ولكن لنَعُد إلى حديثنا السابق. حتى إن كان بيدن-هايث قد أخبرك بالحقيقة وأنه ذهب بالفعل في تلك الليلة لمقابلة الحارس عند الباب الخلفي، فإن هذا لا يُفسر عدم رؤية الحارس لأي شيء، إلا إذا كان المصعدان قد استخدما عندما كان عند الباب الخلفي يتحدث مع الشاب.»

رد المحقق: «تلك هي المعضلة التي لا تزال تواجهنا يا سيدي، لكنني سأتمكن من حلها. هل هناك أي شيء آخر تريد أن تخبرني به يا سيدي؟»

«أريدك فقط أن تبحث عن مسدس آخر يا ديفينش. لا بد أن هناك واحدًا. وابحث أيضًا عن تلك الرَّصاصة السحرية!»

الفصل السابع عشر

اندهش ديفينش من الاكتشاف الذي توصلوا إليه بخصوص السيدة هوو وأنشطتها المشبوهة بقدر أكثر مما كان ليعبأ بالاعتراف به. ولكنه لم يكن يعرف الكثير عن السيدة، وكان من المحتمل جدًّا أن الفتاة الراحلة، الآنسة تيومر، لم تكن تعرفها أكثر منه. ربما تكون صديقًا لشخص مريب لسنوات دون أن تعرف ذلك. من ناحية أخرى، كان ثمة احتمال أيضًا أن الآنسة تيومر كانت تعرف هذا، وأنهما — كما ألمَح إلى السيد ميليس — كانتا متواطئتين في التخطيط لابتزاز القتيل، ماندر.

بعد بُرهة من التفكير، قرَّر ديفينش زيارة كيفيم. وذهب إلى منزله ووجده هناك، واستقبله المدير بتَرحاب كبير. في الواقع، بدا له أن حُزن كيفيم قد تبدَّد قليلًا أثناء الأيام القليلة الماضية، بغضِّ النظر عن السبب المحتمَل وراء ذلك.

وبعد أن تبادلا حديثًا قصيرًا عابرًا، قبل المحقق سيجارة، وتحدث عن مقابلته السابقة مع السيدة هوو. كان يراقب وجه الرجل الآخر، ولاحظ أن كيفيم بدأ يهتم بشخص الصحفية، وبأمر لا صلة له بالقضية نفسها.

قال في نفسه إنه ليس من المستبعد مطلقًا أن يكون اكتشاف تآمر إيفي تيومر مع ماندر قد قتل حب كيفيم لها.

إن المرء لا يحزن على ما كف عن حبه، وإن كان تفسير ديفينش للمسألة صحيحًا، فإن الرجل كان يجد بعض العزاء بالفعل في صحبة السيدة الجديدة التي تبدي تعاطفًا تجاهه، وهو أمر طبيعي تمامًا في ظل هذه الظروف.

قال في تأمل: «أتساءل إن كانت السيدة هوو تعرف الآنسة تيومر الراحلة منذ فترة طويلة؟»

عبس كيفيم لدى ذكر الاسم. ثم ردَّ قائلًا: «أظن منذ عدة سنوات.»

اندهش ديفينش. وتساءل: «هل أنت متأكد من ذلك؟»

حدَّق إليه الآخر في اندهاش. وأردف قائلًا: «لست متأكدًا تمامًا. أظن ذلك. أظن أنهما لم تلتقيا منذ سنوات عديدة، ولكن أعتقد أنهما كانتا في نفس المدرسة بالريف. وعندما شاركت السيدة هوو في إجراء الدِّعاية الصحفية للشركة، استأنفتا صداقتهما القديمة. لماذا تسأل؟»

«حسنًا، أريد أن أحصيَ جميع الشهود بقدر الإمكان يا سيد كيفيم. والسؤال هنا متعلق بشخصية الآنسة تيومر. فمن لم يعرفها إلا لفترة قصيرة ربما لا يفهم الكثير عنها.»

اكفهرَّ وجه كيفيم وعضَّ شفته. وقال: «شخصية!»

«أنت تعرف ما أقصده. هناك نوعيات معينة من الأشخاص أكثر عرضة للموت جراء العنف عن غيرهم، حتى في هذا البلد الخاضع للقانون. فهناك نساء من فئة معينة دائمًا ما يمثلن نسبة كبيرة من ضحايا جرائم القتل، يليهن المبتزون على ما أظن. إنهم لا يُفلتون في الواقع؛ لكن حتى لو أفلتوا، فالدافع إلى ...»

صاح كيفيم وقد بدا عليه الانزعاج بشدة قائلًا: «تمهل لحظة أيها المحقق. أنا حقًّا مندهش أن أسمعك تذكر الابتزاز. لديَّ الكثير لألوم إيفي ... أقصد الآنسة تيومر عليه، ولكن ما كنت أبدًا أتصور أنها قد تتحول إلى ذلك.»

كان ديفينش واثقًا من أن الرجل يتحدث بصدق. فعلق قائلًا: «ربما لا، ولكن هل فكرت في الظروف الغريبة المحيطة بعَلاقة الآنسة تيومر بك وبعلاقتها بالسيد ماندر؟ لقد تقدمت إليها للزواج ووافقت مؤخرًا. أظن أنك اعتبرت أن ذلك يعني أنها كانت تحبك.»

قال كيفيم وقد غض صوته: «ظننت ذلك.»

«ولكن رغم أنها وافقت عليك، كانت تزور السيد ماندر، ويبدو أنها كانت ترتب للهروب معه إلى الخارج. لماذا إذن وافقت عليك؟ أظن أنها لم تكن مجبرة على ذلك، أليس كذلك؟»

«بالطبع، لم تكن مجبرة. وكيف لها أن تكون؟»

حكَّ ديفينش ذقنه. ثم قال: «هل بدت عليها أمارات حب أو عاطفة تجاهك؟ أقصد أن أقول: هل أعطتك انطباعًا بأنها تتمنَّى حقًّا أن تتزوجكَ؟»

قال كيفيم: «أجل، كانت بالنسبة إليَّ كل ما كان بوسعها أن تكونه»، ثم أضاف بنبرة أشبه بأنين قائلًا: «في ذلك الوقت.»

«أفهم ذلك. حسنًا، سيد كيفيم، أنت تعرف مثلما أعرف أنا أيضًا أن امرأة ربما تكون محتالة محترفة بطرقٍ شتى، ورغم ذلك تقع في حب رجل بصدق. ثمة مجرد احتمال

فحسب بأن الآنسة تيومر كانت تحاول ابتزاز ماندر، لتقوده إلى الاعتقاد بأنها ستسافر معه إلى الخارج إلى أن ارتكب الخطأ الأخير والقاتل الذي ارتكبه ليس فقط بالتقدم من أجل الحصول على جواز سفر له، بل للتقدم للحصول على جواز سفر للآنسة تيومر باسم مزيف. فقد كانت صورتها موجودة على جواز السفر بالطبع.»

«لكن لماذا؟ أنا لا أرى العَلاقة بين هذا وبين الابتزاز.»

«أظن أن الصلة واضحة. فوجود جواز السفر هذا كسلاح جعلها تستطيع تهديد ماندر في أي وقت.»

«ولكني ظننت أن من المستحيل أن تكون هذه جريمة قتل وانتحار أيها المحقق.»

قال ديفينش: «حسنًا، علينا أن نختبر جميع الافتراضات، ولكن سننحي هذا جانبًا الآن. هل التقيت بالسيدة هوو مؤخرًا؟»

احمرَّ وجه كيفيم قليلًا. كان من السهل ملاحظة أن السيدة الجميلة الشابة قد تعاطفت معه على نحو أتى ثماره للغاية.

«أوه، أجل، التقيتها عدة مرات أيها المحقق. لقد كانت لطيفة للغاية. ورأيت شيئًا من لطفها حين كانت إيفي على قيد الحياة، ولكن لم أتخيل أبدًا ...» وكبح جماح نفسه وازداد وجهه حمرة.

«أتفهَّم ذلك. مَن في رأيها وراء هذه المؤامرة مع ماندر؟ أولم تذكر لك شيئًا عن هذا؟»

«أخشى أنها تظن أن إيفي كانت تنوي الهروب مع الرجل.»

«ليس لديها أي افتراض آخر يفسر الأمر؟»

«لم تذكر لي شيئًا، أنا واثق من ذلك.»

كان ديفينش متأكدًا من أن السيدة هوو متورطة في القضية بشكل أو بآخر. فلم تذكر له حقيقة أنها كانت ترتاد المدرسة نفسها مع إيفي، وهو تكتُّم خطير. إذن، فلماذا كانت تتواصل مع السيد كيفيم؟ هل لأنها كانت تشك في ارتكابه الجريمة، أم لأنها ببساطة وقعت في حبه؟ كان ثمة قدر من المنطق في هذه الفرضية الأخيرة؛ نظرًا لأن السيدة هوو كانت تتحدث باستخفاف وازدراء عن تيومر بينما تتظاهر بالإعجاب بها والانجذاب لها. ربما تكون الغَيرة وراء ذلك؛ ذاك الشبح المزعج المندس خلف الكثير من الصداقات الظاهرية متربصًا بها بلا هوادة.

لكن ديفينش لم يكن يرغب في أن يوليَ كيفيم أهمية أكثر مما ينبغي لذلك الجزء من حديثهما الذي تناول السيدة هوو. لعله يعيد الحديث نفسه على مسامع السيدة، وهو ما سيكون مزعجًا للغاية. فإذا به يُغيِّر الموضوع فجأة.

«حسنًا يا سيد كيفيم لست بحاجة لأن أخبرك أن عدم وجود حُجة غياب لديك في مساء الأحد، وحقيقة أن خطيبتك كانت تحيك مؤامرة مع ماندر، يُعقِّد موقفك نوعًا ما. وإن لم يكن لك يد بالجريمة، كما أميل إلى الاعتقاد، فلا يزال من المحتمل أن ثمةَ طرَفًا ثالثًا كان يعرف بالمؤامرة ولن يعزف عن إلقاء اللوم عليك.»

حدَّق إليه كيفيم. ثم عقَّب قائلًا: «حريٌّ بي أن أقول إنني لا أعرف أحدًا من شأنه أن يحيك ضدي خدعة بغيضة كهذه. يا إلهي، سيكون هذا أسوأ من محاولة قتلي بدم بارد.»

«إذن ليس لديك أعداء؟»

«ليسوا من هذه النوعية، حمدًا للرب.»

«فهمت من السيد كرايت أنك لم تكن على وفاق مع السيد كين، أليس كذلك؟»

أومأ كيفيم. وأردف قائلًا: «هذا صحيح. كين وغد، ومتغطرس لعين. لا أستطيع تحمُّل التعامل معه بأي ثمن. لمجرد أنه التحق بمدرسة خاصة ثم التحق بالجيش ...»

قاطعه ديفينش. «تنتابك مشاعر حادة تجاهه، أليس كذلك؟»

مال كيفيم إلى الأمام، وعقد راحتَي يديه ثم قال: «بالفعل. كين شخص حقير، ولكن لم أكن لأُصدِّق أبدًا أنه بهذا الشكل من الحقارة. لن أصدق هذا أبدًا عنه.»

كان ديفينش على وشك الرد عليه حين رن جرس الهاتف. فاستأذن كيفيم، وخرج إلى الرَّدْهة. ثم أغلق الباب خلفه، وكان ديفينش على وشك النهوض والتوجه إلى الباب حين عاد بسرعة، وقد بدا شاحبًا ومضطربًا.

قال: «لقد أغلقت الخط في وجهي. لا أستطيع أن أفهم ماذا حدث.»

تساءل ديفينش بحدة قائلًا: «مَنْ؟»

«السيدة هوو. عندما رفعت سماعة الهاتف بدأت تخبرني عن شيء بخصوص الشرطة؛ سألتها هل آتيكِ؟ ثم قالت بصوت هادر: «إنهم هنا!» ثم وضعت السماعة، ولم أستطع الاتصال بها مرة أخرى.»

أومأ ديفينش. ثم قال في هدوء: «سأجرب مرة أخرى بالنيابة عنك خلال بضع دقائق. إذا كان هؤلاء رجال الشرطة، فسيجيبونني.»

فرك كيفيم يديه بعصبية، وبدا عليه الانفعال الشديد. كان من الواضح أنه لو لم يكن قاتل السيد ماندر — وهو ما من شأنه أن يفسر خوفه هذا — فقد كان قلقًا على السيدة هوو.

«ولكن ما الذي تريده الشرطة منها أيها المحقق؟ ولماذا تتحدث عنهم بهذا الذعر؟ ليس لديها أسباب مثلي تجعلها تهاب رجالك، بما أنني قد أكون من المشتبه بهم، ولكني لم أصرخ بهذا الجنون حين جئتني.»

قال المحقق: «النساء بطبيعتهن أكثر توترًا حين يتعلق الأمر بالشرطة. اجلس يا سيدي، ولا تبالغ في قلقك.»

«ولكن السيدة هوو صديقة عزيزة بالنسبة إليَّ. لقد كانت تتعامل بلطف شديد منذ وقوع هذا الحادث المروع ...»

«أعرف ذلك يا سيدي. وأقدر مشاعرك تمامًا، ولكن ربما يكون رجالنا حريصين على استجوابها بخصوص الآنسة تيومر.»

غير أن كيفيم لم يقتنع بالرد. وأردف يقول: «هذا بالتأكيد كل ما يمكنهم فعله. فليس لديهم أدنى سبب للقيام بالمزيد.»

أمضى ديفينش بضع دقائق في محاولة تهدئته. وفي النهاية، نهضَ من مكانه.

«حسنًا يا سيدي. سأتصل على هاتف شقتها الآن لأُطمئنك. انتظر هنا من فضلك حتى أعود.»

لم يجد صعوبة في الاتصال بشقة السيدة هوو، ولكن كان الصوت الذي أجابه صوتًا مألوفًا لأحد زملائه من سكوتلانديارد.

«أوه، هذا أنت يا ديفينش؟ جيد! من الذي اتصلت به السيدة قبل بضع دقائق؟»

أجاب المحقق قائلًا: «السيد كيفيم. عرفت لأنه موجود معي الآن. أنا أتحدث من شقته. لا أظن أنك كان لديك الوقت الكافي لتكتشف أي شيء بعد، ولكن ...»

رد زميله مبتهجًا. فقال: «أوه، لقد اكتشفنا شيئًا بالفعل. لقد ارتعدت من الخوف عندما اقتحمنا المكان، وبدلًا من أن تتعامل مع الموقف بهدوء، هُرعت من الهاتف إلى غرفة نومها.»

«تصرُّف ساذَج منها.»

«هذا صحيح. هُرعت خلفها، واستطعت منعها بصعوبة من إلقاء مظروف على السطح الرَّصاصي لفتحة المدخنة بالأسفل.»

«أوه، حسنًا! أوراق خاصة بتلك القضية المجتمعية التي كنت تحقق فيها، أليس كذلك؟»

«كلا. لم نتوصل إليها بعد، ولا أظن أنها رأت هذا الأمر مُلحًّا للغاية. لقد وضعت هذا المظروف أسفل لوحة التحكم في تدفق الهواء الخاصة بالمدفأة.»

صار ديفينش متحمسًا للغاية. «ليست قضيتي بأي حال؟»

رد الصوت بنبرة مبتهجة. «حريٌّ بي أن أقول إنها تبدو كذلك بالفعل! لا توجد أسماء مذكورة، فقط الحرف الأول «م». سأوضح لك فيما بعد، أو إذا كنت ترغب في المجيء إلى هنا ...»

قال ديفينش: «لا تدعها تغادر. ضع رجلًا للحراسة، على الباب الخلفي والأمامي، عندما تغادر. لا أستطيع أن أغادر الآن، ولا يمكننا احتجازها. لم تكتمل قضيتي بالدرجة الكافية، وفي قضيتك يجب التكتُّم على الأمر.»

ضحك المحقق الآخر. «حسنًا. سأتأكد من عدم هروبها. إنها نوعية مذهلة من النساء أيضًا. لقد نفذت الكثير من وقائع الابتزاز القاسية، وعندما واجهناها بالأدلة، كادت تدخل في نوبة هيسترية. تكره تناول الأدوية البغيضة، ولكنها لا تمانع إعطاءها. يا لها من قطة صغيرة دنيئة وقاسية!»

لم يَعُد في مقدور كيفيم التحكم في شعوره بالقلق. وعندما وضع ديفينش سماعة الهاتف، خرج إلى الرَّدْهة.

تساءل في استعجال: «آمل أن يكون كل شيء على ما يرام؟»

تقدمه ديفينش عائدًا إلى الغرفة وأغلق الباب.

وقال في تمهُّل: «ليس على ما يرام تمامًا. حسنًا، سيد كيفيم، أريدك أن تعدني بعدم زيارة السيدة هوو، أو السماح لها بزيارتك هنا حتى أصرح لك بذلك. لا أرى أن هذا سيفيد بشيء سواء لها أو لك.»

صاح كيفيم في ارتباك: «ولكن ما الخطب؟»

هزَّ ديفينش رأسه. وقال: «ليس مسموحًا لي أن أخبرك الآن. سيسعدني أن أخبرك فور أن يتاح لي ذلك.»

بدا كيفيم مذهولًا. دفن رأسه بين يديه، وحدَّق بعينيه إلى الأرض في غضب. ثم رفَع رأسه ثانية.

«الأمر لا يتعلق بالقضية بالطبع، أليس كذلك؟»

أجاب المحقق بجِديَّة: «بل له عَلاقة كافية بالقضية تجعل من المستحسن عدمَ زيارتها في الوقت الحالي، أو الاتصال بها بأي وسيلة. إذا تواصلت معها، فربما يؤدي هذا إلى مشكلة.» ثم أضاف: «لا بد أن أنصرف الآن»، ونهض من مقعده.

أومأ كيفيم، ولكنه لم يبرح مكانه. وسواء أكان بريئًا أم مذنبًا، فقد بدا أنه مُحطَّم تمامًا إثر هذا التطور الجديد في مسار القضية.

الفصل الثامن عشر

في صباح اليوم التالي، عاد الرقيب ديفيز إلى لندن والْتقَى بالمحقق. كان قد أجرى تحقيقات دقيقة حول الأوضاع في جيلوفر، وكان متيقنًا تمامًا من أن الطائرة الجايروكوبتر لم تغادر الضيعة أو المنطقة المجاورة في مساء الأحد الماضي.

أضاف، حين زَمَّ ديفينش شفتَيه في ارتياب، قائلًا: «لا أظن أن ويبلي صريح كما من المفترض أن يكون يا سيدي. ولكنني واثق من أنه لم يُقلع بالطائرة في تلك الليلة.»

سأله ديفينش: «هل أنت متأكد؟»

أومأ ديفيز برأسه. «حسنًا، أظن ذلك. يبدو أنه تورَّط مع السيد كين بشكل أو بآخر يا سيدي، ولكنه لن يتكلم إلا إذا تمكنَّا من الإتيان بدليل ضده، واستدعائه للمحكمة.»

أخذ ديفينش يفكر. ثم قال: «أظن أنه من الأفضل أن ألتقيَ بالسيد كين مرة أخرى، وإذا استطعت أن أحصل منه على أي إشارة تفيدنا، فسألتقي بويبلي بنفسي. بالمناسبة، السيدة هوو متورطة بشكل ما، وأريد منك أن تراقبها. هناك رجلان يقومان بهذه المهمة حاليًّا، تحت إشراف المحقق هيمب، ولكني سأخبره بأنك ستتولى الأمر.»

صاح ديفيز وقد لاحت في عينيه نظرة اندهاش قائلًا: «السيدة هوو يا سيدي؟»

بدت عليه الدهشة أكثر حين شرح ديفينش له آخر التطورات، وأضاف قائلًا: «قضية المحقق هيمب كانت قضيةً غير رسمية إلى حدٍّ ما. وهو لا يستطيع عرضها على المحكمة. ولذا، سنتولى نحن الأمر.»

وبعد عشر دقائق غادر ديفيز، وذهب ديفينش لزيارة السيد كين.

كان كين قد انتهى توًّا من وجبة الإفطار، في وقت متأخر، وكان يستعدُّ للذَّهاب إلى الريف. كانت سيارته ذات المقعدين تنتظر بالخارج حين ظهر المحقق وأخبره بأنه يرغب في التحدث معه.

سأله كين مبتسمًا: «هل ستطيل؟ لقد خططت لأخذ جولة نهارية في مدينة ساسكس، ويجب أن أنطلق الآن.»

أجاب المحقق قائلًا: «الأمر متوقف عليك يا سيدي. نحن لا نطيل أبدًا على الناس ما داموا يجيبون عن أسئلتنا سريعًا.»

عرض كين عليه أن يجلس، وأشعل غليونه، وأخذ يرمقه في استهزاء. وأردف قائلًا: «إذن، لم تحل العقول الفذَّة في شرطة سكوتلانديارد اللغز بعد! أنا مندهش.»

علق ديفينش بجفاء قائلًا: «أها، هذا هو مربط الفرس. أظن أن لدينا بعض الأدلة المتناثرة هنا وهناك، وكان ينبغي أن يكون لدينا المزيد من الأدلة لو أن كلَّ من قابلناهم أخبرونا بالحقيقة دون إخفاء شيء.»

أخذ يحدج كين بنظرة حادة، وبعد بضع لحظات، ردَّ كين عليه بنظرة جادة.

«عدا أنا بالطبع أيها المحقق، أليس كذلك؟»

هزَّ ديفينش كتفَيه. وعقَّب قائلًا: «لست متأكدًا تمامًا من ذلك. لقد سافر الرقيب ديفيز للتو لمقابلة ويبلي، وفي الواقع لديه شكوك إزاء غرضك من زيارتك للرجل يوم الأحد الماضي.»

تساءل كين في غير حذَر، قائلًا: «وهل رجلك ملزم بقبول رواية ويبلي ورفض روايتي؟»

رفع ديفينش حاجبيه. وسأله: «إذن، هناك روايتان للأحداث، أليس كذلك؟»

لاحظ كين أنه قد اقترف خطأً. فعضَّ شفته.

«هذا يجب ألَّا يكون. ولكنك تلمح إلى أن رواية ويبلي لما دار في لقائنا لا تتفق مع روايتي.»

هزَّ ديفينش رأسه نافيًا. ثم قال: «أنا لا ألمح إلى أي شيء يا سيدي. لقد أدلى ويبلي بأقوال معينة.» ثم توقَّف لبرهة لتترسخ تلك المعلومة، رغم أنه لم يذكر شيئًا عن فحوى تلك الأقوال. وأردف قائلًا: «يبدو لي يا سيدي أن ثمة بعض الشكوك حول ملكية الطائرة الجايروكوبتر، أو بالأحرى حقوق المخترع. لقد استولى السيد ماندر على براءات الاختراع، رغم أنه لم يبتكر الطائرة.»

«وما عَلاقة هذا بجريمة القتل؟»

«هذا هو السؤال الذي نأمُل في الحصول على إجابة له بمساعدتك يا سيدي. ربما تكون حقوق هذا الاختراع قيِّمة للغاية ...»

هم كين يقول: «ستكون ...»

قاطعه ديفينش قائلًا: «إذا استطاع ويبلي أن يثبت أنه المخترع. يبدو لي أن ماندر، في حياته، استغلَّ جهل الرجل بالموضوع ليخدعه بخصوص البنود والشروط. هذا إن كان هو المخترع من الأساس.»

«ماذا تقصد؟»

ابتسم ديفينش ابتسامةً باهتة. وأجابه قائلًا: «يبدو أنك لم تدرك يا سيدي أن حُجَّة غيابك غير المحددة تمامًا في تلك الليلة، والتي عجزنا عن التأكد منها بأي شكل من الأشكال، بالإضافة إلى الأدلة القاطعة التي وجدناها داخل المتجر، تجعل موقفك صعبًا للغاية. ربما كانت هناك مؤامرة تُحاك ضد ماندر للنَّيل منه، وربما كان الدافع وراء ذلك له عَلاقة بحقوق براءة الاختراع تلك. فإذا استطعت أن تثبت أن زيارتك لويبلي كانت زيارة بريئة تمامًا، لعلي أستطيع تبرئتك. أما إذا حاولت تضليلنا، فعندئذٍ سنُضطر إلى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة.»

لم يكن كين يعرف ما عرفه، أو كما من شأن ديفينش أن يصفه بطريقته الساخرة، لم يعرف العمق الحقيقي لجهله. بدا له أن ويبلي ربما صرَّح بشيء للمحقق يتناقض مع إفادته. فكر لدقيقة أو دقيقتين، وبدا عليه القلق الشديد، وكان منزعجًا نوعًا ما في قرارة نفسه.

وأخيرًا تساءل: «ما الذي قاله ويبلي؟»

«هذا شأننا يا سيدي. ولكنك لستَ مضطرًا لأن تخبرني أنك ذهبت لزيارة هذا الرجل يوم الأحد لسبب آخر غير الذي ذكرته. فلديَّ ما يشغل بالي، ولا وقت عندي لأضيعه في التراشق بالأسئلة والإجابات. لقد أدلى ويبلي بأقوال معينة كما قلت لك. ومهمتك هي أن تدليَ لي بأقوالك. وإذا جاءت متطابقة مع أقوال ويبلي، ومقنعة بالنسبة إليَّ، فحينئذٍ سيكون كل شيء على ما يرام.»

قطَّبَ كين جبينَه. وسأله بعد فترة صمت طويلة قائلًا: «هل توصَّل رجالك إلى أي أوراق تشير إليَّ عندما فتشوا شقة السيد ماندر؟»

«كلا يا سيدي. لا شيء مطلقًا.»

«هل أفاد ويبلي بأنه هو مخترع الطائرة الجايروكوبتر؟»

«أنت من عليكَ الإدلاء بأقوالك يا سيدي، وليس أنا.»

عضَّ كين شفته.

كان كل ما يعرفه أن ويبلي شرح الآلة لرجال الشرطة. وافتراض أنه لم يفعل سيكون أمرًا خطيرًا. وفي مثل هذه الظروف، ستكون الصراحة التامة هي طوق النجاة.

تمتم قائلًا: «إذن، أعترف بأنك مُحقٌّ أيها المحقق. كنت أحمق حين أخبرتك بما فعلت. لو أنني رأيت حقًّا أنك تشك بأن لي يدًا في هذه الجريمة، لكنت أخبرتك بالحقيقة على الفور.»

«لعلك ستقولها الآن يا سيدي.»

قال كين بمرارة: «سأبذل قصارى جهدي على أي حال. الحقيقة هي أنه عندما افتتح ماندر هذا المتجر، كنت أنا مُفلسًا تمامًا. فبعد أن تركت الخدمة العسكرية، أسست مدرسة طيران. وحققت بعض الأرباح منها، وضعتها في طائرة تجريبية.»

ازداد توتر ديفينش. وثبَّت ناظريه على وجه كين وأومأ له برأسه لكي يُكمل حديثه.

تابع كين حديثه بصوتٍ خافت: «في الواقع، أقصد الطائرة الجايروكوبتر. عكفت على العمل عليها على مدى عامين، وعندما وضعت جميع أموالي في هذه المهمة، أغلقت مدرسة الطيران الخاصة بي، ولم أعرف من أين سأحصل على المال لأواصل العمل. قلصت جميع النفقات إلى الحد الأقصى، وعندما سعيت للحصول على تمويل، وجدت أن ما من أحد سيقترب من آلة تجريبية ما لم أتخلَّ أنا عنها عمليًّا — ولم يُقدِم الكثيرون على القيام بذلك.»

«وهل سجلت براءة اختراع لها يا سيدي؟»

هز كين رأسه نافيًا. وقال: «لم أفعل. لستُ رجل أعمال. كنت أظن أن الناس ربما يبحثون في دورية مكتب براءات الاختراع، ويقلدون اختراعي أو يعدلونه. ولم أكن أملك المال اللازم لرفع دعوى قضائية حال انتهاك حقوقي. وكنت أخشى عرض تصميماتي على المولين للسبب نفسه.»

«وهل كنت تتوقع منهم أن يشتروا سمكًا في ماء؟»

هز كين كتفيه. وعلَّق قائلًا: «أردت التوصل إلى شخص أمين. اللعنة، فالجميع يعرف ماهية المخترعين أيها المحقق. شخص جاء من خلفية عسكرية ليس مدربًا على مثل هذه الأمور.»

«أكمل حديثك يا سيدي.»

«حسنًا، أضعتُ فترةً طويلةً من الوقت، ثم افتتح ماندر هذا المتجر. كانت جميع الصحف تتحدث عن العبقرية التي يتسم بها، وكيف كان يرى الفرص التي لا يراها أحد، والأموال التي كانت في جَعبته. ثم جاء المقال الذي كتبه بنفسه في إحدى الصحف وتحدث فيه عن فرص مشروع الطلبيات البريدية (لم أكن أعرف ما المقصود بذلك حينها) وكيف

يمكن استخدام الطائرات في هذا المشروع. ولم أكن أعرف أيضًا أن هذا المقال كان في أغلبه هُراءً بلا طائل، كتبه له أحد الصحفيين ليثبت أنه سيكون رائدًا حقيقيًّا. ولكن خطر لي أن لديَّ الموهبة والمهارة اللازمتين بفضل طائرتي الجايروكوبتر القابلة للطي، التي يمكن استخدامها للطيران إلى أي مكان والهبوط على أي مكان حيث لا توجد أرضية مناسبة للهبوط.»

«ومن الممكن تعديلها من أجل ذلك.»

«ليس بنفس القدر من الجودة، أيها المحقق. حسنًا، كنت أعيش في فقر مدقع في ذلك الوقت، وكانت الوظائف شحيحة؛ كان العاطلون عن العمل كُثر، ولذا سعيت لمقابلة ماندر وعرضتُ مسألتي عليه. رأيته نذلًا، ولكنه نذل أمين على أي حال. أخبرته بكل ما استطعت إخباره به، وعندما تطرقنا إلى مناقشة التفاصيل، سألني إن كنت أحسبه مختلًّا. قلت له إنني لا أحسبه كذلك، ولكني كنت أعلم ما سيحدث بعد ذلك. فقد سمعت مزحة «شراء السمك في الماء» كثيرًا بما يكفي لتوقع ما هو قادم. ما أسعدني أن ماندر أحجم عن ترديد هذه المزحة وسألني عن خبراتي. فأخبرته، وبدا منبهرًا بعض الشيء. ثم سألني إذا كنت أدرك كم ستكون تكلفة طرح طائرة جديدة في الأسواق.

قربني منه بالطبع لأنني كنت أجيد كل شيء تقريبًا، وكان هو الورقة الرابحة الأخيرة بالنسبة إليَّ، إذا كنت تعرف ما أعنيه. وعندما كان يخوض في تفاصيل وأرقام لا أفهمها، كنت أفقد الأمل تمامًا. لقد كنت أمتلك طائرة رائعة، ولكن ليس أمامي أدنى فرصة لطرحها في الأسواق إلا إذا كنت على استعداد لأن أتوارى بعيدًا عن الأنظار. سألني حينئذٍ عما أظن أنني سأجنيه من وراء ذلك. قبل عامين كان يجدر بي أن أقول مليونًا. ولكن في ظل الواقع الحالي قال إنها يفترض أن تدرَّ لي ألف جنيه سنويًّا طَوال فترة حقوق براءة الاختراع. قال ماندر إنه متشكك جدًّا في هذا الأمر؛ نظرًا لأن الدعاية الصحافية ستكون مكلفة جدًّا، وبوضع كل شيء في الاعتبار، ربما تخفق الطائرة، كما حدث من قبل مع الكثير من الأشياء الجيدة، بسبب فتور الجمهور. لكنه كان على استعداد لتقديم عرض لي على أسس مختلفة.»

أومأ ديفينش برأسه. وعلق قائلًا: «يبدو أنك خضت التجربة المعتادة للمخترعين يا سيدي.»

قطَّبَ كين جَبِينَه. وأردف قائلًا: «بالتأكيد خضتها. حسنًا، أخبرت ماندر أن يطلق عليها اسمًا، وقال إنه سيؤسس قسمًا لبيع الطائرات، وربما يجعلني مديرًا له. ولكن وظيفة كهذه، بألف وخمسمائة جنيه سنويًّا كبداية، كانت وظيفةً ممتازة سيكافح من

أجلها الكثير من الطيارين السابقين. وعلى سبيل تبادل المنفعة، كان عليَّ التحليق بالطائرة الجايروكوبتر سرًّا، وإذا حققت نجاحًا، أو أظهرت أي بوادر نجاح، فسيحصل على براءة الاختراع الخاصة بها، وسيعطيني نسبة من عوائد المبيعات.»

«ولكنك بالتأكيد لم تتخلَّ عن الاختراع بمجرد كلمة منه، أليس كذلك؟»

«لم أفعل! ولكن من هنا جاء دهاء العجوز اللعين. قال لي إنه مهما حدث فلن أخسر، وإذا وضعتُ العرضَ المقدم على ورقة وأوقع عليها، فإنه سيبرم عقدًا ويوقع عليه بتعييني لمدة عشر سنوات مديرًا لقسم الطائرات في المتجر الجديد براتب ألف وخمسمائة جنيه سنويًّا، سترتفع إلى ألفَي جنيه؛ وهو ما بدا وكأنني في ترفٍ ونعيم. بالطبع، كنت أعول على العوائد الإضافية من بيع الطائرة.»

«ألم يَذكُر ذلك في العقد؟»

«كلا. كما ترى قال إن ذلك سيكون غير مُجدٍ في الوقت الحالي؛ إذ ربما لا تحقق الطائرة نجاحًا، ولكن نسبة عوائد المبيعات ستكون عشرة في المائة فيما بعد، إذا سارت الأمور على خير ما يرام. تشبثت بقوة بفرصة الحصول على ألف وخمسمائة جنيه سنويًّا، وكنت في غاية السعادة بمقابلة رجل يتيح لي فرصة لتحقيق النجاح والثراء بعد كل الإحباطات التي تعرضت لها، حتى إنني وقَّعت طائعًا. ولم أفكر قط في أي تصرف خبيث من جانبه.»

أومأ ديفينش برأسه. وأردف قائلًا: «يبدو أنك لست الوحيد يا سيدي.»

«هل تقصد السيدة بيدن-هايث؟ كلا، لا أفترض ذلك أيها المحقق. ولكن دعني أواصل حديثي. وقعت عقد الوظيفة، وبعد قدر كبير من المشاكل من أجل العثور على مكان مناسب، أقلعت بالطائرة وأقنعت ماندر بأنه لا بأس بها. ثم بدأ العمل بتعيين أحد الخبراء لإنجاز الرسومات والتصميمات، واستخرج براءات الاختراع العالمية باسمه. وأخبرني بأن اسمي لن يكون له ثقل كاسمه. بعد ذلك أبرم عقدًا مع إحدى الشركات لتصنيع الطائرات، وبدأ حملة دعاية صحفية. ثم افتُتح المتجر، وتسلمت وظيفتي. عرفت أن ماندر أنفق أموالًا طائلة من أجل الترويج لطائرتي، ولكن بمجرد أن شُرِيت، وثبت أنها عملية، صارت تباع من تلقاء نفسها فعليًّا. سعدت كثيرًا وتحمَّست لما هو قادم؛ لأنني كنت أعرف أنها ستكون طائرة المستقبل، ورأيت نفسي أجني المال سريعًا.»

«أظن أنك لم تحصل على اتفاقك الثاني، أليس كذلك؟»

تجهَّم كين. وأردف قائلًا: «ما ظنك! التجربة التي أقنعت ماندر بقيمة اختراعي كنت أنا من أجراها في حضوره. كان ثمة شاهد واحد آخر فقط، ذلك المدعو ويبلي، وبدا شخصًا أحمق جدًّا، رغم أنه قيل لي إنه ميكانيكي.»

«ولكن ماذا عن الرجال الذين ساعدوك في تصميم النموذج الأول يا سيدي؟»

«النموذج؟ أنا من صممته بنفسي يا عزيزي؛ نظرًا لخوفي الشديد من سرقته. وهذه هي المفارقة اللعينة في الأمر كله؛ لقد أمضيت عامين من عمري أعمل بكدٍّ بلا كلل لأبقيَها متواريةً عن الأنظار، ثم تخليت عنها بثمن بخس! بالطبع، حصلت على راتبي، ولكن كنت أكسب ما كان يكسبه أي رجل في هذا المكان. حسنًا، قبل نحو عشرة أيام، فكرت أن أقابل ماندر وأطلب منه أن يصوغ اتفاقي في عقد قانوني دقيق. وطلبت منه أن يعطيَني نسختي كذلك.»

«وهل فعل؟»

«فعل؟ ضحك الوغد، وأنعمَ النظرَ إليَّ بقوة. سألني ماذا أقصد باتفاقي. بالطبع كان لديَّ اتفاق، ولو أنني أشرت إلى البند الذي تحدثت عنه، فسيسعد بمراجعته. ظننت بالطبع أنه نسي، وشرحت له مقصدي. هزَّ رأسه نافيًا، وقال إنه لأول مرة يسمع بذلك. أدركت ما كان ينويه تجاهي بالطبع، وفقدت أعصابي. وأخبرته بأنه لن يبيع المزيد من طائراتي، وواتته الجرأة لكي يقول إن ويبلي هو المخترع، ومن الأفضل لي أن أستوعب ذلك في أسرع وقت.»

ابتسم ديفينش ابتسامةً باهتة. «ولكن هذا غير معقول! كان بإمكانك أن تحتكم إلى القانون قطعًا، أليس كذلك؟»

«ظننت ذلك، وقلته. فبعد أن أثبتت الطائرة نفسها، شعرت أن بإمكاني اللجوء إلى محامٍ ليتولى قضيتي بأتعاب مشروطة، وأخبرت الملعون بذلك.»

«وماذا كان رده؟»

«تحداني أن أفعل ذلك. قال لي إنني ليس لديَّ شهود، ولا أوراق تُثبت حقي. يمكنني اللجوء إلى أي محامٍ يعجبني. وقال لي يجب أن أسعد بما وصلت إليه، بعد أن كنت مُعدِمًا حين جئت إليه؛ كنت بالحماقة التي جعلتني أخبره بذلك في أول لقاء لنا. جعل قضيتي تبدو بلا قيمة على أي حال، وذهبت مباشرة إلى محامٍ وطلبت رأيه بدون ذِكر أي أسماء، فقط عرضت القضية كما لو أنها تخص صديقًا لي. وجاء رأي المحامي متوافقًا مع رأي ماندر. وقال لي إنني أحمق إذا توقعت إثبات أي شيء بدون وجود شاهد، وبدون وجود عقد مُوقَّع من الرجل الذي يقوم بعملية الاستغلال هذه.»

أخذ نفَسًا عميقًا، ونظر إليه ديفينش في تعاطف.

«وماذا فعلت بعد ذلك؟»

«حسنًا، التقيت بماندر مرتين أو ثلاثًا، وحاولت بكل وسيلة أن أحمله على التصرف بنزاهة. أراد أن يدعيَ أنه المخترع في البداية، وبدأ يعبث بالأشياء في ورشة بالطابَق العُلوي، ولكنه عجز عن إتقان تقنية الديناميكا الهوائية، وعندما بدأ التفاوض على الامتيازات الأجنبية رأى أنه لن يستطيع شرح الجزء النظري من عمل الطائرة التي من المفترض أنه صمَّمها. ومِن ثَمَّ لجأ إلى ويبلي الذي يحظى ببراعة شديدة في الماكينات، ولكنه لا يفقه أيَّ شيء آخر.»

«وفي يوم الجمعة الماضية أخبرني بأن ويبلي هو مخترع الطائرة، وكان يضحك وهو يخبرني بذلك. لم أفقد أعصابي هذه المرة، رغم أنني شعرت بأنني على وشك ذلك، لسبب بسيط ألا وهو أنني لا أعرف عملًا آخر يمكنني أن أحصل منه على راتب كراتبي الحالي. كان يدرك ذلك بالطبع، وقال لي لو أنني لم أكن أحمق لبقيتُ في مكاني وأغلقت فمي. ثم بدأت أدرك أنه ربما يخادعني فقط. فذهبت إلى جيلوفر يوم الأحد لأفضح خداعه.»

«لماذا لم تخبرني بهذا يا سيدي؟»

بدا كين مندهشًا. وأردف قائلًا: «حسنًا، بدا لي بطبيعة الحال أن هذا يوفر لي دافعًا للانتقام لنفسي من ماندر. ولم أرغب في التورط بالمشكلة.»

«ولكن ها أنت الآن تخبرني بالأمر يا سيدي، والمشكلة لم تنتهِ بعد.»

«فعلًا. فقط لو أن ويبلي قال ...» ثم توقَّف، وتغيَّر لونه، وحدَّق في المحقق. ثم أردف قائلًا: «هل تقصد أنه لم يخبر زميلك قط؟»

هزَّ ديفينش رأسه نافيًا. «لم يخبره بما قلته يا سيدي. أنا سعيد لأنك كنت صريحًا جدًّا، ولكن حريٌّ بي أن أقول إن هذا لا يحسِّن موقفك؛ بالمناسبة، أنت لست على وفاق مع كيفيم، أليس كذلك؟»

«هذا ليس خطئي تمامًا أيها المحقق. أستطيع القول إنه يعتقد أنني متغطرس. وأنا لا أظن أنني كذلك. المشكلة أن كيفيم، الذي أحسبه رجلًا محترمًا جدًّا من نواحٍ أخرى، يعاني من عقدة نقص. عندما سمع أنني كنت ملتحقًا بمدرسة خاصة، ثم انضممت إلى صفوف الجيش، تصور أنني أحتقره، وأتعامل معه من هذا المنطلق.»

قال ديفينش وهو يومئ برأسه إشارة إلى تفهُّمه الأمر: «هل يمكنك أن تفسر لي وجود آثار الإطارات فوق سطح الشقة؟ لقد سمعت بها مني.»

عضَّ كين شفته. وقال: «كلا. هل تستطيع أنت تفسيرها؟ أنا لا أعرف شيئًا عن العمل الشرطي السري، وأنا واحد من القلائل الذين لا يدَّعون أنهم يفقهونه. ولكن يخبرني حدسي بأن ثمة شيئًا غريبًا بخصوص هذه القضية.»

وافقه ديفينش الرأي وقال في جفاء: «شيء غريب جدًّا؛ ولكن ماذا على وجه الخصوص؟»

أجاب كين قائلًا: «ثمة أدلة كثيرة على نحو مبالغ فيه. إذا كان الجاني قد قتل ماندر العجوز، لماذا ينبغي أن يترك وراءه كل هذا الكم من الآثار؟ آثار إطارات فوق السطح، وإن كنت على يقين أن ما من طيار يستطيع أن يهبط ليلًا في هذا المكان، سلاح آلي من قسم الأدوات الرياضية، آثار دماء في مِصعدين، والمزيد منها فوق السطح، خنجر مأخوذ من الشقة؛ يا إلهي، إنه تضليل منظم!»

سأله ديفينش وهو ينظر إليه في تأمُّل قائلًا: «هل يوحي إليك ذلك بأي شيء يا سيدي؟»

«لا شيء على الإطلاق، عدا أن الجاني ذو عقل مُشوَّش للغاية. وعرض الجثتين في واجهة العرض هو آخر حماقاته.»

أومأ ديفينش برأسه مرة أخرى ونهض من مكانه. ثم قال: «حسنًا يا سيدي، لا يمكنني أن أبقيك لوقت أطول من ذلك. سأفكر بعناية فيما أخبرتني به. وفي غضون ذلك، لديَّ مُهمَّة أخرى عليَّ أن أنجزها.»

الفصل التاسع عشر

عندما ترك ديفينش كين، كان يميل للاعتقاد بأنه قد حصل على الحقيقة أخيرًا. ما لم يكن كين ممثلًا بارعًا، فإن روايته للأحداث صحيحة، ولم يتبقَّ سوى أن يلتقيَ بالمدعوِّ ويبلي ويتبين منه طبيعة العرض الذي قدَّمه إليه ماندر بالضبط.

وعلى الفور استقل القطار المتجه إلى جيلوفر وتوجَّه إلى الضَّيعة. وجد ويبلي ينظف إحدى طائرات الجايروكوبتر. اغتمَّ الرجل لدى رؤيته، غير أن نظرة الاستياء التي لاحت على وجهه حلَّ محلها نظرة انزعاج حين سدَّد له المحقق نظرةً متجهمة وربَّت على كتفه.

قال المحقق بنبرة قاطعة: «حسنًا يا ويبلي. أريد منك الحقيقة، لقد قطعت هذه المسافة لأحصل عليها. فما أخبرتني به بشأن زيارة السيد كين مساء يوم الأحد الماضي ما هو إلا حفنة من الأكاذيب.»

تمتم ويبلي متجهمًا: «ليست كذلك!»

«بل هي كذلك، وإذا لم تتحدث بصراحة الآن، فسأستدعيك إلى المحكمة للمثول شاهدًا في التحقيق، وهذا سيكون مزعجًا بالنسبة إليك. لقد التقيت بالسيد كين، وأخبرني بأن السيد ماندر الراحل لم يخترع الجايروكوبتر الواقفة هنا. هل هذا صحيح؟»

أومأ ويبلي في عبوس. «هو؟ لم يكن يفقه شيئًا عن المحركات.»

«هل أنت من اخترعها؟»

في تلك اللحظة، بدت على ويبلي أمارات المكر والدهاء. من الواضح أنه كان يتساءل في نفسه إن كان الخداع في هذا الموقف سيكون آمنًا، وفجأة قرَّر أنه لن يكون آمنًا بالمرة.

غمغم وهو يُخرج علبة سجائر ويسحب واحدة منها قائلًا: «كلا، لست أنا يا سيدي.»

قال ديفينش بحدَّة: «لنُنحِّ هذا جانبًا، وأعرني انتباهك! هل ذكر لك السيد ماندر من قبل أي شيء بخصوص الشخص الذي اخترعها؟»

«قال إنني من اخترعها.»

هزَّ ديفينش كتفيه. «بل قال إنك ستدَّعي أنك اخترعتها.»

«هذا ما حدث.»

«وما الذي حصلت عليه من وراء ذلك؟»

«مائتان وخمسون جنيه.»

«هل لديك أدنى فكرة من الذي اخترع الطائرة؟»

تذمَّر ويبلي. ثم قال: «أعرف أن السيد كين يقول إنه اخترعها، ولكني لا أعلم يقينًا.»

«ألا تعلم أن السيد كين جاء إلى هنا ليحدثك بخصوص هذا، وكان غاضبًا جدًّا لأن السيد ماندر حاول أن يحتال عليه ويسلبه حقوق براءة الاختراع؟»

«هذا ما قاله. لا يمكنني أن أجزم بذلك.»

«هل يمكنك أن تخبرني بما قاله بمزيد من الدقة؟»

«حسنًا، أتذكر أنه قال إن السيد ماندر سرق طائرته، وأنه يحاول أن يحتال عليه ويسلبه حقوق اختراعها، وأراد أن يعرف ما تريد أنت أن تعرفه الآن، إن كان السيد ماندر قد طلب مني أن أقول إنني اخترعتها.»

«وما الذي قلته له؟»

«هو قال ...»

«كلا، أريد أن أعرف ما قلته أنتَ.»

بدا الغل على وجه ويبلي. «قلت إن السيد ماندر قد طلب مني ذلك بالفعل، وقد فعلت ما أُمرت به. فأخذ يسب ويلعن، وقال إنه سيحيلها جحيمًا على رأسي.»

«وماذا كان يقصد بذلك من وجهة نظرك؟»

«لم أعرف قصده حينها، ولكن يبدو لي أنه يحاول أن يلصق بي جريمة القتل هذه. فقد قرأت في الصحف أن هناك آثارًا لإطارات طائرة فوق السطح.»

كان في سلوك الرجل شيء مُنفِّر وبغيض، وشعر ديفينش أن العبارة الأخيرة جاءت بعد تفكير. ومن بين روايتَي الرجلين للأحداث، كان يميل إلى تصديق كين.

«إذا وصل الأمر إلى المحكمة، فهل أنت على استعداد لتُقسم على أن الراحل ماندر قدَّم لك هذا العرض، وطلب منك أن تدعي أنك مخترع الطائرة؟»

«أعتقد أنني لا بد أن أفعل، إذا اضطُررت إلى ذلك.»

«هل تُقرُّ بذلك كتابة، أي تكتب إقرارًا بذلك وتوقع عليه؟ هذا لن يضرَّك، بل ربما يساعدك بطريقة أو أخرى.»

فكر ويبلي في طلبه مليًّا، ثم وافق عليه. وعاد مع المحقق إلى الكوخ، وكتب إفادة بالوقائع المتعلقة بالطائرة، ووقع عليها. وبفتور شديد، تمنَّى له ديفينش يومًا طيبًا، وطوى الورقة ووضعها في جيبه. ثم عاد إلى المحطة واستقلَّ القطار التالي المتجه إلى المدينة.

وفور وصوله إلى مكتب سكوتلانديارد، كانت لديه مقابلة مع مفوض الشرطة، ثم استدعاه السيد ميليس، ودخل غرفة مساعد المفوض.

كان السيد ميليس يدخن ويرسُم مخططات بيانية في دفتر الورق النشاف. وفي اللحظة التي دخل فيها المحقق إلى الغرفة، كان قد أكمل رسمًا تخطيطيًّا سيئًا جدًّا لمسدس آلي.

قال بنبرة مرحة: «اجلس أيها المحقق. إن ذهني مشغول بالأسلحة اليوم. أرى مسدسَين، ولولا القهوة لرأيت واحدًا. أظن أنك لم تصل بعدُ إلى أي آثار لذلك المسدس الآخر؟»

هزَّ ديفينش رأسه نافيًا. «كلا يا سيدي.»

قال السيد ميليس وهو يشير للمحقق نحو المسدس بسيجارته: «لقد كنتُ نشيطًا جدًّا اليوم؛ لقد ذهبت لألتقيَ بالحارس. إنه شخص مُسلٍّ، أليس كذلك؟ تُرى هل هو شخص هشٌّ يبدو صُلبًا من الخارج، أم أنه صُلب قلبًا وقالَبًا؟»

بدا الاهتمام على وجه ديفينش. «هذا ما كنت أسأله لنفسي يا سيدي. ظاهريًّا، وحتى عندما التقيت به بعد وقوع الجريمة، بدا رجلًا باردًا مُتبلِّد الحس، ولكن السيد بيدن-هايث يقول إنه جبان، وعصبي كقطٍّ مذعور. بعض الأشخاص العصبيين يتصنعون التجهُّم.»

قال ميليس مبتسمًا موافقًا إياه الرأي: «يشبهون ذلك النوع من الذباب الذي يقف منتصبًا ليبدو كالدبور؛ ولكن لا يمكننا أن نجزم بذلك في هذه الحالة. يومًا ما سيخترع علماء النفس جهازًا لكشف الشخصية. سيقومون بتوصيلك بجهاز كهربائي، وسيكتشفون على نحو مُنزَّه عن الخطأ، إن كنت رجلًا شجاعًا أم جبانًا، رصينًا أم منفلتًا. وبما أننا لا نملك ذلك في الوقت الحالي، فعلينا أن نبذل قُصارى جهدنا بالطرق التقليدية. ما أريد معرفته هو: هل يمكننا الربط بين مان وبين شراء مسدس؟»

«سيكون من الأفضل أن نربطه بدافع يا سيدي. ولكن خطرَ ببالي يا سيدي أنه إذا كان مان رجلًا عصبيًّا متوترًا، فمن المحتمل أن يكون قد زُود بمسدس عندما كُلف بمهام عمله.»

رفع السيد ميليس سماعة هاتفه. وقال: «أعطني رقم السيد كيفيم من فضلك.»

أعطاه ديفينش الرقم واتصل به. وفي غضون دقيقة كان معه على الخط وسأل السيد كيفيم إن كانت الإدارة قد زودت الحارس بمسدس في المساء. وأضاف قائلًا: «مسدس يدوي أو آلي.»

قال كيفيم بنبرة اندهاش: «لا. لو كان لديه مسدس، لأخبرت المحقق قطعًا. ولكن مان بأي حال ليس لديه دافع لقتل الـ ...»

قاطعه ميليس قائلًا: «أوه، حقًّا. شكرًا جزيلًا» ثم وضع السماعة، والتفت إلى ديفينش مرة أخرى.

«لو أن كيفيم هو الجاني فهو لا يظهر الكثير من المؤشرات المعتادة. فلا يبدو متلهفًا لتوجيه الاتهام إلى الآخرين.»

ابتسم ديفينش. وقال: «بالفعل يا سيدي. لقد سألته عن كين الذي يحمل تجاهه ضغينة. ولكنه كان مستاءً جدًّا من الفكرة. قال إن كين شخص متغطرس، لكنه ليس قاتلًا.»

وافقه ميليس الرأي. «حسنًا، يجب أن نُجريَ تحريات مُكثَّفة لنعرف إن كان مان قد اشترى سلاحًا أم لا. أظن أنه لن يزود في «سلاح الإشارات» بأسلحة خفيفة، ولكن يظل من المحتمل دومًا أن يكون قد عثر على تذكار للحرب، أو اشترى مسدسًا من جندي لديه واحد.»

«لقد فُتِّش عندما غادر العمل في صباح يوم الإثنين يا سيدي كما حدث مع جميع المشتبه بهم. بالفعل كان لديه منفذ متاح للخروج أثناء الليل.»

«هل تقصد الباب الخلفي الذي ذكرته؟ أعرف ذلك. هذه هي المعضلة. قم بزيارة زوجته، أو كلِّف أحدًا بزيارتها، واسألها عما إذا كانت قد شاهدت سلاحًا في حوزته. لديَّ انطباع ضعيف بأنه يتستَّر على شخص آخر — لن أذكر أيَّ أسماء — ولكن لا يمكنك أن تجزم بذلك أبدًا.»

صدَّق ديفينش على كلامه. وقال: «حسنًا يا سيدي. أفكر الآن في مقابلة السيدة هوو. إن لم أستطع أن أحصل منها على معلومة، فسيكون هذا أمرًا غريبًا. إن لم يكن لها عَلاقة بجريمة القتل، فلعلها تسعَد بتفسير الملابسات.»

أومأ ميليس. «فلتنفذ على الفور. شكرًا لك أيها المحقق.»

أحيانًا ما تراود السيد ميليس بعض الأفكار، وكان المحقق أول من أقرَّ بذلك، ولكن في أغلب الأحيان يتبين أنها ذات قيمة مؤثرة، لا مباشرة؛ إذ تكون بمثابة البذرة التي يستخرج منها مرءوسوه الأكثر عملية فرضيات عملية قابلة للتطبيق.

إن الغياب الكامل للدافع، بقدر ما يمكن تأكيده، أخرج مان من دائرة الشك من ناحية، لكن ميليس قال إنه يظن أن الحارس كان يتستَّر على شخص آخر، ما قد يشير إلى أنه في حين أنه لم يلعب دورًا فعَّالًا؛ فإنه يعرف شخصًا لعب هذا الدور.

كانت هذه فكرة مساعد المفوض، وكان ديفينش يفكر فيها، كما كان يفعل مع كل اقتراح يخرج من هذا المكتب. ربما تكون حقيقة أيضًا، لكن ديفينش لم يرَها كذلك في تلك اللحظة. وبينما كان في طريقه إلى شقة السيدة هوو أخذ يفكر في الأمر من جميع الأوجه، وفي النهاية تبلورت لديه فكرة مُعدَّلة رأى أنها تتناسب أكثر مع الأدلة التي في حوزته.

ماذا لو أن مان لم يكن يتستَّر على القاتل، بل فقط يظن أنه كان يفعل ذلك؟

إن أي محقق يدرس الأدلة المتوفرة لديه ليس فقط من وجهة نظر مدعي العلم بالمنطق، وإنما أيضًا من منظور مراقب عملي. فلربما يرفض قَبول ما يبدو أنه إفادة بسيطة وعادية ومنطقية من أحد الشهود، بينما يقبل رواية متلعثمة وغير واقعية من آخر. ومثل المحامي الذي يقف في المحكمة، عليه أن يولي اهتمامًا كافيًا بسلوكيات الشاهد وتصرفاته. ولو أن أيًّا منهما لا يتقن علم الفراسة وفَهم تعبيرات الوجوه، فإنه يرتكب أخطاءً.

كان جيمسون بيدن-هايث سيبدو في نظر رجل الشارع العادي شخصًا مخادعًا. لقد أدلى بإفادات كاذبة، وإفادات خادعة في البداية، ولكن ديفينش وضع في اعتباره وجود حل آخر للغز خلاف كونه مخادعًا، ألا وهو تأثير الشراب على رجل يعاقر الخمر لسنوات إلى حد الإسراف. من يصدق، مثلًا، أن رجلًا في مكانة جيمسون يقتحم منزلًا غير مرحب به فيه، ويظل هناك لساعات على أمل أن يلتقيَ بابنة صاحب المنزل عند عودتها من الخارج؟ ولكن ثبتت صحة ذلك. مرة أخرى حرَص القاتل على ترك أدلة زائفة مربكة وراءه، وهو ما يشير إلى درجة من الحذر والدهاء. لقد أسقط جيمسون عُلبة ثقاب محفورًا عليها اسمه، أو على الأقل الأحرف الأولى منه، وتخلَّى عن البحث عنها بعد محاولة قصيرة. والشخص الذي ترك أدلة ربما تورط ثلاثة أشخاص آخرين، كان من شأنه أن يعثر على علبة الثقاب قبل أن يغادر الممر الضيق الكائن خلف المتجر.

كان مقتنعًا في العموم بأن جيمسون قال الحقيقة؛ أي إنه كان موجودًا في الممر الخلفي مساء يوم الأحد، والتقى بمان عند الباب الخلفي في لقاء قصير، ثم قرع الجرس الخاص بشقة السيد ماندر لبعض الوقت دون أن يأتيَه رد. ولكنه التقى بالجندي السابق قبل أن يقرع الجرس، ومن الوارد جدًّا أن يكون مان، الذي اكتشف آثار الجريمة بعد ذلك ولم يكن يدري بما فعله جيمسون بعد أن تركه، قد ظن أن ضابطه السابق قد قتل ماندر.

ولكن إذا كانت فرضية ديفينش صحيحة، فإن مان لم يلتقِ جيمسون فعليًّا داخل المتجر، وإنما افترض وجوده بالداخل حين عثر بالصدفة على جثة السيد ماندر، وظن أن بيدن-هايث يُضمِر ضغينة ضد القتيل. من جهة أخرى، بالتأكيد أخبرته فطرته السليمة قطعًا بأن جيمسون، حتى لو كان مستعدًّا لقتل رجل ظنه عدوًّا له، أليس من المستبعد أن يقتل امرأة شابة أيضًا؟

ولكن كان على ديفينش هنا أن يواجه مرة أخرى واحدة من تلك المشكلات النفسية البسيطة التي تبرز فجأة في كل قضية. لو أن مان ارتكب هذا الخطأ، لثبَت أنه شخص عصبي وانفعالي كما قال عنه جيمسون. ولا بد أنه فقد صوابه تمامًا لفترة قصيرة. وما جعله يتماسك مرة أخرى فيما بعد هو إخلاصه وولاؤه للرجل الذي أنقذ حياته في الحرب. وهذا الأمر ليس مستبعدًا في قضية من هذا النوع؛ لأن غريزة الولاء لشخص ما أحيانًا ما تتفوق على غريزة حفظ النفس.

لم يرتكب ديفينش خطأ الاعتقاد بأن فرضياته جميعًا تُقدِّم حلولًا للمشكلة، ولكنه كان حريصًا على وضع فرضيات تَصلُح لكل جانب من جوانب القضية ومِن ثَم ينطلق منها بطريقة التجربة والخطأ ليستبعد تلك الفرضيات التي لا تصلح. لم يكن قد وضع أيَّ فرضيات بعد فيما يتعلق بقضية السيدة هوو، ولم يحاول صَوغ واحدة حتى يستجوبها بمزيد من التفصيل.

كل ما كان يعرفه أنها كانت تبتزُّ السيد ماندر أو تحاول ابتزازه، إما بمفردها أو بالاشتراك مع إيفي تيومر. كانت قد حقَّقت بعض المكاسب السهلة مؤخرًا على حساب نساء المجتمع الشابات عديمات الخبرة، اللاتي كانت سمعتهن على المحك، فلم تجد أنه من السهل خداع ماندر الداهية الماكر، بالرغم من أن هناك احتمالًا كبيرًا أن الهروب المزمع لماندر بالأموال كان بسبب الضغط الذي مارسته عليه تلك الشابة الخبيثة. وفي هذه الحالة، إما أنه لم يكن يعرف أن إيفي تيومر متواطئة معها، أو أن السيدة هوو كانت تعمل بمفردها، باستغلال بعض الأسرار التي حصلت عليها من الفتاة المتوفاة باعتبارها صديقة لها، كسلاح للضغط.

لم يكن تورُّط السيدة هوو في القضية، حتى إن كان من بعيد، مجديًا على الإطلاق بالنسبة إلى ديفينش. لقد علمته سنوات خبرته أنه بينما قد يُقتل المبتزون أحيانًا بأيدي ضحاياهم اليائسين، فإن من يعيشون على الأموال المدفوعة لشراء سكوتهم لا يَلجَئون إلى العنف. ويختفون تدريجيًّا عندما تتوقف الدجاجة عن وضع البيض الذهبي الذي تبيضه لهم.

عندما اقترب ديفينش من المبنى الكائن به شقة السيدة هوو، تحدث إلى رجل كان يشعل غليونًا بجوار عمود إنارة.

سأل بنبرة هادئة: «أهي بالداخل؟»

تمتم الرجل وهو يبحث عن عود ثقاب آخر: «قطعًا بالداخل يا سيدي.»

الفصل العشرون

كان ديفينش يعتبر الابتزاز واحدًا من أبشع الجرائم، ولم يشعر بأي شفقة تجاه المرأة المنهكة شاحبة الوجه التي انفرد بها بعد دقيقة.

إن الخوف يسلب الوجه بهاءه أكثر من أي شعور آخر، ربما أكثر من الحزن، حتى إنه وجد صعوبة في تصديق أن السيدة هوو الجالسة أمامه الآن هي تلك السيدة الشابة الجذابة المبهجة الجميلة التي التقاها قبل بضعة أيام.

بدا وجهها ممتقعًا وشاحبًا، وظهر هذا الشحوب المزعج بصورة أوضح مع الاستخدام المفرط وغير المتقن لأحمر الشفاه. فقد بدت عيناها وشفتاها متوهجة وسط ذلك الوجه الشاحب. بدت مضطربة ويائسة للغاية، مثلما بدت ضحاياها قطعًا عندما وجدوا أنفسهم في شَرَكها.

لم يكن ديفينش، كونه شخصًا عمليًّا، يُعجَب بالمحتال الوقح أكثر من ذلك الصاغر الذليل، بل شعر باحتقار شديد تجاه هذه الأفعى المحطمة، وأخذ يراقب في عبوس وتجهُّم محاولاتها للتهرب من أسئلته المربكة.

تلاشت كل ذرة جرأة لديها. وجلست منكمشة في ارتعاد وانهزام، وكان في صوتها نبرة خنوع وذعر في آن واحد.

قالت وهي تطلب منه الجلوس: «أنا سعيدة جدًّا بقدومك أيها المحقق. أعرف أنك في منتهى البراعة واللباقة، أما الرجل الآخر الذي أتى إلى هنا فكان فظًّا للغاية. لم يستمع لما قلته. ولم يمنحني الوقت لأشرح أي شيء. لقد خدعني شخص ما التقيت به، وطلب مني الاحتفاظ ببعض الأوراق له وعدم السماح لأحد بالحصول عليها أيًّا كان السبب ...»

ثم توقفت فجأة وعضَّت شفتها. أخذ ديفينش يُحدِّق إليها باهتمام شديد وهو يلوي زوايا شفتَيه، وكان التعبير المرسوم على وجهه بعيدًا تمامًا عن التعاطف أو التفهم لدرجة بثَّت فيها الخوف أكثر من أسلوب هيمب الفظ.

قال بنبرة جافة: «أي أوراق؟»

تابعت حديثها بسرعة. «لم يكن لديَّ وقت لأخبره. لم يكن لينصت. يبدو واضحًا لك أن هذه الأوراق تتعلق بعملية ابتزاز، لكن ما أردت توضيحه هو أنني لم أكن أعلم ذلك، واعتقدت أنها أوراق تخصُّ شيئًا آخر تمامًا.»

بدا أقل جدية. فانتابها شعور بالأمل.

«كما تعلم، بحكم وظيفتي أقوم بالعديد من الأدوار الاجتماعية ومنذ فترة من الوقت التقيت برجل أخبرني أنه مهاجر روسي، روسي «أبيض».»

«حسنًا. ماذا بعد؟»

«حسنًا، كان جذابًا إلى حدٍّ ما، وأطلق على نفسه اسم الأمير تشافالز، ولم أعرف عنه أي شيء، وربما شعرت بالإطراء قليلًا لأنه أبدى اهتمامًا بي، بينما كنت مجرد ضيف شرفي، إذا كنت تفهم ما أعنيه.»

ردَّ ديفينش متجهمًا: «أفهم ما تعنينه.»

تلعثمت وهي تواصل حديثها.

قالت: «حسنًا، مثل معظم الناس، دائمًا ما كنت أشعر بالأسف إزاء الروس المساكين الذين عانَوا بسبب أخطاء لم يرتكبوها، وكنت حمقاء بما يكفي لأصرح بذلك.»

قال بجفاء: «ولكنك لا تبدين امرأة حمقاء.»

«لدينا جميعًا نقاط ضعف أيها المحقق. على أي حال لقد تعاطفت معه لدرجة كان يستحيل أن أصل إليها لو كنت أعلم أنه محتال.»

قال بقسوة مقصودة: «من فضلك، سيكون من الأفضل كثيرًا أن تُكملي حديثك دون إضاعة الوقت في توضيح مشاعرك.»

«معذرة. كنت فقط أحاول أن أوضح لك كيف أن ... لكنك محق تمامًا. ما قصدت قوله هو الآتي: بعد فترة قصيرة، سألني إن كنت مستعدة لتقديم شيء من أجله ومن أجل قضيته، فقلت له إنني مستعدة لذلك. أخبرني أن لديه الكثير من الأوراق الخاصة بخطط مناهضة للثورة، وقد يُقبض عليه وهي بحوزته. سألني عما إذا كان من الممكن أن أحتفظ له بمجموعة من الورق وكذلك بأي خطابات تأتيه. من أين لي أن أعرف أن كل ذلك محض أكاذيب، وأن الأوراق في حقيقتها تتعلق بجريمة ابتزاز؟»

«لكن من المؤكد أن المحقق الذي نفَّذ إذن التفتيش أخبرك بهويته؟»

ترددت لحظة. ثم قالت: «أوه، نعم، لكن الأمير أخبرني أن أعداءه قد يتظاهرون بأنهم رجال شرطة، ويكون بحوزتهم وثائق مزورة. فقد قال إن أبناء وطنه كانوا يستخدمون وثائق وهويات مزورة. كل ما هنالك أني حاولت إلقاء مجموعة الأوراق هذه من النافذة قبل أن أعلم أن زوَّاري كانوا من رجال الشرطة الإنجليزية حقًّا.»

لم يكن ديفينش قد اطَّلع على الأوراق بعد، لكن بسبب هذه المحاولة لتضليله عِلم أنها خالية من اسم السيدة هوو، ولا يمكن أن تكون مكتوبة بخط يدها. ربما طُبعت، باستخدام الرموز أو الأحرف الأولى للإشارة إلى الضحية أو الضحايا.

تظاهر بالتأثر قليلًا. وردَّ قائلًا: «لم أكن أعلم بذلك بالطبع. أي شخص يتولى مهمة كهذه من أجل شخص أجنبي غريب قد يُخدع بتلك الطريقة.»

ردت وقد انفرجت أساريرها بعض الشيء قائلة: «اعتقدت أنك ستقول ذلك. فكما تعرف ليس لديَّ خبرة في التعامل مع مثل هؤلاء الأوغاد.»

حدَّث نفسه قائلًا: «أعتقد أن خبرتك تنحصر في التعامل مع الضعفاء لتحتالي عليهم»، ثم رفع صوته قائلًا: «حسنًا، يمكن إثبات ذلك بسهولة. هل لي أن أسألك أين التقيت بهذا الأمير؛ هل كان يُدعى تشافالز؟»

أرغمت نفسها على الابتسام. وقالت: «نعم، هكذا ادعى، وأنا متأكدة من أنه كان روسيًّا. دعني أتذكر. إنني أذهب إلى العديد من الفعاليات والأحداث الاجتماعية. هل التقينا بالأمسية الموسيقية للسيدة بول وورجر؟»

«أنا من أسألك يا سيدتي.»

«حسنًا أظن أننا التقينا هناك. كان هناك عدد كبير من الأشخاص في هذه الأمسية، حوالي خمسمائة شخص على ما أعتقد. أنت تعرف مدى ضخامة ...»

قاطعها قائلًا: «معذرة، هلا اتصلت بالسيدة بول وورجر، وسأتحدث أنا معها؟»

قالت بحماس: «بالطبع، سأفعل ذلك على الفور.»

عندما عادت، أخبرته أن السيدة وورجر ستتحدث إليه. شكرها، وابتسم لها ابتسامة باهتة، ثم أغلق الباب خلفه، وتوجَّه نحو الهاتف في الرَّدْهة الصغيرة. تفاجأت السيدة وورجر عندما وجدت أن المتحدث هو ضابط تحريات، لكنها أجابت عن أسئلته بسرعة، وأقرت بأن السيدة هوو قد حضرت أمسيتها الموسيقية، لكنها أنكرت معرفتها بأي أمير يدعى تشافالز.

قال: «قد تكون السيدة هوو أخطأت بشأن الاسم. فالأسماء الأجنبية يا سيدتي تكون صعبة، وخاصة الروسية.»

قالت: «الشخص الوحيد الروسي في دائرة معارفي هو أستاذ قدير صاحب آراء ليبرالية. وهو لا يؤمن بالشيوعية الروسية، لكنه أيضًا ضد المتطرفين من الروس البيض. واسمه فينوكولوف.»

قال: «إذن أنتِ لا تعرفين أي شخص روسي بهذا الاسم. شكرًا لك يا سيدتي»، وأثناء حديثه كان يقظًا وظل يُنصت جيدًا لسماع أي أصوات قادمة من الغرفة خلفه، وكان يمسك في يده اليسرى مرآةَ جيب صغيرة، ليتمكن من رؤية باب غرفة جلوس السيدة هوو. وبينما كان يُنهي المكالمة، رأى الباب قد فُتح نحو نصف بوصة، وسرعان ما أُغلق مرة أخرى بهدوء وهو يلتفت.

سألت بلهفة: «ماذا قالت السيدة وورجر؟»

نظر إليها متجهمًا. وقال: «قالت إنها لا تعرف أيَّ أمير يدعى تشافالز.»

بدت السيدة هوو مندهشة، ثم بدا أن فكرةً ما قد طرأت بذهنها. قالت: «ولكن، حسنًا. لا بد أنه كان متطفلًا. هذا النوع من الرجال من شأنه التصرف بهذه الطريقة، أليس كذلك؟»

«هل أنت متأكدة من أنك التقيت به في أمسية السيدة وورجر؟»

«نعم، أغلب الظن.»

قال ديفينش بجدية أكثر من أي وقت مضى: «أتعلمين، تقول السيدة وورجر إنها كانت حريصةً كل الحرص في تلك الليلة على عدم إدخال المتطفلين. دعيني أخبرك أنني أيضًا فكرت في هذا الاحتمال. لكنني علمت منها أن كل ضيف كان عليه تقديم بطاقة زرقاء.»

قالت: «نعم، لكن من الواضح أن هذا الرجل كان مزورًا. أخبرتك ...»

توقفت، وعقدت حاجبيها واتجهت نحو مكتب وعادت ومعها مفكرة صغيرة أخذت تتصفحها سريعًا.

صاحت قائلة: «يا لغبائي! كان عليَّ أن أتذكر. لقد التقيت بهذا الرجل في حفل السيدة باليل. اسمح لي أن أتصل بها بعدها يمكنك التحدث إليها.»

أومأ ديفينش برأسه إيماءة مقتضبة، فوضعت المفكرة جانبًا واتجهت نحو الهاتف.

علت ابتسامةٌ صفراء وجهَ المحقق وهو جالس بمكانه. كان عازمًا على إعطاء السيدة هوو الحبل بما يكفي لتشنق به نفسها، وظلَّ منتظرًا دقيقتين دون حَراك حتى عادت لتعتذر عن تأخيرها في الاتصال، ولإبلاغه أن السيدة باليل سوف تتحدث إليه.

بعدها نهض واتجه ثانية إلى الهاتف.

قال: «المحقق ديفينش من سكوتلانديارد يتحدث.»

ردَّ صوت أنثوي رقيق: «تريد أن تسألني عن شيء أيها المحقق، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدتي. أريد أن أعلم إن كنت تعرفين شخصًا يُدعى الأمير تشافالز، مهاجر روسي ينتمي إلى طائفة «البيض». وأيضًا أريد أن أعرف إن كان من الممكن أن تكون السيدة هوو قد التقت به في منزلك؟»

«نعم، أعرف الأمير. إنه شخص غامض إلى حدٍّ ما، وقد التقيت به مرة أو مرتين فقط. ربما تكون السيدة هوو التقت به هنا، ما دامت تقول ذلك.»

قال ديفينش: «شكرًا لكِ يا سيدتي، أنا ممتن لكِ جدًّا»، ثم أغلق سماعة الهاتف.

وفي الحال عاد إلى السيدة هوو، وأخبرها أن السيدة باليل قد أكدت كلامها، وغادر الشقة معتذرًا عما سبَّبه لها من إزعاج.

فور نزوله إلى الشارع، توجَّه إلى أقرب كابينة هاتف واتصل بمكتب السنترال.

ساعده ذكر رتبته ووظيفته على التواصل في الحال مع أحد كبار المسئولين، الذي سأله عما يمكن أن يساعده به.

أعطاه ديفينش رقمَين هاتفيَّين، وأضاف قائلًا: «منذ دقائق اتصل صاحب الرقم الأول بالرقم الثاني. هل يمكنك إخباري باسم صاحب الرقم الثاني؟ ربما من الأفضل أن تعطيَني اسم وعنوان كلٍّ منهما بحيث لا يكون هناك أيُّ مجال للخطأ.»

في غضون عشر دقائق حصل على رد. «هناك شيء غير مفهوم أيها المحقق. لقد أجرى صاحب الرقم الذي ذكرته أولًا (الشخص الذي قام بالاتصال) مكالمتين: الأولى للسيدة بول وورجر، لكن الرقم الثاني لم يتم الاتصال به على الإطلاق. إنه رقم سيدة تُدعى باليل.»

قال ديفينش وهو يبتسم: «حسنًا. لم يتم الاتصال بالسيدة باليل على الإطلاق. هلا تفضلت بمعرفة اسم الشخص الذي أُجريت معه المكالمة الثانية؟ لقد حصلت على رقم السيدة باليل من دليل الهاتف هنا.»

انتظر مرة أخرى، شاعرًا الآن بالانتصار. وأخيرًا عاد صوت مسئول السنترال مرة ثانية واضحًا.

قال الموظف: «في المرة الثانية، اتصلت السيدة هوو بسيدة تدعى الآنسة مينًّا لاردر، وهي مقيمة بـ ٦٦٦ سلون ستريت.»

قال ديفينش: «أنا في غاية الامتنان لك»، ثم وضع سماعة الهاتف، وغادر الكابينة، وعلى الفور استقلَّ سيارة أجرة متجهًا إلى ٦٦٦ شارع سلون ستريت.

الفصل الحادي والعشرون

شعر ديفينش أنه سمع اسم ميناَّ لاردر من قبل. لكن لم يستطع أن يتذكر أين سمعه تحديدًا. وبينما هو في طريقه، لم يسعَ إلى تخمين الدَّور الذي ربما لعبته هذه السيدة في ملهاة السيدة هوو هذه. فقد احتفظ بعقل متفتح لكل الاحتمالات حتى يلتقيَ بالسيدة نفسها ويكتشف من هي وما قصتها.

عندما وصل بعد بضع دقائق وسمحت له خادمة ترتدي ثوبًا خزاميَّ اللون، بدأ يفهم ما كان مستغلقًا عليه. فالغرفة التي سُمح له بالجلوس فيها كانت مليئة بالمزيد من الأضواء. وأدرك في تلك اللحظة أنه رأى اسم الآنسة لاردر على لوحة إعلانية لإحدى المسرحيات. وأثناء انتظاره، أخذ يفحص في تأمُّل الصور الفوتوغرافية المختلفة الموجودة بالغرفة للآنسة لاردر في أدوار من مسرحيات شكسبير، كما ظل يدقق النظر في وجهها الهادئ الذي يشعُّ ذكاءً، وعينيها الواسعتين، وجبهتها العريضة، وفمها الجميل المزموم.

قال محدثًا نفسه بينما هو عائد إلى مقعده: «إنها هي بالتأكيد. إنها الممثلة التي شاركت في الجولات المسرحية التي تعرض مسرحيات شكسبير، وحققت نجاحًا كبيرًا لدرجة أنها حصلت على دَور الأم الشابة بمسرحية «أيام التيه». لكن ما عَلاقتها بهذه المسألة؟»

ظلَّ منتظرًا خمس دقائق، بعدها فُتح الباب، ودخلت الآنسة لاردر وألقت عليه التحية.

كانت بنيتها الجسمانية كما في الصور، وكان صوتها عميقًا وهادئًا، أما أسلوبها فكان محسوبًا للغاية بحيث يمكنها التخفيف من توتُّر أي زائر مهما بلغ توتُّره.

سألت وهي تشير إليه ليجلس: «هل أنت المحقق ديفينش؟»

قال: «نعم يا سيدتي.»

قالت وهي تجلس بخفة وتسمح لابتسامة باهتة بالظهور على شفتيها الرقيقتين: «لقد اندهشت بعض الشيء عندما أخبرتني خادمتي بقدومك. أنت متأكد من أنك تحمل هذه الرتبة، أليس كذلك؟»

أخرج وثائق إثبات شخصيته، وأخذت تفحص البطاقة ببعض الحَيرة مع اختلاس نظرة سريعة إليه من حين لآخر. قرأ في سلوكها شعورًا بالدهشة وقدرًا من الانزعاج.

سألت وهي تُنعم النظر بوجهه في تأمل: «إذن أنت من اتصل بي منذ قليل؟»

«نعم. لقد طرحت عليكِ سؤالًا يا سيدتي، وأخشى أنني لم أحصل على إجابة صادقة تمامًا.»

ابتسمت مرة ثانية، ولكن ليس بتلك الدرجة من الثقة التي كانت عليها من قبل. قالت: «حسنًا، كنت أظنها مجرد دعابة. أصدقك القول أيها المحقق، لقد جعلتني صديقتي ووكيلة الدِّعاية الخاصة بي، السيدة هوو، أظن أن الأمر كله دعابة ليس أكثر.»

أومأ برأسه. وقال: «لقد اتصلَت بكِ بناءً على طلبي يا سيدتي. لكنها تحدثت إليك قبل أن أتحدث إليك. إذا أخبرتِني بمضمون تلك المحادثة القصيرة، فإن ذلك سيساعدني، ويُعفيك من أي مسئولية.»

عضَّت الآنسة لاردر شفتها. وقالت: «لا أعلم إن كانت السيدة هوو ترغب في ذلك.»

«معذرة، لكن من الضروري أن تفعلي ذلك. فأنا أُجري تحقيقًا مهمًّا، والأمر وثيق الصلة بذلك يا سيدتي.»

أخذت تفكر في صمت بضع دقائق، ولم يقاطعها ديفينش. بدا الأمر له وكأنها تتعمق في غياهب الذاكرة بحثًا عن شيءٍ ما. وعندما عادت لتنظر له مرة ثانية، لاحت في عينيها نظرة أخبرته أنها تذكرت الآن من يكون والقضية التي يعكف على التحقيق فيها. لكنها لم تعلق على ذلك، فقط بدت جادة وقلقة عندما ردت أخيرًا.

قالت: «حسنًا. لقد اتصلت بي السيدة هوو وقالت إنها وشخصين أو ثلاثة آخرين كانوا يمزحون مع بعض الأصدقاء. وقد اخترعت شخصية أمير روسي يدعى تشافالز. وأحد أصدقائها لا يعتقد في وجود هذا الرجل. وسألتني عما إذا كنت أمانع في قول إنني أعرف الأمير وإنها قابلته في منزلي.»

«فهمت.»

«قالت إن صديقها هذا، الذي كان مدمنًا للمُزاح، ربما يقول إنه محقق من مكتب سكوتلانديارد. فكان عليَّ توقُّع ذلك، وفَهم أن هذا كلَّه جزء من الدعابة. بعدها اتصلت

أنت، وأخبرتني باسمك، وبطبيعة الحال أعطيتك الإجابة التي طُلبت مني. أتمنى ألا أكون قد أخطأت في شيء؟»

طمأنها قائلًا: «على العكس، لقد قدمتِ لي مساعدة عظيمة جدًّا. أتسمحين لي أن أسأل عما إذا كنتِ تعرفين السيدة هوو منذ فترة طويلة؟»

قالت: «منذ ستة أشهر فقط. عندما تركت الأقاليم وحصلت على فرصتي في المدينة، عرفتني عليها سيدة في النادي الذي أرتاده. سمعت أنها صحفية وعلى استعداد للعمل كوكيلة دعاية في بعض الأحيان. وجدتها لطيفة جدًّا، بل رائعة إلى حدٍّ ما من نواحٍ عدة. لكنني لا أعرف عنها شيئًا أكثر من ذلك.»

صدقها ديفينش. وقال كذبًا: «وهذا كل ما أعرفه أنا أيضًا. من الواضح أنه كان ثمة سوء فهم يا سيدتي. لكنك ساعدتِ بدرجةٍ ما في توضيحه وإزالته، وأنا ممتن لك كثيرًا.»

ألقى ديفينش التحية وغادر، وبينما هو في منتصف الطريق للباب الأمامي سمع جرس الهاتف يدقُّ بالأعلى. كانت الخادمة ترافقه إلى الخارج، لكنه تركها تلهث على الدَّرَج، وصعِد مهرولًا مرة أخرى إلى الغرفة التي غادرها للتو. جلس وانتظر. كان الهاتف في غرفة مجاورة مباشرة. في هذه اللحظة سمع صوت غلق سماعة الهاتف، ثم صوت الخادمة تتحدث إلى الآنسة لاردر.

أتت إليه الآنسة لاردر على الفور. بدت شاحبة ومنفعلة.

صاحت قائلة: «ما معنى ذلك أيها المحقق؟ لقد اتصلت بي السيدة هوو مرة ثانية للتو وطلبت مني ألا أخبر أحدًا بما قالته لي حال قدوم أحدهم ليسألني. وعندما أخبرتها أنك كنت هنا للتو، صاحت، ولم تقل شيئًا بعدها.»

أجابها قائلًا: «هذا يعني يا سيدتي أن السيدة هوو ليست صديقة أو وكيلة دعاية مناسبة لك. لقد كانت تحاول تضليلي، وبلغت بها الوقاحة أن تجعلك طرفًا في هذه المحاولة. أتمنى أن تتفهمي أنه لا يسعني التصريح بالمزيد في الوقت الحالي سوى الاعتذار عن تطفُّلي للمرة الثانية، والمغادرة.»

غادر بالفعل هذه المرة، واستقلَّ سيارة أجرة أخرى، وعاد مسرعًا إلى شقة السيدة هوو. وعندما نزل عند باب المبنى، اقترب منه الرجل ذو الملابس المدنية، الذي تحدث إليه من قبل.

قال هذا الرجل: «لقد خرجت للتو يا سيدي، وبدت محبطة. تتبعتها، وأخشى أنني تصرفت بحماقة وجعلتها تلاحظ أنني أتعقبها. لذا بعد أن قطعت مسافة نحو مائة ياردة، غيرت رأيها وعادت مرة أخرى.»

قال ديفينش مبتسمًا: «حمدًا لله على حماقتك! لقد عادت بفائدة هذه المرة! لكن فيما بعد، عليك أن تراقبها كظلها، ولا يهم إن رأتك أم لم ترَك. لا تدعها تغيب عن ناظرَيك!»

أومأ الرجل ثم انصرف. صعِد ديفينش إلى الشقة، ودق الجرس. لم يكن هناك رد. أخذ يقرع الجرس لعدة دقائق، وما زال لا يوجد رد. كان سيجد صعوبة في تبرير تصرفه التالي على المستوى الرسمي، لكن الضباط المهَرة أحيانًا ما يكون عليهم التصرف على نحو غير تقليدي. نظر حوله فوجد أن لا أحدَ يراه، فكسر قُفل باب الشقة بسرعة وبمهارة خبير، ودخل، وأغلق الباب خلفه.

لكن بدا أن الشقة كانت خالية. في الخلف، حيث يوجد مخرج للطوارئ، كانت هناك نافذة مفتوحة. نظر منها في رِيبة، ورأى رجلًا يرتدي زيَّ سائق يقف في ممرٍّ ضيق في الخلف وينظر إليه. انحنى ديفينش وأطلَّ برأسه من النافذة، وأشار له بيده إلى مخرج الطوارئ. هز الرجل الذي يرتدي زي السائق رأسه، وأشار بإصبعه في اتجاه الشقة.

عاد ديفينش إلى الغرفة وهو يبتسم متجهمًا. لو أن السيدة هوو فكرت في عدم السماح له بالدخول في هذه اللحظة بالذات، فمن الواضح أنها كانت تأمُل في الهروب بأسرع ما يمكن. أي شخص لم يستعدَّ جيدًا لمحاولة الهرب سيدرك أنه لا يمكن عرقلة الشرطة بهذه السهولة.

أخذ ديفينش يُصفِّر لحن أغنية «أين فتاي الشارد الليلة؟» (وير إز ماي ووندرينج بوي تونايت؟) بينما كان يتجول عبر الشقة ويفحصها بعجالة. ثم عاد إلى غرفة النوم.

كانت هناك خِزانة ملابس طويلة عند أحد الجدران الجانبية. اتجه نحوها وفتح الباب بقوة.

قال عابسًا: «ها أنتِ ذي يا سيدة هوو. حان وقت التوقُّف عن هذه الخدعة، وإدراك موقفك الحقيقي.»

خرجت السيدة هوو من خِزانة الملابس في اضطراب، وهي تبكي في غضب وخوف. حدَّقت إليه في غضب، وأخذت تكزُّ على أسنانها بغضب وقلة حيلة، وفي النهاية خرَّت واقعة على الكرسي شبه منهارة.

أجهشَت بالبكاء وقالت: «أيها الوغد!» وأضافت منتحبة: «يا لك من وحشٍ قذر!»

جلس ديفينش على كرسي آخر وأخذ يتأمَّلها بهدوء. وقال: «يُعجبني اختيارك لكلماتك، ولكن أعتقد أنه يمكننا الآن التطرُّق إلى النقاط الأهم. أتعلمين أنكِ عرقلتِ رجال الشرطة عن أداء واجبهم؟ تلك هي جريمتك الرسمية. أما الجريمة غير الرسمية فهي اعتقادك أنني أحمق بينما أنا لست كذلك.»

أخرج مفكرةً وقلمَ رَصاص، ووضع المفكرة مفتوحة على ركبته، ثم واصل حديثه قائلًا: «ما أريده منك هو شهادة طوعية عن عَلاقتك بالراحلة الآنسة تيومر، وكذلك عن عَلاقتك بكيفيم، مؤخرًا. إذا كنتِ تفضلين مرافقتي إلى مكتب سكوتلانديارد، يمكنك الإدلاء بشهادتك هناك. أما إذا كنتِ لا تفضلين ذلك، فعليك التفضُّل بالإجابة عن أسئلتي الآن، وفيما بعد يمكنك كتابة إفادة رسمية والتوقيع عليها. إذا رفضت كلا الخيارين، فسيكون ذلك على مسئوليتك الخاصة.»

ارتجفت من رأسها حتى أخمَص قدمَيها في غضب، لكنها أجابت بنبرةٍ مليئةٍ بالكراهية قائلةً إنها تُفضل عدم الذَّهاب إلى سكوتلانديارد.

قال ديفينش بهدوء: «رائع. أرجو منك الآن أن تخبريني أين قابلتِ الآنسة تيومر لأول مرة.»

«كنَّا ندرس بالمدرسة نفسها بالريف. كانت ابنة مزارع، وفازت بمنحة دراسية بالمدرسة الحكومية.»

«إذن كنتما صديقتَين؟»

«نعم. كنا صديقتين رائعتين.»

«وأتيت أنتِ إلى المدينة. متى التقيت بها ثانيةً؟»

«قبل افتتاح السيد ماندر للمتجر بنحو شهر.»

رأى ديفينش أنها ستخبره بالحقيقة هذه المرة، خوفًا من أن تتورط بجريمة القتل.

«كانت حينها رئيسة قسم القبعات النسائية، أو وكيلة مشتريات، في متجر أصغر، حيث رآها السيد ماندر هناك وأحضرها للعمل في متجره، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«أتعرفين إن كانت قد التقت بالسيد ماندر من قبل؟ أقصد قبل أن يعرض عليها هذا المنصب؟»

عضَّت السيدة هوو شفتها. وقالت: «نعم. كان يدرس المتاجر الأخرى قبل أن يفتتح متجره، وكان معجبًا بها.»

«هل وصل الأمر لأبعد من ذلك؟»

«أخبرتني أنه اصطحبها لتناول العشاء بالخارج مرتين أو ثلاثًا، وذهبا إلى المسرح معًا.»

«كانت تستأمنك على أسرارها. هل كانت معتادة على إفشاء أسرارها للآخرين؟»

«بالنسبة إليَّ، أجل.»

«هل يمكنك أن تخبريني إن كان تعيينها بمتجر ماندر كان نتيجةً لإعجابه بها بالإضافة إلى كفاءتها في وظيفتها؟»

ابتسمت السيدة هوو بسخرية. وقالت: «لقد كان يحبها بجنون، إذا كان هذا ما تريد معرفته.»

أومأ برأسه. وقال: «بالطبع يجب أن أعرف ذلك. إذن هل صحيح أنها أخبرتك بكل شيء عن عَلاقتهما وبما فعلاه؟»

«نعم.»

«هل أخبرتك أن السيد ماندر كان يفكر في اصطحابها معه للخارج، وأنها كانت ستسافر باسم الآنسة لينكستر؟»

«نعم أخبرتني، على الأقل كان يريدها أن تسافر، واستصدر جوازَي السفر. لكنها لم تكن تعلم أنه يفكر في الهروب.»

«إذن كنت تعلمين أنها سمحت بتزوير هُويَّتها في جواز سفر، وأن السيد ماندر قد استصدر جوازَي السفر؟»

«بالطبع كنت أعلم. هذا ما قلته للتو.»

هزَّ كتفَيه. وقال: «هل أخبرتك يومًا لماذا قبلت خطبتها للسيد كيفيم بينما هي مرتبطة بالفعل بماندر؟»

ردَّت السيدة هوو بمرارة قائلة: «أعتقد أنها ظنت أنها تحب السيد كيفيم.»

رمقها ديفينش بنظرة خاطفة. كان لديه انطباع قوي، من المرارة التي كانت في صوتها والنظرة المرتسمة على وجهها، بأنها هي نفسها كانت مغرمة بالسيد كيفيم، وكانت تشعر بالغَيرة من المرأة التي خطبها.

قال: «لماذا قلت إذن إن الآنسة تيومر «فكرت في السفر» مع ماندر؟»

زمَّت شفتيها. وقالت: «حسنًا، لقد كانت عاجزة عن اتخاذ قرار. لقد أحبت الامتيازات التي استطاع أن يقدمها لها ماندر، وكرهت فكرة التخلي عنها، لكنها كانت ... أكثر ولعًا بالسيد كيفيم. على الأقل في الآونة الأخيرة.»

«أتعنين أنها مؤخرًا شعرت بحب حقيقي تجاه كيفيم، وبعدم الرغبة في الهروب مع ماندر؟»

«لم تكن تعرف معنى الحب!»

قال ديفينش ساخرًا: «أنت خبيرة بالمشاعر الإنسانية الأرق والأسمى بلا شك. لكن ما الذي منَعها من الانفصال عن ماندر ما دامت شعرت أنها لا تستطيع الاستمرار؟»

«قالت إنها تخشى أن يقوم ماندر بفصل كيفيم من العمل. ولا أعلم إن كان هذا صحيحًا.»

أومأ برأسه. وقال: «منذ وقوع الجريمة قمت بزيارة السيد كيفيم، أو زارك هو، حوالي مرتين أو ثلاث مرات، أليس كذلك؟»

لوت شفتيها. وقالت: «أعتقد أن جواسيسك أخبروك بذلك.»

«لقد حصلنا على معلومات بهذا الشأن. الآن أخبريني منذ متى وأنتِ تعرفين كيفيم؟»

صاحت بعنف وقالت: «لا تكن أحمق! كيفيم ليس له أية عَلاقة بالجريمة. إنه لا يجرؤ على إيذاء ذبابة حتى.»

«سنفترض ذلك في الوقت الحاضر، لكن منذ متى وأنتِ تعرفينه؟»

«منذ أشهر قليلة. قبل خطبتهما، كانت إيفي تصطحبه لتناول الشاي هنا في بعض الأحيان.»

«إذن أنتِ لا تعرفينه جيدًا، أليس كذلك؟»

«معرفتي به لا تتجاوز كوني صديقة لإيفي.»

«إذن لماذا زرته بعد وقوع الجريمة بفترة قصيرة جدًّا؟»

احمرَّ وجهها، وتأكَّد ديفينش من صحة فرضياته. بغض النظر عما فعلته، وعن كونها مخادعة، فقد وقعت في حب الرجل الذي نعتته من قبل بالضعيف.

«هذا ليس من شأنك.»

«أنتظر الإجابة.»

«حسنًا، لا أستطيع أن أخبرك بأي شيء آخر. شعرت أنه تعرَّض لظلم شديد، وذهبت لأبديَ تعاطفي معه. أردت تعويضه عن الوقت العصيب الذي مرَّ به.»

«ألم يخطر ببالك أن زياراتك ربما تجعله أحد المشتبه بهم؟»

بدت مذعورة. وقالت: «مطلقًا! ما كنت لأذهب إليه أبدًا لو أنني ظننت ذلك.»

هزَّ ديفينش كتفَيه ثانيةً.

ثم قال: «تعلمين بالطبع أننا فتَّشنا شقة السيد ماندر، وفحصنا جميع أوراقه.»

أجابت قائلة: «افترضت أنكم فعلتم ذلك. فهذا ما تفعله الشرطة دائمًا، أليس كذلك؟»

كان يحاول التحايل عليها ثانية، ولكنه استنتج من تعبيرات وجهها أن السيد ماندر قد تلقَّى منها بعض الخطابات، وأنها ليست متأكدة مما إذا كانت هذه الخطابات قد تُخلِّص منها أم لا. وبما أن هذه هي النتيجة التي كان يحاول الوصول إليها، فقد كان سعيدًا بما وصل إليه.

استأنف حديثه بنبرةٍ جافة قائلًا: «إنني أخبرك بذلك عسى أن يجعلك تتحرين الدقة في إجاباتك. لا نريد أن يكون هناك المزيد من المعلومات الخاطئة في شهادتك.»

كانت من الدهاء بما يكفي لتدرك أن الشرطة لا تنوي المضي قدمًا في توجيه تهمة الابتزاز لها، ومِن ثَم أصبحت الآن أكثر حرصًا على تبرئة نفسها من التورط بأي حال في جريمة القتل.

قالت في عجالة: «لا أحد يمكنه إثبات أنني كنت في الشقة في تلك الليلة. فلديَّ حُجة غياب متكاملة.»

قال: «أتمنى أن تكون أكثر إقناعًا من قصتك عن المهاجر الروسي. لكنني مستعد لسماعها على أي حال، وسوف أتحقق من صحتها. أين كنت مساء يوم الأحد، من السابعة والنصف مساء وحتى، لنقُلْ، السابعة من صباح اليوم التالي؟»

أجابت على الفور قائلة: «كنت برفقة السيد جاي وزوجته في ساندیمور، بمدينة ريدهيل. السيد جاي هو سكرتير تحرير صحيفتي الرئيسية ...»

قال ديفينش: «أعرفه. يبدو هذا جيدًا إلى حدٍّ ما. لكن متى وصلت هناك، ومتى غادرت؟»

«أتى السيد جاي في حوالي الساعة الخامسة ليصطحبني بسيارته. ولم أغادر ريدهيل حتى موعد قطار الساعة التاسعة وخمس دقائق صباح اليوم التالي.»

«حسنًا. يمكننا التأكد من صحة كلامك على الفور. لنَعُد الآن للحديث عن الآنسة إيفي تيومر. ألديك أي فكرة عن سبب ذَهابها لمقابلة السيد ماندر هذه الليلة بعدما قضت اليوم بأكمله مع السيد كيفيم؟ هل التقيت بها في هذه الأثناء، أو اتصلت بك بأي حال لتخبرك أنها ذاهبة إليه؟»

ظلت السيدة هوو تفكر. كانت تدرك تمامًا أن الشرطة يمكنها الحصول على سجل المكالمات الهاتفية، وأي خطأ آخر من جانبها سيجعلهم يشككون في شهادتها. وفي هذه المرحلة لن يُفيدها إلقاء اللوم على القتيلة في تورُّطها بقضية الابتزاز، ومِن ثَمَّ قررت أن

الصراحة هي الخيار الأمثل. فقد كانت تنوي السفر إلى الخارج، خاصة بعد هذه الكارثة الأخيرة، ولن يُسمح لها بالسفر إذا ما وقعت تحت طائلة إدارة التحقيقات الجنائية.

قالت: «نعم اتصلت بي عندما عادت إلى شقتها.»

«وماذا قالت لك؟»

«قالت إنها قضت يومًا جميلًا مع السيد كيفيم، وإنه كان لطيفًا جدًّا.»

«ألم تخبرك بشيء آخر؟»

«حسنًا، قالت إنها متأكدة أن أيًّا من الشركات الأخرى سوف تتهافت عليه، ولن يكون من مصلحة ماندر أن يفصله من العمل.»

«هل ذكرت هذين الاسمين صراحة عبر الهاتف؟»

«كلا، تحدثت عنهما باستخدام الاسم الأول فقط.»

«وماذا بعد؟»

فكرت السيدة هوو لبضع لحظات. كانت أكثر هدوءًا الآن، وتمنت أن تترك انطباعًا جيدًا لدى الرجل الذي بمقدوره أن يفتح أبواب الجحيم عليها إن أراد ذلك.

واصلت حديثها، وقد لاحظ ديفينش باستمتاع مدى كرهها لاستخدام كلمة ابتزاز دون قيد أو شرط، قائلة: «حسنًا، استنتجت أنها تشعر أنها في حالة حب حقيقي هذه المرة. فقد قالت إنها سئمت من عَلاقتها الأخرى ونادمة لأنها تورطت بها من الأساس. كانت ستقابل ماندر لتخبره أنها مخطوبة لكيفيم. وافقتها الرأي في أن وجهة نظرها تلك أكثر حكمة.»

أومأ ديفينش برأسه. وقال: «إذن، لم تكن طرَفًا في عملية الابتزاز؟»

عضَّت شفتها. إنه لأمر غريب مدى حساسية بعض المحتالين تجاه استخدام الاسم الصريح لمهنتهم الحقيرة.

ردَّت قائلة: «أي أموال حصلت عليها من ماندر كانت بسبب حبه لها.»

«بصراحة، هل ابتزته أم لا؟»

«كلا، لم تفعل.»

«هذا ما أريد معرفته. الآن، هل يمكنك أن تخبريني إن كانت قد ذكرت أنها ستزور ماندر في تلك الليلة؟»

«لا. قالت فقط إنها ستذهب لزيارته، لكنها لم تذكر متى ستذهب.»

نهض ديفينش. وقال: «سؤال أخير. أتعتقدين أن الآنسة تيومر كانت تملك سلاحًا ناريًّا أو أي سلاح؟»

هزت رأسها نافية. «لم أسمع بذلك قط. لا أظن ذلك. لكن بالطبع ربما تكون اشترت واحدًا مؤخرًا دون علمي.»

وضع مفكرته وقلمه الرَّصاص جانبًا. وقال: «الآن، هلَّا تفضلت بتَكرار هذه الأقوال على الورق، مستخدمة كلماتك الخاصة، وتوقيعها، وإعطائي إياها. خذي ما تحتاجين من الوقت.»

الفصل الثاني والعشرون

عندما قدَّم ديفينش تقريره وسلم الإفادة الموقعة التي سلمتها له السيدة هوو، عاد إلى منزله، وأشعل غليونه، وجلس يُفكِّر في الموقف عمومًا.

بدأ بإخراج بعض الأوراق، ومحاولة تلخيص ما للمشتبه بهم والشهود وما عليهم، ذاكرًا إياهم بالترتيب الذي يبدو أنهم ظهروا به بطبيعة الحال.

جعل عنوان الصفحة الأولى السيد كيفيم، وكتب يقول:

«لا توجد حُجَّة غياب في هذه الحالة؛ ولكن عدم وجودها، بوضع شخصية الرجل في الاعتبار، في صالحه؛ كذلك أفترض أن جريمتَي القتل قد وقعتا قبل الوقت الذي غادر فيه شقته. شهادة السيدة هوو، برغم احتمال تحيزها له من منطلق حقيقة (أو افتراض؟) حبها له، تميل إلى إقناعي بأنه بريء. دافع الغَيرة، وهو الدافع الوحيد بالنسبة إليه، دافع قوي، ولكن لا يوجد دليل على معرفته بعَلاقة الآنسة تيومر بالسيد ماندر.

السيد كين. الصلة الوحيدة له بالقضية هي امتلاكه قدرًا من المعرفة بالطائرات، وادعاؤه بأنه مخترع الطائرة، التي سرقها السيد ماندر منه، وكراهيته للمدير (وهو ما قد يكون في جزء منه خطأ كيفيم). إن حقيقة أن هناك بعض الأدلة تدين كيفيم ليست معروفة لدى كين. فكيف له، مثلًا، أن يعرف أن كيفيم سيخرج بمفرده في مساء الأحد؟ استخدام رَصاصة مغلفة بالفولاذ، إذا كان المراد من إطلاقها في الحاجز الرملي توريط كيفيم، المعروف بكونه قناصًا، فإن الرصاصة التي أُطلقت على السطح من شأنها أن تشير إلى وجود أدلة مختلقة. ولكن ليس لدينا ما يثبت أن كين هو من اختلق هذا الدليل،

أو أنه تواجد فوق السطح في أي وقت بعد واقعة الهبوط المحظور للطائرة في وقت سابق من العام.

ويبلي. هذا الرجل ليس مثارَ شكٍّ للدرجة، ولكن لا يوجد دليل على أنه هبط بالطائرة فوق سطح الشقة في ليل أحد أيام الآحاد في شهر نوفمبر، بَيد أن قدرًا كبيرًا من الأدلة التقنية تُفنِّد هذه النظرية. رغم ذلك، يجب أن يخضع الرجل للمراقبة. لو أنه لم يقُدِ الطائرة إلى لندن في تلك الليلة، فربما يكون قد سافر إلى المدينة دون أن يعلم أحد بذلك بحكم أنه يعيش بمفرده في كوخ. لقد اعترف أن السيد ماندر قد قدَّم له رشوة ليخدع كين ويسلبه حقوق ملكية اختراعه. ربما لم تكن السيدة هوو هي الشخص الوحيد الذي سنحَت له فرصة ابتزاز ماندر بتصرفاته المخادعة.

السيد بيدن-هايث. نوعية غريبة من الرجال المتعلمين الذين تدهور بهم الحال، ويبدو أنه يحاول الآن تحسين وضعه. به مكرٌ طفولي في بعض النواحي، ولديه طريقة صبيانية للغاية في اختلاق القصص واستبدال قصة بغيرها حين يُكتشف أمرها. في أسلوبه إجمالًا ما يقنعني بأنه ليس من نوعية الرجال الذين يرتكبون جريمة قتل بدم بارد. على النقيض من ذلك، يجب أن أعترف بحقيقة أنه كان إلى حدٍّ ما تحت تأثير الشراب مساء الأحد، وأنه تواجد بالفعل في الشارع الخلفي، وحاول وَفق اعترافه أن يدلف إلى شقة ماندر عبر الباب الخلفي. إن مشاعره تجاه ماندر واضحة جدًّا، وإن كان من السهل أن تُعزى إلى حقيقة أن أمه كانت مغرمة بالرجل، هذا أولًا. وثانيًا أنه سمع شائعات تفيد بأن ماندر يتلاعب برأس المال الذي أمدَّته به السيدة بيدن-هايث. وباعتباره الوريث لأمه، فإن مثل هذه الحقائق من شأنها أن تضربه في مقتل. هناك أيضًا حقيقة أن بإمكانه الدخول إلى المتجر (في ظل تستُّر الحارس عليه، الذي يدين إليه بالولاء ويعمل لديه سرًّا).

السيدة هوو. بدت من نوعية أكثر تعقيدًا من المبتزين من النوعية المعتادة، وإن كانت مثلهم في القسوة والجُبن وسهولة إرهابها مثل ضحاياها عندما يتعلَّق الأمر بالمواجهة. لا شك أنها كانت موضع ثقة الآنسة تيومر، ولا توجد شكوك كثيرة في أن تيومر لم تكن تعي الطريقة التي تنتوي هوو استغلال هذه الأسرار بها. لقد أكدت أنها سمعت عن جوازَي السفر المزورَين، وهو ما يُستشف منه أنها

كانت بصدد استغلال هذه المعلومة للحصول على أموال من ماندر. (ملحوظة: هل من المحتمل أن يكون ماندر قد شكَّ في تورط تيومر في هذه اللعبة كذلك، وقتلها ليضمن سكوتها؟) لقد اتصلت بالسيد جاي في ريدهيل، وأكد حجة غياب السيدة في تلك الليلة.

مان. يُعد هذا أكثر الشهود المحيرين بالنسبة إليَّ من نواحٍ عدة. يبدو أمينًا، ولكنه في الوقت نفسه يبدو أيضًا عنيدًا بطبيعته، رغم ما يقال عنه من أنه شخص عصبي وجبان. خدمته في الجيش لا يُعوَّل عليها بأي حال؛ نظرًا لأن الجنود النظاميين القدامى لم يكن منتظرًا منهم القتال بالضرورة، وكان بينهم بعض الأشخاص المسالمين. من الواضح أنه لم يستطع أن يرى الكثير في المتجر المظلم، بالإضافة إلى تعطُّل الميكروفون، فربما لم يسمع ولو خطوات خافتة، في حين تعمل المصاعد بلا صوت يُذكر. بالإضافة إلى ذلك، فقد اعترف أنه كان يُهمِل واجبات عمله أحيانًا، ليعمل لحساب السيد بيدن-هايث، متقبلًا بذلك وجهة نظر الأخير عن أن أسرته ما دامت تدفع أجر الزمَّار، فإنهم يتحكمون في الإيقاع. وهذا منطق مألوف كفاية بالنسبة إلى رجل بسيط مثله.

وما يُفنِّد تورُّط مان في الجريمة حقيقة أن معطف تيومر وقبعتها كانا جديدَين، وقد أعيدا إلى القسم الذي أُخذا منه. ومن الوارد إلى حدٍّ كبير أن يقوم حارس ليلي بتسلية نفسه في المساء بمشاهدة المعروضات المختلفة في المتجر، ولكن هل للرجل الذي لا يتسلَّم عمله إلا في العاشرة مساءً أن يكون على علم بأن الآنسة تيومر قد اشترت الأشياء المذكورة من متجر ماندر؟»

انتهى ديفينش من تدوين ملاحظاته وتدخين غليونه في اللحظة نفسها. واستلقى بظهره على كرسيه، وقرأ الملاحظات بتمعن، ثم وضعها جانبًا، وترك ذهنه يُقلِّب الموضوعات المختلفة التي أثارتها القراءة.

شيء واحد لفت نظره بشدة، وكان قد غفل عنه، وإن كان عن قصد. لم يذكر القفاز المفقود؛ لأنه ربط بينه وبين قطعة السجاد المفقودة ولم يرغب في أن يربط عشوائيًّا بين أي من هذين الغرضَين وأي شخص على قائمته.

لو كان مان يمتلك مسدسًا، فلا شك أنه أخفاه. فأجهل الناس يدركون أن ثمة عمليات تفتيش ستُجرى حتمًا؛ ومِن ثَم سيحرصون على التخلص من دليل الإدانة. ولو كان مان ضالعًا في الجريمة، لَتخلَّص من قطعة السَّجاد أيضًا.

لم تكن شهادة الخبير، التي طلبتها شرطة سكوتلانديارد بخصوص الرَّصاصة التي عُثر عليها في الحاجز الرملي فوق السطح، لتلقى قَبولًا قاطعًا لدى ديفينش لولا وجود دليل يدعمها، وهو تلك القطعة الصغيرة من السجادة السميكة. غير أن السجادة نفسها أضافت تعقيدًا جديدًا إلى القضية. فما كانت ستُزال، ويوضع مكانها القطعة الاحتياطية، لو لم تكن مُلطَّخة بشدة بالدماء. ولو أنها تضرَّرت إلى هذا الحد، فإن ذلك يدلُّ على أن إحدى الجريمتين على الأقل قد وقعت في ذلك المصعد.

في صباح اليوم التالي، قام ديفينش بزيارة الخبير الذي فحص الرَّصاصة. كان هذا الخبير هو السيد جرين، وهو رجل حازم وقاطع نوعًا ما، كما ينبغي أن يكون الرجال عندما يعتادون الإدلاء بشهادة الخبراء في موضوع تخصُّصهم.

استمع إلى ديفينش، ثم أومأ برأسه، وبدا عليه الاهتمام.

وعلَّق قائلًا: «طبيبكم هذا مثل جميع الهواة. لديه غيض من المعرفة وفيض من الغرور.»

«ولكن ظننت أن ثمة إجماعًا على أن الرَّصاصة كانت من نوع الرَّصاصات العالية السرعة، أليس كذلك؟»

«كان هذا بناء على افتراض أنها خرجت من جسد الرجل، ثم اختفت.»

«وماذا عن طبيعة الجرح؟»

«هذه مُهمَّة الطبيب. أنا لا أشغل نفسي بما هو خارج اختصاصي، ومن المؤسف أن طبيبك لا يفعل الشيء نفسه.»

«هل لديك أي فكرة عن نوعية الرَّصاصة التي قد تكون استُخدِمت؟»

هزَّ الخبير كتفَيه. وقال: «حسنًا، لم تكن رَصاصة مُتشظِّية أو متفجرة. أرى أنه ربما يكون — أقصد الجرح بالتأكيد — نتيجة رَصاصة انطلقت من مسدس عيار ٠,٣٢ مثلًا. وكما تقترح أنت، فحقيقة عدم العثور على الرَّصاص لا تثبت أنها نفذت واستمرت في مسارها حتى اختفت بعيدًا عن الأنظار. فمن شأنها أن تتباطأ سرعتها بسبب الاصطدام بالأنسجة والعضلات، وربما انحرفت بفعل اصطدامها بعظمة.»

«هل من الوارد، في رأيك، أن يعترض طريقها فجأة قطعة سميكة من السجاد؟»

«وارد جدًّا أيها المحقق. نحِّ جانبًا فكرة السرعة العالية في الوقت الحالي.»

«كان طبيبنا مشاركًا في الحرب، ولديه دراية بالجروح.»

ابتسم جرين. وأردف قائلًا: «عليك أن تضع في الحِسبان أن الآراء تتأثر بما يبدو كأدلة مؤيدة. لديَّ صديق شاب يخضع لاختبار طبي، وطُلب منه تشخيص حالة أحد

المرضى، فرأى جبيرة واستنتج وجود كسر. لو أنه لم يرَ شيئًا، فلَربما كان قد اكتشف الشكوى الحقيقية للمريض. لقد لاحظ طبيبكم وجود رَصاصة صغيرة عالية السرعة في مسرح الجريمة. إنه يحسب أنه أخبرك بما اكتشفه من فحص الجرح؛ ولكن الحقيقة أنه كان يخبرك بنوعية الجرح الذي من شأن هذا النوع من السلاح أن يتسبب فيه، إذا كان قد استُخدِم.»

ابتسم ديفينش هو الآخر. وقال: «أجد نفسي أرتكب هذه النوعية نفسها من الأخطاء أحيانًا. حسنًا، هل أنت متأكد تمامًا من أن الرَّصاصة التي وجدتُها لم تخترق جسدًا بشريًّا؟ كان افتراضي بالطبع أن اختراقها للرمال قد نظفها.»

قال جرين عن اقتناع: «لقد مرت عبر الرمال وحسب. ولكن ما رأيك أن نُجريَ تجربة؟ لديَّ مسدس آلي عيار ٠,٣٢ هنا. يمكننا أن نذهب إلى المتجر ونجربه هناك.»

قال ديفينش: «ليس لدينا الجثة اللازمة لذلك.»

ردَّ جرين قائلًا: «يمكننا أن نطلب إرسال خروف معنا إلى هناك. إلى متى سيظل المتجر مغلقًا؟»

«لا نستطيع أن نحدد بعد. لقد تحدث رجالنا مع السيدة بيدن-هايث بخصوص ذلك؛ أو بالأحرى تحدثوا مع محاميها. فهي المالك الفعلي للمتجر.»

أومأ جرين برأسه. وقال: «سوف يكون علينا أن نجعل الخروف يحدد الوقت. فهذا سيعطينا خطًّا عامًّا لسير القضية. هل يمكنك أن ترسل خروفًا، وليكن ملفوفًا بعناية، وسألتقي بك هناك بالسلاح والذخيرة في غضون ساعة.»

قال ديفينش وهو يغادر: «سأرتب ذلك على الفور.»

بعد إجراء الترتيبات لإرسال جسد خروف مذبوح إلى المتجر وتسليمه عبر المدخل الخلفي، ذهب ديفينش لاصطحاب الرقيب ديفيز وذهبا معًا. كان ديفيز مشغولًا بقضية الحارس، ولكن لم يكن لديه شيء يدعو للاهتمام ليرويه.

قال لديفينش أثناء سيرهما معًا: «لا أظن أن الرجل كان لديه سلاح يا سيدي. فلم ترَه زوجته مطلقًا يحمل سلاحًا، ولم تسمع أنه اشترى واحدًا. كما أنها تظن أنه متوتر لدرجة تُعجزه عن استخدام السلاح من الأساس.»

ابتسم ديفينش. «حسنًا، حريٌّ بها أن تعرف ذلك، وشهادتها التي أدلت بها لكَ على انفراد عن افتقاره إلى الشجاعة ذات نفع. ولكنني لا أقبل هذا الاستنتاج بعد.»

عندما وصلا إلى المتجر لم تكن الذبيحة قد وصلَت بعد، إلا أن ديفينش رتَّب مع اثنين من رجال الشرطة في المناوبة لاصطحاب الخروف لأعلى فوق السطح عندما يصل.

وأثناء صعودهما إلى شقة ماندر ودخولهما إياها قال لديفيز: «لا أعرف المقاومة النسبية التي تتيحها أنسجة وعضلات الخروف والإنسان، ولا الفارق الذي يحدث حين تكون الجثة لحيوان نافق، ولكن هذا أفضل ما يمكننا القيام به في الوقت الحاضر، وربما يعطينا إشارة على حد قول جرين. سنُجري التجربة بالأعلى في الهواء الطلق، تفاديًا لارتداد أي شظايا. بالمناسبة، لقد نسيتُ أمر قطعة السجاد الخاصة بالمصعد؛ هلا نزلت وأحضرت واحدة؟»

«ولكن ألن يكون في ذلك إفساد لها باعتبارها أحد أحرازنا يا سيدي؟»

«أقصد أن تأتي بواحدة من المصاعد الأخرى. فجميعها ذات نمط مماثل من السجاد ذي الوبر السميك. أحضر كذلك قطعة مشمع الأرضية الموجودة أسفلها. لعلنا بذلك نوفر ظروفًا مشابهة قدر الإمكان.»

«إذن، هل تعتقد أن ماندر قد أُطلقت عليه النار في المصعد يا سيدي؟»

«لا أعرف. ولا أحد يعرف. ولكننا سندرس مدى احتمالية ذلك.»

أومأ ديفيز برأسه، وانصرف، ثم عاد بعد بضع دقائق بالأغراض التي طُلبت منه. وفي الوقت نفسه تقريبًا، وصل السيد جرين ومعه مسدسان آليان، أحدهما عيار ٠,٣٢، وعلبتان صغيرتان من الذخيرة. كان يتحدث مع ديفينش والرقباء عندما طرق شرطي باب الشقة ودخل ليقول إن الخروف موجود الآن في هذا الطابَق.

قال ديفينش: «سيكون عليك أن تُحضره إلى هنا، يا روبينز. أعرف أنه لا توجد إلا طريقة واحدة للوصول إلى السطح. ضعه بالقرب من أحد الحواجز الرملية.»

لم يكن من المحتمل أن يسمع المتواجدون في الشوارع المحيطة صوت طلقات النار عاليةً للدرجة فوق السطح المرتفع، وكانوا على أي حال سيحسبونه صوت اشتعال عكسي لمحرك ما. وبقدر من المشقة، وُضعت قطعة المشمع على السطح، ومن فوقها قطعة السجاد، وعليها وُضعت جثة الخروف بوضعية من المرجح أن تُتيح اصطدام الرَّصاصة بالسجادة، إذا اخترقت الجثة، ولم يعُقْ طريقها عظمة أو عضلة.

وباستخدام المسدسين تباعًا، بنوعين من الذخيرة، والتصويب على جسد الخروف على مسافة تتراوح بين ثلاث أقدام إلى عشر، أجرى السيد جرين تجربته الصعبة بينما راقبه ديفينش عن كثَب وأملى ملاحظاته على ديفيز، الذي قام بتدوينها في مفكرته. وبعد ستِّ محاولات، فشلت طلقتان في الخروج، واصطدمت اثنتان بإحدى عظام الخروف وخرجتا، واختفتا بسهولة في الحاجز الرملي، واخترقت واحدة كلًّا من المشمع والسجادة، بينما علقت الأخيرة في الوبر السميك للسجادة.

علَّق الخبير أثناء استعراضه هذه الطلقة الأخيرة، قائلًا: «هذه هي النتيجة التي ترغبها أيها المحقق. ولكن طلقة واحدة من ستِّ طلقات ليست كافية. يجب أن نضع الخروف في وضعية أخرى، وسأحاول مرة أخرى.»

قال ديفينش: «من المحتمل أن الطلقة التي أصابت ماندر لاقت القَدْر نفسَه من المقاومة الذي لاقته هذه الطلقة الوحيدة، ولكن، كما قلت، سيكون من الأفضل أن نجرب مرة أخرى.»

أُعيد ترتيب وضع الذبيحة، وأُرسِل ديفيز إلى كبير الخدم بالأسفل ليحضر طاولة مطبخ. وعندما أُحضرت الطاولة لأعلى، وضِعت إلى جانب الخروف، وصعِد فوقها جرين، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة أثناء قيامه بذلك، واستأنف تجاربه.

أسفرت محاولة ثانية من ست طلقات عن عدم نفاذ طلقتين لما هو أبعد من وبر السجادة، وأعلن ديفينش رضاه عن النتيجة الحالية.

أُبعدت الطاولة، وأُزيلت الذبيحة، ونزل الرجال الثلاثة إلى الشقة وجلسوا يدخنون ويناقشون الأمور.

قال جرين: «لو كان ماندر قد قُتل داخل ذلك المصعد، أظن أنك كنت ستجد تلك السجادة السميكة غارقة بالدماء. ولربما تراكمت كمية كافية من الدماء لتترك بقعة صغيرة أسفلها.»

تساءل ديفيز قائلًا: «ولكن كيف أُطلقت النار على ماندر داخل المصعد يا سيدي بينما قُتلت السيدة بالأعلى؟»

«هل أنت متأكد من أنها قُتلت بالأعلى؟»

قال ديفينش: «من المستبعد أن تكون بقع الدماء الموجودة على الرمال خاصة بماندر، لو كان بالأسفل، كما أن الكدمات الموجودة أعلى ذراعها توحي لي بأن أحدهم أمسك بها من الخلف ودفعها أمامه عبر السُّلَّم المؤدي إلى السطح.»

هزَّ جرين كتفَيه. وقال: «ولكن أوما كانت ستصرخ؟»

ابتسم ديفينش. وقال: «لعلها فعلت. ولكني أشك إن كان أحد سيسمعها، أو يأتي ليُنقذها. إذا صرخت من هذا الارتفاع، فسيكون صوتك ضعيفًا جدًّا بالأسفل.»

أضاف ديفيز قائلًا: «وإذا سمعت صرخة من بعيد، فمن الصعب أن تنظر لأعلى في الهواء لتحدد مصدرها في ليلة ظلماء من ليالي شهر نوفمبر يا سيدي. من الغريب مدى صعوبة تحديد مصدر أي صوت في المساء. كما أن الجميع سيظنون أن المتجر مُغلَق في

يوم الأحد؛ ومَن ثَم سيبحثون عن الشخص الذي يصرخ في الشوارع من حولهم، لا فوق سطح هذا المبنى.»

وافقه جرين الرأي. «لم أفكر في ذلك من قبل.»

الفصل الثالث والعشرون

جاء التقرير الخاص بالتربة التي تخلف عليها آثار الإطارات على السطح، مرفقًا به بضع ملاحظات للخبير.

كان من السهل تحليل الطين المجفف، ولكن مهمة تحديد المناطق التي جاء منها هذا الطين كانت مُهمَّة أطول بكثير، وكان ثمة تعليق في واحدة من ملحوظات التقرير أثار حَيرة ديفينش إلى حدٍّ كبير.

يقول كاتب التقرير: «يبدو لي أن هذه التربة بها مزيج معين من السخام والمواد الكبريتية لا توحي بأنها رواسب تكوَّنت حديثًا فوق سطح المتجر. وأميل إلى الاعتقاد بأن هذا الطين المجفف قد ترسَّب على سطح المبنى على مدى فترة ما، وجفَّ بالتناوب بفعل الشمس والرطوبة الناجمة عن الأمطار الخفيفة للغاية التي كانت سمة مميزة لهذا العام. ومن شأن الطين، في حالته الرطبة، أن تعلق به نواتج الدخان المنبعثة في المدينة وتلوثه. والطين في حد ذاته موجود في مناطق كثيرة جدًّا، ولكنه منتشر في مساحة كبيرة للغاية بين لندن وجيلوفر. فعلى سبيل المثال، هناك قطعة أرض بالقرب من قرية هامبلبي، في منخفض على شكل كأس على المنحدر الخلفي للتل الذي بُنيت عليه القرية. ويمكن التحقق من هذا من خلال المسح الجيولوجي.»

قال المحقق محدثًا نفسه وهو يقرأ: «هل لي أن أفترض أن تلك المادة السخامية لا يمكن أن تتكون من الرماد المتخلف في مكان الإقلاع في جيلوفر؟ رجالنا يعملون في نطاق أقرب من ذلك بكثير. بالإضافة إلى ذلك، لو كانت الإطارات موحلة بالفعل، فلا بد أن تظهر جسيمات دقيقة من الرماد.»

أخذ يحلل هذا التقرير وهو يتناول إفطاره. ثم طالَع جدولًا لمواعيد القطارات ليرى كيف يمكنه الوصول إلى قرية هامبلبي، ووجد أن قرية هامبلبي ليست موجودة على خريطة السكك الحديدية، إذ كانت قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي ستين نسمة. وفي النهاية، استقلَّ سيارة شرطة، بصحبة الرقيب ديفيز، وتركها في القرية، وترجلا إلى التل المنخفض نحو المنخفض الموجود على المنحدر الخلفي، أو بالأحرى عند سفحه.

كان ثمة ما يشبه الحوض، مسطح إلى حدٍّ ما وسبِخ في بعض المواضع، ينمو به قليل من العشب نحو المنتصف، ورقع من الطمي المكشوف. أخرج ديفينش خريطة، واطَّلع على اتجاهات البوصلة، واكتشف أن المنطقة تقع تقريبًا على الطريق المباشر بين جيلوفر ولندن، وإن كان في اتجاه جنوبها الشرقي قليلًا.

ودون أن يحدوهما الكثير من الأمل في العثور على أي شيء، نزل المحققان بحرص على منطقة مساحتها نحو نصف ميل مربع، متجاوزَين حدود الحوض أحيانًا. وبعد مرور نحو ساعة، عادا أدراجهما معًا مرة أخرى، دون أن يتمكَّنا من رصد أي شيء.

قال ديفينش، عندما أويا إلى ضفة عشبية، وجلسا، وبدآ يدخنان: «لم أكن أتوقع أن أجد الكثير. الآن، دعني أرى. لقد حصلت على الجرائد التي تحدثت عن تحليق الطائرة الجايروكوبتر. سأقرأ لك أي نقاط بارزة.»

ظل يقرأ في صمت بضع دقائق، ثم شرع يقرأ بصوت عالٍ: ««أقلعت وكأنها فراشة كبيرة كسولة، مرتفعة تدريجيًّا في خط شبه عمودي، محلقة للحظة في الهواء كالصقر فوق الضيعة، ثم جنحت الطائرة الفريدة ناحية الجنوب، وبعد رحلة مثالية هبطت على السطح المستوي للمتجر العملاق الجديد. ولكن غضب بيروقراطيتنا الرجعية الخانقة والمعيقة لكل ما هو جديد لا يعرف حدودًا.» لقد قالوا في الواقع: «ليذهب التقدم إلى الجحيم! أي شيء إلا الالتزام بالقانون.» ولكن انتصرت الجايروكوبتر رغم أنوفهم. فبخُطًى بطيئة ولكن واثقة، شقت طريقها إلى لندن، وهبطت في مساحة لا تزيد عن مساحة ملعب تنس.»

رفع ديفينش عينيه عن الجريدة وضحك. ثم علَّق قائلًا: «ملعب تنس عملاق فوق ذلك السطح. لعله يستلزم اثنين في مهارة تيلدن ليصلا إلى خطه القاعدي بأقوى ضربات لديهما. أتلاحظ التعليق «رحلة مثالية»، الذي وصف بعبارة «بطيئة ولكن واثقة»؟ لا أرى شيئًا يفيدنا هنا. من الأفضل أن نتوجه إلى القرية، ونستفسر في الحانة. أراهن أنهم يتحدثون عن رحلة الطيران هذه الآن، وسيواصلون الحديث عنها لعشر سنوات قادمة. فخبر مثير صغير من شأنه أن يتحول إلى موضوع طويل في مكان صغير كهذا.»

عادا إلى القرية الكائنة فوق التل، وتحدَّثا مع صاحب حانة «سنيج آند سبير» (كلمة «سنيج» تعني ثعبان الماء الصغير، وهو ما يفسر الوقع الغريب للاسم). كان بورلاس، الرجل الذي يقوم على خدمة المكان، رجلًا بدينًا ذا وجه تعلوه البهجة، وقد لقيا منه اهتمامًا فوريًّا باستفساراتهما.

وعلق قائلًا: «رحلة طيران، يا سادة. يا إلهي، لقد رأيتها بوضوح. لقد سمعت صياحًا وصراخًا عاليًا، فركضت إلى الخارج، لأرى الطائرة تُحلِّق فوق الرءوس كنحلة طنانة. لم تكن تشبه أي طائرة رأيتها من قبل، كان معظم السكان هنا يحدقون بالأعلى أيضًا، حتى توجهت نحو التل.»

ابتسم ديفينش قائلًا: «ثم اختفت من المشهد.»

قال صاحب الحانة: «هذا ما حدث. لم تكن على ارتفاع كبير أيضًا، وفي تلك الليلة جاء جون هيجز العجوز، الذي لا يقوم بأي عمل تقريبًا باستثناء الصيد في أرض الغير، وقال إنها هبطت فوق التل وارتفعت ثانية. ولكن لا أحد سواه رآها، واعتُبر كذابًا كبيرًا، وهو كذلك بالتأكيد. لقد أخبر أحد الصحفيين من الجريدة المحلية بذلك، وقام هذا الشخص بنشر الخبر، ثم جاء جون العجوز، وقال إنها قصة مختلقة، وإنه لم يرَها تهبط مطلقًا، ولكنه فقط أراد شيئًا ليتحدث عنه، وربما حصل على مبلغ زهيد لقاء سرده لتلك القصة.»

شكره ديفينش، وذهب مع ديفيز لمقابلة الصياد. ولكن الصياد كان فظًّا وجافًّا. وتمسك بقصته المختلقة، واضطرا إلى تركه دون الحصول على أي معلومة ذات قيمة.

سأله ديفيز وهما عائدَين في السيارة إلى المدينة قائلًا: «هل تظن أنه اختلق القصة يا سيدي؟»

أجابه ديفينش متأملًا: «لديَّ شعور بأن قصته الأولى هي القصة الحقيقية. هذا هو منظوري للأمر: إنه لم يُنكر تلك الرواية للأحداث إلى أن ظهرت على صفحات إحدى الصحف المحلية بعد مقابلة أجراها أحد الصحفيين معه. ولكن لماذا ينشر الخبر ثم ينكره؛ أو بمعنى أصح، لماذا ينشر الخبر على الملأ ثم ينكره بين رفاقه في الحانة؟»

«يبدو هذا غريبًا فعلًا.»

أومأ ديفينش برأسه. وقال: «أجل، يبدو غريبًا إلى أن تدرك أن هذا سيصبح إنجازًا قياسيًّا للطائرة، وسيظهر في الصحف اللندنية بوصفه رحلة طيران «مثالية». لو أنها اضطُرت إلى الهبوط في الطريق، حتى ولو لمدة قصيرة، لأفسد ذلك عنصر المثالية، وجعل الطائرة تبدو أقل أمانًا مما هي عليه بالفعل. لو أن الصياد هو الوحيد الذي رآها تسقط،

لربما رشاه أحدهم. لا شك أن ماندر يحتفظ، أو كان يحتفظ، بقصاصات الصحف التي تتناول المغامرات ليروج للمتجر.»

«ولعله حصل على واحدة من هذه الجريدة المحلية، أليس كذلك؟»

«هذا هو مربط الفرس. ربما أرسل أحدهم بصفة ودية ليخفيَ هذه الإفادة لشاهد عِيان. فورقة بخمسة جنيهات كفيلة بإسكات هيجز. وإلا كان سيعتبر كأحد مثيري الشغب في ليلة افتتاح مثالية. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أُفسِّر بها تغييره المفاجئ لرأيه.»

«إذن، ما الخطوة التالية يا سيدي؟»

«سأذهب إلى مكتب سجلات الأرصاد الجوية للحصول على خريطة لرحلات طيران ذلك اليوم. نودُّ أن نعرف الظروف المناخية للمنطقة الواقعة بين هذه النقطة والمدينة، وبين هذه المنطقة وجيلوفر، والرياح السائدة في لندن وعلى طول الطريق في ذلك اليوم. بعدها سأتجه لمقابلة كبير الخدم بالشقة مرة أخرى.»

«هل تريد أن أرافقك يا سيدي؟»

«كلا. سأوصلك إلى مكتب سكوتلانديارد. ليس لديَّ وقت لأضيعه هناك، ولكن لعلك تلتقي بمفوض الشرطة وتخبره بما اكتشفناه اليوم.»

ترجَّل ديفيز من السيارة فيما بعد، وعندما استأنف ديفينش رحلته سيرًا على الأقدام، وراجع خرائط الطقس التي قدَّمها إليه الخبراء في مكتب الأرصاد الجوية، بدا أكثر سعادة بعض الشيء.

قال في نفسه، وهو يتوجَّه مسرعًا إلى المتجر ويصعد إلى شقة ماندر: «ما لم تكن هناك علة في شهادة كبير الخدم، فقد استوضحت تلك النقطة تمامًا.» وهناك التقى كبير الخدم.

قال للرجل: «أريد أن أعرف إن كان السطح يُستخدم كثيرًا.»

أجاب كبير الخدم قائلًا: «لا يسعني أن أقول ذلك يا سيدي. كما ترى، كان السيد ماندر يستهدف جعْله مهبطًا للطائرات، وعندما وقعت تلك المشكلة، فقد حماسه للأمر نوعًا ما. ولكن ربما كان يصعد إليه في الأمسيات الصيفية دون علمي.»

«أتذكر أنه حاول أن يستخرج تصريحًا للمكان، موضحًا أن الطائرة الجايروكوبتر جاءت عكس كل الآراء فيما يتعلق بالهبوط الآمن للطائرات على المساحات المحدودة.»

«أجل، فعل ذلك يا سيدي. وأُحبط كثيرًا عندما قوبل الطلب بالرفض. ولكني لا أعرف الكثير عن السطح يا سيدي. فلم أصعد إلى هناك مطلقًا، ولا توجد أي وسيلة للصعود إلى هناك من المسكن الخاص بنا.»

تفهَّم ديفينش تلك النقطة. كان يعرف أن ماندر توقَّع إحداث ضجة كبيرة، وتحقيق مبيعات مذهلة من خلال تدشين مشروع الطلبيات البريدية بواسطة طائرات جايروكوبتر تنطلق من سطح المتجر، ولكنه لم يضع في اعتباره تحفُّظ السلطات. ومن المرجح أنه لم يهتم كثيرًا بأمر السطح، الذي صُمم من أجل غرضٍ واحد فقط، ولم يكن يمكن الوصول إليه حتى عبر المتجر؛ وإنما عبر الشقة فقط.

بعد برهة سأله: «من المسئول عن نظافة السطح؟»

هزَّ كبير الخدم رأسه. وقال: «لم يُطلب منَّا مطلقًا الاعتناء به يا سيدي، ولا أظن أنه طُلب من أحد آخر.»

«ربما كُلف بعض عمال النظافة في المتجر بهذا الأمر؟»

«لم أسمع بذلك مطلقًا يا سيدي. كان لزامًا أن يُدخلهم أحد، وأنا لم أرَ أحدًا منهم مطلقًا بالأعلى، ولم أسمع بقدوم أحدهم أيضًا.»

شكره ديفينش وأذِن له بالانصراف، وصعِد إلى السطح بمفرده. وهناك مال على أحد الأسوار وأخذ يدرُس إحدى خرائط الطقس باهتمام بالغ.

أخذ يُفكِّر في نفسه في تأمُّل قائلًا: «يا إلهي! لم تكن الرياح مواتيةً للهبوط في يوم الأحد، يوم وقوع الجريمة، ولكنها كانت مواتيةً في يوم الهبوط الأول. في تلك المرة الأولى، كان من الممكن أن يهبط ويبلي كما تُظهر آثار الإطارات. المآخذ الوحيدة على هذا الأمر هي: أولًا، ثمة معضلة لو أن الوحل ظل هنا طَوال تلك الفترة — رغم قلة المطر هذا العام — وثانيًا، كيف تكون آثار الإطارات على الأرض أرفع من الإطارات نفسها المتوافقة مع الطائرات الجايروكوبتر الموجودة في القسم بالأسفل؟ ربما تكون عوامل التعرية الجوية قد أثَّرت على حواف الوحل بالطبع، ولكني لست متأكدًا من ذلك.»

وأجرى فحصًا موسعًا لآثار الإطارات الموجودة على السطح، ورأى أن الطين من النوعية اللازبة. علاوةً على ذلك، نزل إلى قسم الأدوات المعدِنية، وأحضر رشاش مياه كبيرًا وملأه بالماء، وصعِد به إلى السطح. واختار جزءًا صغيرًا من آثار الإطارات، وسكب عليها الماء بغزارة، ثم تركها لتجفَّ قليلًا بفعل النسيم البارد الذي كان يهبُّ حينها عبر السطح من ناحية الشرق، ثم نزل إلى شقة ماندر مرة أخرى، حيث بحث في غرفة المكتب حتى توصَّل إلى قائمة بعدد رحلات الطيران. وهناك اكتشف سردًا كاملًا للهبوط الرائع على السطح، وفي نهاية المقال، وجد سردًا لمواصفات الطائرة، بقدر التفاصيل المتاح تسريبها.

قال وهو يدوِّن ملاحظة بخصوص حجم الإطارات: «أعتقد أن هذا يحسم الأمر. كان الجو في ذلك اليوم جافًّا، ولكن في اليوم السابق تساقطت أمطار غزيرة في المقاطعات الرئيسية. سأذهب لأرى كيف تبدو آثار الإطارات، ثم أتصل بكين.»

ما أسعده هو أن سكب الماء لم يزل قدرًا كبيرًا من الطين اللازب من على الجزء الذي سُكب عليه الماء. فقد جفَّ أغلبه الآن مرة أخرى بفعل الهواء البارد. لا شك أن أرضية السطح محمية إلى حدٍّ معين بالأسوار من أي شيء باستثناء العواصف.

قال متأملًا وهو ينزل إلى الشقة لآخر مرة في هذا اليوم: «أظن بطبيعة الحال أن هذا السطح يُنظف ويُمسح بانتظام، أو كان حريًّا بي أن أفكر في ذلك من قبل، ولكن أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي مطلقًا.»

وبعد دقيقة، اتصل بكين هاتفيًّا وأخبره بآرائه. ضحك كين. وقال: «كان حريًّا بي أن أخبرك بأننا رأينا أن من الأفضل وضع إطارات أكبر في عربات الهبوط للطائرات التالية. لم أذكر تلك الحقيقة؛ لأنني ظننتك تشير إلى رحلة أقلعت في ليل الأحد حين قُتل ماندر.»

«وأنا لم أتحقق من ذلك الأمر مطلقًا؛ لأنني كنت مقتنعًا تمامًا بأن الطائرة جاءت في رحلتها الأولى مباشرة من أرضية الهبوط الصُّلبة الموجودة في جيلوفر، يا سيد كين. أرى الآن أن ويبلي أجرى حتمًا هبوطًا اضطراريًّا، وتُكتِّم على الأمر عندما تسرَّب الخبر إلى تلك الجريدة المحلية. سأزور ويبلي مرة أخرى، لأتأكد من ذلك بنفسي، ثم أحدد الموضع الذي وصلتُ إليه. لقد كان الدليل الخاص بآثار هذه الإطارات من بين السمات المحيرة لهذه القضية. بمجرد استجلائه، سأتمكن من التصريح بأن الجاني لم يأتِ إلى هنا عبر الجو، بصرف النظر عن الطريقة التي جاء بها.»

قال كين: «أنا متأكد من أنه لا يمكن أن يكون قد جاء عبر الجو، ليلًا، وبدون مصابيح إضاءة للهبوط.»

وضع ديفينش سماعة الهاتف، وخرج إلى الشارع، وتوجَّه سريعًا إلى جيلوفر. وحين عاد كانت خطواته أكثر تمهلًا، بعد أن حصل على ما أراد. عندما سمع ويبلي أن هذه الشهادة ستبرئ ساحته، اعترف على الفور بصحة هذه الفرضية. في يوم الرحلة المثيرة، هبط بالقرب من قرية هامبلبي، ولكن حين وجد أن المشكلة ليست خطيرة كما كان يعتقد، أصلحها، واستطاع أن يقلع مرة أخرى في غضون خمس وعشرين دقيقة. وقال إن قوة الرفع الخاصة بالطائرة هي فقط ما مكَّنته من الابتعاد عن ذلك الطين الزلق. وقد أبلغ السيد ماندر بتلك الواقعة، وأمره السيد ماندر بألا يذكر شيئًا عن هذا الأمر.

قال ديفينش: «ولكنَّ ثمة شخصًا آخر تحدث عن ذلك. هل حلقت فوق قرية هامبلبي؟» أومأ ويبلي برأسه بالإيجاب. «أجل، المدير أعطاه ورقة بخمسة جنيهات، ورأيت رجلًا عجوزًا يُدعى ويجز، وهو من أخبر الصحفي أنه رآني أهبط، ولكنه حصل على وعدٍ منه بأن يقول إنه اختلق القصة. فلم يكن في صالح الطائرة بأي حال يا سيدي إذا عُرف أنها سقطت في أول إقلاع لها.»

الفصل الرابع والعشرون

كان السيد جرين يمتلك متجر أسلحة في شارع نيو بوند ستريت، وقام ديفينش بزيارته في اليوم التالي وتبادل معه حديثًا قصيرًا. وعندما خرج من المتجر، ربَّت أحدهم على كتفه، فاستدار ليجد أمامه جيمسون بيدن-هايث.

كان وجه جيمسون يشعُّ بالابتسام. ولأول مرة منذ أن التقى بديفينش بدا في حالة من الابتهاج والنشاط. كان وجهه متوردًا قليلًا، وعيناه أكثر صفاءً، وأسلوبه أقل فتورًا من ذي قبل.

قال: «مرحبًا أيها المحقق، أنت أكثر شخص كنت أرغب في رؤيته. هاي العجوز مشغول، ويريد أن يعرف متى يمكن افتتاح ذلك المتجر اللعين مرة أخرى. لقد كتب إلى والدتي بخصوص ذلك هذا الصباح.»

فكر ديفينش لبرهة. ثم قال: «لا يمكنني أن أحدد. أتمنى أن يكون ذلك قريبًا.»

«قريبًا، حقًّا؟ أظن أننا في طريق العودة إلى المسار الصحيح أخيرًا. وبالمناسبة، ما رأيك في تناول فنجان من القهوة معًا؟ ثمة محل للحلوى والمشروبات قريب من هنا.»

ابتسم ابتسامة واسعة قليلًا وهو يقول هذا، وابتسم ديفينش أيضًا.

«شكرًا لك.»

قال بيدن-هايث وكأنه يخبره سرًّا: «الحقيقة أنني من نوعية الأشخاص الذين يخاطرون بكل شيء من أجل النجاح في شيء واحد. لا تعرف إن كنت قد أقلعت عن الشراب تمامًا أم غارق فيه حتى الثمالة. ولكني بدأت أعتاد تدريجيًّا على المشروبات غير الكحولية؛ رغم أن مشروب الكاكاو قد غلبني قبل أن أبدأ سباق الإقلاع عن الكحوليات. بالمناسبة، هل أخبرتك بأن عليك أن تبارك لي؟»

هزَّ ديفينش رأسه نافيًا، وهو يهمُّ بالدخول في أعقاب جيمسون إلى المقهى الأنيق. ثم قال مستشعرًا مصدر ذلك التألق الجديد البادي عليه وتلك المحاولة المستميتة «للحفاظ على سريتها»: «كلا، لم أسمع الخبر يا سيدي.»

تقدَّم جيمسون الطريق وقاده إلى ركنٍ هادئ وطلَب فنجانَين من القهوة. قال: «تفضل سيجارًا.» ثم أردف قائلًا: «لا ألتفت كثيرًا إلى الحِكم الفلسفية أيها المحقق، ولكن يا إلهي، هذه المرة كان الصبر مفتاح الفرج فعلًا. أتعرف، إنه أطرف شيء في العالم. أقصد مرابطتي في منزل السيد ويليام لساعات وأنا ثمل بعض الشيء.»

علق ديفينش ضاحكًا وهو يشعل سيجاره: «أتظن أن ذلك قد أحدث تأثيرًا يا سيدي؟»

قال جيمسون وهو يشعل سيجاره هو الآخر: «قطعًا أحدث تأثيرًا. شيء لم أكن أحلم بالقيام به وأنا بكامل قواي العقلية، ولكنه أتى بثماره. ظننت أنه حريٌّ بي أن أخبرك، بما أنك تعلم كم كنت أحمق.»

أومأ ديفينش. «السيدة نفسها، أليس كذلك يا سيدي؟»

«بالتأكيد. الحقيقة أنني كتبت إليها، وأخذت خطوة. أنا مدين لها بذلك. وهكذا ترتبت الأمور؛ وهذه القهوة شاهدة على ذلك. أنا رجل محظوظ جدًّا أيها المحقق!»

هنَّأه المحقق من كل قلبه. لقد رأى شيئًا طيبًا وجذابًا في رفيقه؛ شيئًا ساعد في تفسير إخلاص مان لضابطه السابق.

واستطرد جيمسون قائلًا: «لقد تعامل السير ويليام أيضًا مع الأمر باحترام شديد، رغم أنني لا أعرف إن كان سيستهويه أن يراني ببذلة السجن الأنيقة، كما يسميها الخياطون؛ أظن أنني قد شُطبت من قائمتك بلا شك أيها المحقق؟»

«أعتقد أنني أستطيع طمأنتك بشأن هذه النقطة يا سيدي. يخيل إليَّ أنك ستتمكن من ارتداء ثيابك الرسمية الأنيقة المعتادة. أما بخصوص مان، فثمة نقطة أو اثنتان صغيرتان أود أن أستوضحهما.»

ضاقت عينا جيمسون قليلًا، ثم أومأ برأسه. وعلَّق قائلًا: «تابع حديثك.»

«أود أن أعرف التوقيت الذي تحدثت فيه إلى مان عند الباب الخلفي للمتجر، بالتقريب قدر استطاعتك.»

أخبره جيمسون بما أراد. ثم قال: «أي شيء آخر؟»

«في رأيك، كم من الوقت استغرقت في الحديث؟»

«أظن من عشر دقائق إلى ربع ساعة. من الصعب أن أحدد بالضبط.»

«هل تركك بعد ذلك وأوصد الباب، ولم يخرج ثانيةً؟»

«دخل، وسمعته يوصد الباب، ولكن لا أستطيع أن أحدد إن كان قد خرج مرة أخرى. ربما خرج في وقت لاحق، لا أعلم.»

«ألم يطلب منك أن تأخذ شيئًا لتسليمه بدلًا منه؟ لا أظن ولو للحظة أنه فعل ذلك، ولكن يجب أن أسأل.»

«كلا. كن على يقين تام من ذلك. فأنا أكره حمل تلك الطرود اللعينة، حتى إن كانت لا تزن جناح بعوضة، وبالتأكيد لم يكن مان ليُقدِم على التفكير في تكليفي بذلك.»

أومأ ديفينش. ثم قال: «بينما كنت واقفًا في الشارع الخلفي، ألم تسمع صوت طلقة نارية أو صرخة؟»

«إطلاقًا. عجبًا لك، ما زلت ترتاب في أمر مان العجوز. هذا يبدو لي مضيعة للوقت. فما كان ليفعلها؛ فليس لديه سبب لفعلها، وما كان ليفعلها لو كان لديه سبب.»

فرغ ديفينش من تناول قهوته، وأخذ نفَسًا من سيجاره، وثبَّت ناظرَيه على وجه جيمسون الذي بدا ممتعضًا نوعًا ما.

«هل سبق أن خطر ببالك يا سيدي أنك كنت تحمل ضغينة ضد القتيل، وأن الحارس كان يعلم بها، ولربما بالغ في شعوره بمرارتها؟»

«مان؟ حسنًا، ربما فعل. لقد كنت أستخدم لغة ساخطة جدًّا في الحديث عن هذا النذل.»

«إذن، كان يعرف أنك تقف في الشارع عندما عاد إلى الداخل وأغلق الباب، وأنك على بُعد بضع ياردات من السُّلَّم الخاص بماندر. لعله قال في نفسه إنك دخلت، وبما أنك لم تكن في وعيك، ارتكبت الجريمة.»

حكَّ جيمسون رأسه. وأردف قائلًا: «إنه رجل عنيد بعض الشيء بالفعل، ولكنه بالتأكيد لا يحسب أنني أتجوَّل في غرب لندن، وأنا مُدجَّج بمسدس، أو سلاح، أو أيًّا كان اسمه في الأفلام. لا أقول إنه لن يبذل نفسه في سبيل حمايتي، لو كان يعتبرني قاتلًا هاويًا؛ لأنه أكثر رجل قابلته في حياتي حفظًا للجميل إلى حد يشعرك بالخجل. ولكنه إذا كان يعتقد أنني قتلت الرجل، فلماذا تصور أنني مثَّلت بجثة الفتاة بتعليقها في واجهة العرض؟ أكان يظن أنني عاشق مُحطم الفؤاد أنا أيضًا، مثل ذلك المدعو كيفيم؟»

ضحك ديفينش. ثم قال: «هل أنت مهتم بأمره يا سيدي؟»

«يجب أن أكون مهتمًّا يا عزيزي. إنه يجبرني على هذا! مان أشد وفاءً من الكلاب عندما يضطلع بمهمة الحراسة. ولكني سأكون في غاية الأسف حقًّا إذا وقع له أي مكروه.»

كان ينظر إلى ديفينش بنظرة من الجدية والتساؤل وهو يقول ذلك، وهزَّ المحقق كتفَيه.

«إنه يواجه خطرًا كبيرًا جدًّا بالاعتقال في اللحظة الراهنة يا سيدي، وكنت أتساءل عما إذا كان لك أي تأثير عليه.»

حدَّق جيمسون في ذهول. «لا تكن أحمق! اعتقال، بأي تهمة؟»

قال ديفينش بنبرة جادة: «إنه يعرف أكثر مما صرح به. لو كان لديه قدر من الحكمة، لخرج منها سالمًا.»

«ولكنك تضيع الوقت بملاحقته. ماذا عن كل هذه الأدلة، وكل هذه القرائن التي عثر عليها رجالك؟»

«وماذا عن تواجده في المتجر حتى الساعة التاسعة صباحًا في ذلك اليوم، بينما تنتهي نوبة حراسته ويغادر المتجر عادة في الساعة الثامنة؟»

«وماذا في هذا؟ لم يكن ليتسكع في المكان لو كان مذنبًا، أليس كذلك؟»

«لم يكن ليهرب لو كان مذنبًا.»

«ويسلم نفسه، كلا. ولكن كان سيعود إلى المنزل في الموعد المعتاد.»

هزَّ ديفينش رأسه نافيًا. وأردف قائلًا: «ويمكث في المنزل ويتساءل ما إذا كان موضع شك؟ هذا النوع من الرجال يودُّ أن يعرف أسوأ السيناريوهات. وإذا كان رجلًا عصبيًّا كما تصفه أنت وآخرون، فهذا ما كان سيفعله.»

«هذا احتمال قائم. ولكن ماذا عن الأدلة والقرائن؟»

أجاب المحقق بتمهُّل قائلًا: «تلك الأدلة الملتبسة والمحيرة توحي لي بأن الفاعل لم يُبيِّت النية مسبقًا لارتكاب الجريمة، ولكنه قرَّر في النهاية ضرورة التعتيم على القضية، وتوسيع دائرة المشتبه بهم، حتى لا نصل إلى الجاني الحقيقي.»

بدا على جيمسون الاهتمام. وعلَّق قائلًا: «لا شك أن هدف القاتل أن يُفلت بسلام، أليس كذلك؟ فإذا ترك وراءه أدلة زائفة، فلا بد أن يكون هذا بهدف توريط شخص آخر، ونفض الشكوك من فوق كاهله. وشخص بهذه الجرأة والقسوة لن يهتم بمن سيقع في المصيدة.»

«بالضبط يا سيدي، لا سيما إذا كان قد ارتكب جريمة قتل واتسم بالجرأة وقسوة القلب.»

«ولكنك تتحدث عن اعتقاله بتهمة القتل.»

«لم أقل قتلًا يا سيدي. الواقع أنه قد استُجلِيَت حقيقة دليل أو اثنين من الأدلة المحيرة. أعرف أن الطائرة لم تهبط على السطح في مساء يوم الأحد ذاك. وأعرف لماذا ذهبت الآنسة تيومر لزيارة ماندر، وفي رأيي أنه لم يكن هناك سوى جريمة قتل واحدة.»

«صديقي العزيز!»

أضاف ديفينش متجهمًا: «وجثتان! حسنًا، لعلِّي قلت أكثر مما ينبغي. أقصد أنني مقتنع بأنه لم يكن هناك سوى جريمة قتل واحدة فقط.»

«قتل وانتحار. فهمت ما تقصده.»

«ليس بالضبط. ولكن يجب ألَّا أقول أكثر من ذلك في الوقت الراهن.»

أومأ جيمسون. وقال: «حسنًا. أترغب في فنجان قهوة آخر؟»

«كلا، شكرًا لك. ولكن سأكون سعيدًا إذا ما استطعت أن ترافقني لزيارة مان. أود أن أطمئنه بأنك لم تَعُد تواجه خطر التورُّط في الجريمة، وأريد منك، فضلًا، أن تُقنع مان بأنه خير له أن يقول الحقيقة.»

أشار جيمسون إلى النادلة، ثم نهض من مكانه. وقال: «هيا بنا! سنستقل سيارة أجرة من الخارج، وننطلق على الفور. أشعر بأن من النذالة ترك ذلك الرجل يتورط في الأمر. زوجته أيضًا سيدة في غاية الاحترام واللطف. ولكن أشك أن باستطاعتي أن أجعل الأبكم يتحدث.»

غادرا المقهى واستقلا سيارة أجرة إلى منزل مان. كان قد استيقظ توًّا، على حد قول زوجته، وجلسا في الرَّدْهة الصغيرة وانتظرا خمس دقائق حتى نزل مان واستقبل جيمسون بسعادة بالغة. وحيَّا ديفينش باحترام، ولكن دون كثير من الحفاوة.

قال جيمسون وهو يمدُّ يده بعلبة سجائره: «خذ سيجارة يا مان. لقد جئت أنا والمحقق إليك لإجراء استجواب معك، وسنبدأ بالخبر السار بأنه قد انتهى من استجوابي، وجاء الحكم بـ «عدم ثبوت التهمة». ما زلت حرًّا، كما سيخبرك صديقي الآن.»

قال مان وهو ينظر نظرةً متوترة إلى المحقق المتبلد الحس: «يسعدني سماعُ ذلك، ولكن ما من أحدٍ بوسعه أن يظن أن بإمكانك فعلها يا سيد جيمسون.»

«بل فعلوا يا صديقي العزيز، فعلوا! ولكننا الآن نعمل على تحسين الأمور، ونودُّ أن نرى معك شهادة رسمية بالبراءة، إذا كنت تفهم ما أعنيه. الحقيقة يا مان أنك كنت غامضًا أكثر من اللازم في هذا الصدد، والمحقق لا يروق له الغموض. إذا كان هناك أي شيء يؤرقك

وتود أن تزيحه عن كاهلك، فقد حان الوقت لكي تُفصح عنه. المحقق على استعداد ليمتدح كل فضائلك باستثناء اللغو والثرثرة، ما رأيك؟»

عضَّ مان شفته. وعلَّق قائلًا: «لا أرى ما يمكنني قوله أكثر مما قلته يا سيدي.»

نظر إليه جيمسون نظرة حادة. وأردف قائلًا: «فكر ثانيةً! هذا اجتماع صغير لطيف غير رسمي، ولكن ربما تُضطر إلى مواجهة أحد المحامين المتمرسين في الاستجواب، الذي من شأنه أن ينتزع منك كل شيء بمجرد النظر إليك. يعتقد المحقق أنك ربما كنت تقوم بحمايتي، ولكن بما أنني أقنعته بأنني لم أتورط في هذا الحادث المؤسف البغيض الأخير، فلا داعي لأن تخشى التحدث بصراحة.»

نظر مان إلى جيمسون نظرةً مثيرةً للشفقة نوعًا ما، وفتح فمه، ثم أغلقه مرةً أخرى، وهزَّ رأسه.

تحوَّل أسلوب جيمسون المازح إلى أسلوب غاضب. وأردف يقول: «لا تكن أحمق يا مان! أقول لك إن هذا الأمر يبدو خطيرًا بالنسبة إليك. هل تحاول التستُّر على شخص آخر من الخارج؟ إذا كنت تفعل ذلك، فأنت أحمق لا محالة، ولن يشكر لك أحد صنيعك هذا. هل تودُّ أن يعتقلوك وتواجه هذا الموقف العصيب في سكوتلانديارد؟»

حوَّل مان عينيه المذعورتين إلى ديفينش، الذي واجههما بعينين متجهمتين، وأومأ برأسه.

«إذا كنت تتمتع بالحكمة، فستفعل ما يخبرك به السيد بيدن-هايث.»

ولكن ظلَّ مان صامتًا، يقلب بصره من وجه لآخر في جزَعٍ وفزَع. حاول جيمسون من جديد.

فقال له: «هل تحاول التستُّر على أحد؟»

أجاب مان متلعثمًا: «كلا يا سيدي.»

هزَّ ديفينش كتفَيه في نفاد صبر. وقال: «حسنًا يا سيدي، لقد حاولت، وباءت محاولتك بالفشل، يؤسفني أن أقول ذلك. يجب أن أرى ما يمكنني القيام به.» وأدار عينيه نحو مان، وتابع قائلًا: «إذن، لقد كنا نُجري تحريات عنك، ونود أن نعرف شيئًا أو اثنين. أعرني انتباهك!»

«أنا مُنصت إليك يا سيدي.»

«بادئ بَدءٍ، لماذا لم تخبرني بأن لديك مسدسًا؟»

بهِت وجه مان بشدة. وسأله في تردُّد: «أي مسدس يا سيدي؟»

رأى ديفينش أنه سيواصل خداعه. فقد كان بالطبع يتمتع بالمزيَّة التي يتمتع بها جميع المحققين؛ فالشخص الذي كان يستجوبه لم يكن يعرف قدر ما يعرفه بالضبط. فأجابه قائلًا: «المسدس الذي اشتريته عندما توليت هذه الوظيفة.»

«لكن المسدس كان من قسم الألعاب الرياضية يا سيدي؛ أقصد ذلك المسدس الذي عثرت عليه الشرطة.»

«لا تحدثني عما عثرنا عليه! فلتلتزم فقط بالرد على أسئلتي. أعرف أنك كان لديك مسدس، ولكني على استعداد للاعتراف بأنك لم تشترِه إلا من أجل حماية نفسك؛ مسدس آلي عيار ٠,٣٢، أليس كذلك؟»

لم يكن مان يجيد التمثيل، ولم يجهز أي دفوع ضد هذا النوع من التحقيقات. كان قد اشترى مسدسًا من أحد السائقين، كان يقوم بجولة مع سيده في دول البلقان، وشعر أن الشرطة لا بد أنها قد ألقت القبض على هذا الرجل. ونظرًا لما أبداه من تردد، تحدث جيمسون.

وقال: «اعترف يا مان! المحقق ديفينش لا يلومك على شراء مسدس. فمعظم الحراس الليليين يُزوَّدون بمسدسات. ولا أعرف السبب وراء عدم تزويدك بواحد.»

تدخل ديفينش مرة أخرى. «هذا صحيح. ما قولك؟»

قال مان مُغتمًّا: «أجل، كان لديَّ مسدس»، وأخبرهما ممن اشتراه. وأردف قائلًا: «ولكني لم أقتل أحدًا يا سيدي. لم أفعل حقًّا.»

أومأ ديفينش. «رائع. كان لديك مسدس آلي عيار ٠,٣٢. هلا سمحت لي بأن ألقيَ نظرة عليه، وعلى الذخيرة التي تستخدمها فيه؟ لن يضيرك هذا في شيء، بل ربما يبرئ ساحتك تمامًا. من شأن السلاح أن يمنحك مزيدًا من الثقة بالنفس ليلًا، ولكن يجب أن ألقيَ نظرة عليه.»

دفعتهما النظرة الخاوية التي ارتسمت على وجه مان إلى النظر إليه بحدة. ابتلع ريقه، ثم شهق قائلًا: «ليس في حوزتي الآن يا سيدي؟»

«ليس في حوزتك؟ متى تخلصت منه؟»

«في يوم وقوع الجريمة يا سيدي.»

قطَّب ديفينش جبينه. وسأله: «وماذا فعلت به؟»

«ألقيت به في النهر يا سيدي من فوق أحد الجسور، حين لم يكن هناك أحد يلاحظ شيئًا.»

«وما السبب؟»

كان مان يتصبَّب عرقًا الآن، وبدا كشبح أعجف شاحب.

«بعد اكتشاف الجريمة وكنت بمفردي في المتجر، خشيت أن يُلقيَ عليَّ أحد اللوم.»

«لكونك بمفردك في المتجر، حيث كنت في نوبة حراسة؟ لا عليك»، ثم باغته ديفينش بسؤال: «أين خبأت المسدس الآلي حين خرجت؟ أريد إجابة فورية!»

تلعثم مان وهو يقبض على كرسيه بكلتا يديه في خوفٍ وتوتُّر بالغَين: «في حزام خصري.»

قال ديفينش في سخط: «وخضعت للتفتيش أثناء خروجك من المتجر. لقد نسيت هذا!» ثم التفت إلى جيمسون وأردف قائلًا: «أخشى أن أقول إنه لا فائدة من ذلك يا سيدي. لن يقول الحقيقة. أعتقد أن من الأفضل أن آخذه إلى سكوتلانديارد، فلست بحاجة إلى إذن بالقبض في قضايا القتل.»

كاد مان أن ينهار. ثم بذَل جهدًا بالغًا ليتمالك نفسه، وأخذ يتوسل إلى المحقق باستماتة.

«لا تأخذني إلى هناك يا سيدي. سأخبرك بالحقيقة.»

كان ديفينش قد همَّ بالوقوف، فجلس ثانيةً. وقال: «حسنٌ جدًّا. متى خبأت المسدس؟»

«ليلًا يا سيدي.»

«ليلة وقوع الجريمة؟»

«وأين خبأته؟»

«إذا أمهلتني ساعتين يا سيدي فسأحضره لك وأريك إياه.»

«قلت أين المسدس؟»

صاح مان قائلًا: «أوه، يا إلهي! سيدي أنا لست قاتلًا!»

«أنت تتصرف كما لو كنت أنت القاتل. ولكن هذا يكفي. أنا مصمم أن أعرف أين هو، والآن.»

أخذ مان يلعق شفتَيه مرارًا، وحاول أن يتحدث. فالتفت جيمسون إلى المحقق.

«تمهل قليلًا. سيخبرنا. هلم يا مان! إذا كنت بريئًا، فهذا سيساعدك، ولن يضيرك في شيء.»

كان مان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. «حسنًا، سأخبركما يا سيدي، وسأريكما أين هو أيضًا. ولكن يجب أن تسمعا قصتي يا سيدي. يجب أن تسمعاها حقًّا! يمكنني أن أفسِّر الأمر. سأفسره.»

أخرج ديفينش مفكرته وقلمَ رَصاص. «هل تدلي بإفادة طوعية؟ هل تعي أنها قد تُستخدم ضدك؟»

قال مان منفعلًا: «سأُدلي بإفادة نابعة من إرادة حرة يا سيدي وسأوقع عليها. فقط اسمح لي بالإدلاء بها قبل أن أريك مكان الأشياء.»

الفصل الخامس والعشرون

كان لطبيعة المشهد المأساوية والرعب المؤثر البادي على وجه مان تأثير غير عادي على جيمسون بيدن-هايث. فقد جلس ثابتًا بلا حَراك، وعيناه تُحدِّقان إلى صديقه البائس، الذي كان يبذل الآن قُصارى جهده للتحدث، بينما تغير التعبير المرسوم على وجهه من الجزع إلى الأسى والرعب.

لم يكن ديفينش، بحكم كونه أكثر اعتيادًا على مثل هذه المشاهد، ينظر إلى مان، أو يراقب محاولاته لتمالك نفسه. بل كان يركز على عبارة معينة استخدمها الشاهد، ولم يكن حتى يركز على العبارة نفسها بقدر تركيزه على تشديد الشاهد على كلمة بعينها.

إن التشديد على الكلمات مهمٌّ في التحقيق الجنائي كأهميته في قراءة الشعر أو نظمه. وخبرة ديفينش العملية في علم نفس الشهود أخبرته أن التأكيد على كلمة واحدة قد يعني الفارق التام بين كذبة كاملة وكذبة بيضاء؛ بين نية مُبيَّتة للخداع والتضليل، وبين محاولة لشراء ضمير الشاهد (فحتى المجرمون لديهم ضمير، وإن كان منحرفًا).

بينما كان مان يلعق شفتَيه الجافتين، ويتململ في كرسيه، ويحاول تجميع أفكاره، أخذ ديفينش يُكرِّر العبارة التي استخدمها.

«أنا لست قاتلًا حقًّا!» عند محاولة الإنكار الشديد، كان التشديد سيصبح على كلمة «لست» بطبيعة الحال. لكن مان لم يُشدِّد على هذه الكلمة، بل صاح قائلًا: «أنا لست قاتلًا حقًّا!» قد تقتل شخصًا ما، ولا تكون قاتلًا، كما هو معروف تمامًا للجميع؛ وفي أذهان المحققين يكون ثمة فارق واضح تمامًا بين القتل غير المتعمد، والقتل مع سبق الإصرار والترصد.

انتظر دقيقة أو دقيقتين حتى يبدأ مان في الحديث، ثم نظر إليه نظرة تشجيع. وقال: «عليك ألا تنفعل. نحن لسنا قضاة وهيئة محلفين كما تعرف، وأنت لست في محاكمة. فقط

حاول أن تفكر أن شهادتك قد تكون مفيدة لك بقدر ما هي مفيدة لنا. فالقانون لم يخلق لإزعاج الناس بدون سبب.»

عاد مان للتحديق به مرة أخرى، واستجمع شجاعته بسبب التغيُّر الذي طرأ على نبرة المحقق. فقال: «كان ينبغي أن أخبرك في الحال يا سيدي. تبدو الأمور الآن قاتمةً ومأساوية للغاية.»

«هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. ابدأ في سرد قصتك. لديَّ فكرة استطعت تجميع معظم عناصرها بنفسي، ولكن هذه الفكرة لم تدفعني للتحيز ضدك حتى الآن. دعني أساعدك، سأعطيك طرَف خيط لتبدأ من عنده. ذهبت إلى المتجر في العاشرة مساءً تلك الليلة لتبدأ جولتك الأولى. ماذا حدث بعد ذلك؟»

أخيرًا تمكن مان من الحديث، ومع استمراره في الكلام بدأ يتحدث بمزيد من الوضوح وإحساس جديد بالثقة.

قال: «قمت بجولة في المكان يا سيدي، لأرى إن كل شيء على ما يرام، وعندما انتهيت، عدت لأجلس في مكاني. قمت بتشغيل الميكروفون كالمعتاد، لكنني لم أسمع أيَّ أصوات عالية. بذلت قصارى جهدي لمعرفة المشكلة، لكنني لم أتمكَّن من فَهم ما حدث ...»

قاطعه المحقق قائلًا: «انتظر لحظة، هذه مسألة مُهمَّة. هل أنت متأكد من أن الجهاز كان مُعطَّلًا حينها؟»

«متأكد تمامًا يا سيدي.»

«لكنك أصلحته بمجرد أن عدت من جولتك — أقصد حاولت تشغيله — وليس عند وصولك في البداية؟»

بدا مان مندهشًا. «لا يا سيدي، لم أقم بذلك إلا بعد الانتهاء من جولتي.»

«إذن هل شغَّلته على الفور بعدها؟ أريدك أن تكون واثقًا جدًّا من إجابتك. فهذا من شأنه أن يحدد لنا الوقت بصورة أو بأخرى. أيمكنك إخباري بالوقت التقريبي الذي حاولت فيه إصلاحه؟»

«في حوالي الساعة العاشرة والثلث يا سيدي.»

أومأ ديفينش. وقال: «حسنًا. تابع حديثك!»

أردف مان قائلًا: «ظننت أنها مجرد مشكلة بسيطة لم أفهمها يا سيدي، ولم ينتَبْنِي أي قلق حيالها، خاصة أنني كنت أنوي الإبلاغ عن العطل في اليوم التالي ليصلحه شخص. لم أعتقد أبدًا أن هناك شيئًا ما قد يحدث في تلك الليلة. لكن فيما بعد، تذكرت ذلك و...»

قال المحقق: «لنترك هذه النقطة حتى تصل إليها. وجدت أن وصلة الميكروفون لا تعمل؛ ومِن ثَم لن تسمع أي أصوات خافتة في الأجزاء البعيدة من المتجر. ماذا حدث بعد ذلك؟»

«حسنًا يا سيدي، كان من المفترض أن تبدأ جولتي التالية في الحادية عشرة والربع، لكن كان عليَّ التحدث إلى السيد بيدن-هايث في هذا الوقت؛ لذا ذهبت إلى الباب الخلفي ووجدته هناك. قضينا وقتًا طويلًا نتحدث؛ لأنه كان منفعلًا بعض الشيء يا سيدي»، ثم توقف ونظر إلى جيمسون نظرة اعتذار ثم أردف قائلًا: «وغاضبًا إلى حدٍّ ما. عندما تركته وأوصدت الباب مرة ثانية، بدأت جولتي الثانية. في تلك اللحظة كنت قريبًا من المصعد القادم من شقة السيد ماندر، وسمعته ينزل بهدوء شديد.»

أومأ ديفينش. وقال: «واصل حديثك.»

«حسنًا يا سيدي، قد تصدق أو لا تصدق، لكنني تذكرت أن الجهاز مُعطَّل، وانتابني شعور مؤكَّد بأن هناك لصًّا ما قام بذلك، وانتابني بعض الخوف. انحنيت وخلعت حذائي، ثم تسللت عائدًا إلى مقصورتي. كنت قد تركت مسدسي هناك، وكنت على يقين من أن شخصًا ما قد اقتحم المكان وسيقوم بسرقته.»

«يمكنني تصديق ذلك يا مان، لكن ماذا فعلت بعد ذلك؛ هل ذهبت للتصدي لهذا الشخص؟»

قال مان بقدر من التردد: «كلا يا سيدي. بينما كنت أخلع حذائي، ظننت أنني سمعت شخصًا ما يفتح واحدة من واجهات العرض تلك. فرأيت أن من الأفضل أن أصعد إلى شقة السيد ماندر، وأقرع الجرس، وأطلب منه مساعدتي. لكنني لم أتمكن من استجماع شجاعتي وركوب المصعد الموجود في ذاك الطابَق الذي ظننت أن لصًّا قد خرج منه؛ لذا ركبت مصعدًا للبضائع حتى الطابَق الموجود أسفل الشقة، وغامرت بالصعود للطابَق التالي. لكن عندما وصلت للباب الأمامي لشقة السيد ماندر، وجدته مفتوحًا، وخطَر لي أن اللص قد اقتحم المكان من الباب الخلفي. بعد لحظة دخلت الشقة، لكن لم يكن هناك أحد ...»

قاطعه ديفينش قائلًا: «انتظر لحظة. هل يمكن تشغيل المصاعد من أسفل؟ أعتقد أنه يمكن ذلك. أقصد لا بد أنك استدعيت الذي استخدمه الرجل إلى أعلى، ولم يتمكن من ...»

«لم يصعد في ذلك المصعد يا سيدي، بل استخدم واحدًا من المصاعد الأخرى. لقد أردت النزول مرة أخرى، معتقدًا أنني يجب أن أفعل شيئًا، وكان معي مسدسي، لكنني أعترف أنني كنت متوترًا ولم أنزل باستخدام المصعد الذي نزل به.»

«هذا المصعد الذي سمعته ينزل أول مرة، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي. ركبته لطابَق واحد فقط، بعدها خرجت منه، واتجهت نحو المصعد المجاور. وفي تلك اللحظة شعرت بفزع ورعب شديدَين، عندما سمعته يصعد باتجاهي.»

«ماذا، هل تقصد الرجل؟»

«نعم يا سيدي، وعندما توقَّف هذا المصعد في الطابَق الذي كنت موجودًا فيه، كان عليَّ أن أتخذ موقفًا. أنا جبان يا سيدي للأسف، دائمًا ما كنت كذلك، لكن حينئذٍ حاولت أن أتذكر أنني هنا لحراسة المتجر، فأخرجت كشَّافي ومسدسي في لمح البصر ووجهت الكشَّاف نحو المصعد وهو قادم باتجاه الطابَق الذي أتواجد به، موجهًا إياه إلى أسفل يا سيدي عندما كان الجزء العُلوي من المصعد قد وصل لمسافةٍ بالقرب من ركبتي. كان بداخله رجل، يرتدي قناعًا أسود اللون، وتمكنت من رؤية قطرات متناثرة من الدم على ذراعه.»

اندهش بيدن-هايث. وقال: «قطرات متناثرة من الدم؟»

أومأ مان. وقال: «بمجرد أن رأى الكشاف يا سيدي، لمس زر المصعد وبدأ في النزول مرة أخرى. لكنني حينها شعرت بالكثير من الخوف والغضب، إذا كنت تفهم ما أعنيه، معتقدًا أنه ربما يكون قد تمكَّن من دخول الشقة وقتل السيد ماندر، لذا أطلقت النار عليه، وأصبته. تلك هي الحقيقة كاملة يا سيدي، حتى إن قضيت اليوم بأكمله في استجوابي.»

أخفى وجهه بين يديه للحظة، ثم أزاح يديه ومسح العرق عن جبهته. حدَّق جيمسون إليه في ذهول خلا من أي تعبير. وبدا المحقق متأثرًا.

قال مطمئنًا إياه: «لا عليك. ما من ضررٍ وقع حتى الآن نتيجة قولك الحقيقة. بل إن إخفاءها هو ما وضعك في هذا المأزق. أطلقت النار على الرجل في المصعد، بينما كان المصعد ينزل. ماذا فعلت بعد ذلك؟»

بدا مان مندهشًا من التصديق الظاهر لقصته من أي شيء آخر. قال: «حسنًا يا سيدي، نزلت من طريق آخر، وألقيت نظرة عليه. بطريقة ما، جعلني المسدس أكثر جرأة، ولم يكن من الممكن أن أتركه هناك دون أن أُلقيَ نظرةً عليه، فربما كان يُحتضَر. اتجهت إلى المصعد وفتحته، والمسدس في يدي في وضع الاستعداد. عندما وجهت كشافي نحوه، أدركت أنه ميت، فأطفأت الكشاف ثم عدت مسرعًا إلى مقصورتي. لكنني أدركت أن هذا لن يفيد. فلم يكن يمكنني تركه هناك دون التأكد. عدت مرة أخرى وألقيت نظرة عليه عن قرب. تراءى لي حينها أنه ليس من المعقول أن أُعدم لأنني قتلت لصًّا؛ لذا نزعت القناع عن وجهه، وفي هذه اللحظة تلقيت صدمة حياتي؛ لأنني اكتشفت أن هذا الرجل هو السيد ماندر.»

قال جيمسون: «هل كان يرتدي قناعًا؟ أمتأكد من أن ذلك ليس تلفيقًا منك؟»

هزَّ مان رأسه. وقال: «كلا يا سيدي، وإن كنت في الواقع لم أفهم حينها لماذا كان يرتدي هذا القناع. لو لم يكن يرتديه، لعلمتُ من هو أثناء قدوم المصعد وما أطلقت النار عليه.»

أومأ ديفينش برأسه وقال: «لو أن هذه القصة حقيقية يا سيد بيدن-هايث، فإن أحداثها طبيعية للغاية. لو أن السيد ماندر قتل الفتاة، وفعل ذلك عن عمد، كما يوحي قطع السلك الكهربائي، فلا بد أنه اتخذ بعض الاحتياطات لتجنُّب مقابلة مان هنا أثناء قيامه بجولاته، ولكنه ارتدى القناع تحسبًا لرؤيته. فقد كان يدرك أن الحارس، إذا ما رآه مرتديًا إياه، فسيظن أنه لص، ولن يشك للحظة أنه في الواقع ربُّ عمله. أليس كذلك يا مان؟»

قال الشاهد في لهفة: «لقد كان يعرف مواعيد جولاتي بالطبع. على أيِّ حال يا سيدي لقد شعرت بصدمة أفقدتني توازني لبعض الوقت. كنت متأكدًا أن ما مِن أحدٍ سيُصدِّقني إذا ما قلت إنني قتلته بالخطأ. وحتى إذا أوضحت أنه نزل إلى المتجر مرتديًا قناعًا، كانوا سيسخرون مني؛ لأنني في ذلك الوقت يا سيدي، لم أكن أعلم السبب الذي دفَعه للنزول.»

«وهل عرفت السبب؟»

لعق مان شفتَيه الجافتَين مرة أخرى. وقال: «نعم يا سيدي. أخذت أتساءل وأتساءل عما كان يفعله، ثم تذكرت أنني سمعت بالخلف صوتًا يشبه صوت فتح باب واجهة العرض. أردت الابتعاد عن منظر جثته، وتساءلت إن كان بإمكاني معرفة السبب الذي دفعه للنزول من شقته خلسة بهذه الطريقة؛ لأن ذلك من شأنه أن يساعدني عند الإدلاء بشهادتي.»

«أتقصد لتأكيد صحة كلامك أنه نزل خلسةً وكان يرتدي قناعًا؟»

«أجل يا سيدي. كانت لديَّ فكرة عامة عن مصدر الصوت، لكن لم يكن هناك سوى واجهة عرض واحدة بباب منزلق لتسهيل دخول الموظفة المسئولة عن عرض الثياب، وهو باب واجهة العرض المجهزة كقاعة حفل رقص تنكُّري. أعتقد أن السيد ماندر كان ينزف داخليًّا؛ إذ لم يكن هناك الكثير من الدماء، فتركته بالمصعد وذهبت إلى واجهة العرض تلك. أضأت كشَّافي وأخذت أبحث. إن كنتُ قد أُصبت برعب شديد عند رؤية السيد ماندر، فقد شعرت بأضعاف هذا الرعب عند رؤيتي للآنسة تيومر بالقرب من الجزء الخلفي من واجهة العرض، جالسة على كرسيٍّ خلف راقصَين اثنين، مرتدية قناعًا أيضًا ...»

«متى رأيت الآنسة تيومر قبل ذلك؟»

«رأيتها مرتين يا سيدي. جئت أنا وزوجتي للتسوُّق الشهر الماضي، عندما كان هناك تخفيضات خاصة، وأشار لي أحدهم عليها. علمت أنها ليست واحدًا من تماثيل الراقصين الشمعية لأنها كانت ترتدي حذاءً عاديًّا وليس من الساتان كباقي التماثيل الراقصة، فنزعت القناع عن وجهها بحذر، وتعرَّفت عليها.»

سأل ديفينش: «ألم تفحصها عن كثَب لتعلم إن كانت ميتة، وكيف قُتلت؟»

«كنت خائفًا للغاية يا سيدي، ومنزعجًا. لكنني أدركت أنها ميتة. لم يكن هناك شك في ذلك. حسنًا، لقد كنت أرتجف بشدة يا سيدي لدرجة أنني تركتها هناك أيضًا. فكرت في إطلاق صيحة إنذار، لكن من كان سيصدق ما قلت دون الظن أنه مجرد ذريعة لقتل السيد ماندر؟ كنت أحمق، ولكن بسبب كثرة الأحداث، لم أعرف ماذا أفعل.»

«ولكن ماذا فعلت؟»

«تذكرت أن شقة السيد ماندر تُركت مفتوحة، وظننت أنه ربما يمكنني أن أعرف هناك كيف حدث ذلك. صعِدت لإلقاء نظرة. بعدها ...»

قاطعه جيمسون. «أتمنى يا مان أن تكون هذه هي الحقيقة فعلًا. فربما يرى المحقق ديفينش أنك تصرَّفت بغرابة شديدة.»

ابتسم ديفينش ابتسامة باهتة. وقال: «لو أن لديك ما لديَّ من خبرة في التعامل مع الأشخاص غير المتعلمين والعصبيين عندما يصابون بالذعر، لَما بدا تصرُّفه غريبًا بالنسبة إليك يا سيدي. إنهم يشعرون بالخوف منا أكثر بكثير من أي نوعية أخرى من الأشخاص، ولديهم اعتقاد خاص أننا نُحرف الحقائق لنتمكن من إدانتهم بأي ثمن؛ فلتكمل حديثك يا مان! ماذا وجدت في الشقة بالأعلى؟»

واصل مان حديثه في توتُّر قائلًا: «حسنًا يا سيدي، أخذت أبحث في كل مكان، ولم أرَ أي علامات تدلُّ على صراع أو أي آثار للدماء، لم أرَ سوى مِعطف السيدة وقبعتها وقفازًا. عندئذٍ أدركت أنها كانت موجودة هنا بالأعلى، وتساءلت كيف قتلها ولماذا. لكنني لم أتمكن من الإجابة، خاصة أنني سمعت أنها والسيد كيفيم كانا حبيبين. وفي النهاية، اقتربت من الباب المؤدي إلى درَج السطح، وكان مفتوحًا على مِصراعَيه. بدا من الغريب فتحه في ليلة في ذلك الوقت من العام. وبدا غريبًا أيضًا أن يُترك مفتوحًا رغم البرد القارس القادم منه.»

«لذا قررت تَفقُّد السطح أيضًا؟»

«نعم يا سيدي. صعدتُ ومعي كشافي وألقيت نظرة في أرجاء المكان، ورأيت الموضع الذي سقط به أحدهم على إحدى كومات الرمال تاركًا بعض الدماء، ومن هنا كانت البداية.

اتجهت نحو أحد الحواجز واتكأتُ عليه حتى تمالكت نفسي، بعدها خطرَت لي فكرة. ليتها لم تخطر ببالي؛ لأنها السبب في هذا المأزق الذي أنا فيه يا سيدي، لكنها بدت لي رائعة حينها، وكانت الطريقة الوحيدة التي ستنفي أي صلة لي بكل ذلك.»

«ماذا كانت تلك الفكرة يا مان؛ أتقصد الطائرة؟»

«نعم يا سيدي. كنت أعلم أن طائرةً ما قد هبطَت على السطح ذات مرة، فقلت لنفسي يمكنني أن أجعل الأمر يبدو كما لو أنَّ أحد أعداء السيد ماندر قد اشترى واحدة من هذه الطائرات وهبط هنا، ثم نزل إلى الشقة وقتله هو والسيدة الشابة. كانت هناك آثار إطارات على السطح، وظننت أن الشرطة ستراها وتعتقد أن القاتل قد حلَّق بطائرته مرة أخرى بعد تنفيذ جريمته.»

ابتسم ديفينش. وقال: «رائع جدًّا، لو أن هذا ما حدث بالفعل.»

«حسنًا يا سيدي، ظننت أنني إذا ما جعلت القصة تبدو كما لو أن المجرم قد هبط على السطح وهرب منه ثانية، فإن الشرطة لن تبحث عن القاتل بالأسفل.»

«وبعد أن انتهيت من رسم خُطتك الحمقاء هذه، فكرت أن تقوم بخطوة إضافية أذكى وهي أن تُحدث ضوضاء أشبه بصوت محرك الطائرة؟»

نظر مان إلى المفتش في انزعاج. وقال: «لم أعلم أبدًا أنك قد انتابك الشك حيال ذلك يا سيدي، لكن هذا ما حدث. كنت قد رأيت المحرك بالأسفل على المنضدة، وظننت أنني إذا قمت بتشغيله، فسوف يُصدر ضوضاء وسيكون مسموعًا. لذا نزلت من السطح وقمت بتشغيل المحرك وتركته يعمل، بينما كنت أحاول حينها نقل الجثتَين؛ أقصد إخراج جثة السيد ماندر من المصعد. كان تفقُّد المصاعد جزءًا من جولتي، وكان من المفترض أن أطلق الإنذار عند العثور على الجثة، وهو ما لم أرغب في القيام به، أردت أن يُعثر على جثته في اليوم التالي، ويبدو الأمر كما لو أنني لا أعلم شيئًا، إذا جاز التعبير. ارتديت زوجًا من القفازات وجدته بالورشة؛ إذ أعلم من الصحف أن اللصوص يرتدونها، وأحضرت من أعلى بِزَّة العمل الزرقاء التي عُثر على السيد ماندر مرتديًا إياها. فكرت أنني إذا تمكنت من إلباسها للجثة يمكنني حماية يدي من التلطخ بالدماء وحملها بعيدًا.»

«وبالطبع كان النزيف قد توقَّف قبل قليل من نزولك إلى الطابَق الأرضي مرة أخرى.»

«نعم يا سيدي. شعرت بغثيان شديد من المهمة، لكنني تمكنت من إخراجه من المصعد، وفرشت فرخين من الورق المقوَّى أسفل الجثة، واستغرقت حوالي عشرين دقيقة لأُلبسه بِزَّة العمل الزرقاء دون أن ألطخ يديَّ بالدماء.»

سأله ديفينش: «وعندها رأيت ما حدث لقطعة السجاد بالمصعد، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي. وتركت جثة السيد ماندر حيث كانت، وأخذت أفكر فيما يمكنني فِعله لإخفاء بقع الدم بالمصعد. لم يكن بإمكاني أخذ سجادة أخرى من أي من المصاعد الأخرى، وفي هذه اللحظة تذكرت أنني رأيت سجادة بالأعلى بحجرة البلياردو الخاصة بالسيد ماندر. صعدت لإحضارها، وأوقفت المحرك الموجود بالورشة عندما كنت هناك ...»

«وأزلت ثلاث شمعات إشعال منه؟»

«نعم يا سيدي. فكما تعلم، قد يظن أحدهم أن الصوت لم يكن ناجمًا عن الطائرة، وأن السيد ماندر يعبث بهذا المحرك الموجود على المنضدة لا أكثر. أما إذا فقدت منه ثلاث شمعات، فهذا يعني أن المحرك لا يمكن أن يعمل.»

«بالطبع. هذا ما ظننت. ولكن أكمل.»

مسح مان جبينه مرة أخرى. «شعرت ببعض التحسُّن حينها؛ إذ كان لديَّ متسع من الوقت لأنهي كل شيء قبل فتح المتجر في صباح اليوم التالي، وكنت على يقين من أن باستطاعتي ترتيب كل شيء ليبدوَ الأمر كجريمة قتل قام بها شخص من الخارج، وكنت سأوضح أنني لم أتمكن من النوم في منزلي بسبب ما أعانيه من إصابات، وغفوت أثناء العمل. كان لديَّ الكثير من الأفكار لإبعاد الشك عني، ولم يكن ذلك خطئي بالفعل، كوني ظننته خطأً ...»

تدخَّل ديفينش مقاطعًا حديثه. «دعنا نستعرض استنتاجاتنا. قمت بفصل المحرك، وأحضرت السجادة من أعلى. ووضعتها مكان تلك الملطخة بالدماء التي سقط عليها السيد ماندر عندما أطلقت عليه الرَّصاص، ماذا بعد؟»

ردَّ قائلًا: «بعد ذلك يا سيدي، تساءلت عمَّا يمكنني فعله بالجثة. لم يكن من الممكن أن آخذها إلى الشقة بالأعلى وأترك جثة الفتاة في واجهة العرض، وكان من المستحيل أن ألمس جثة الفتاة ولو بكنوز الدنيا؛ أحدهم كان سيئًا بما يكفي وفعل ذلك. كان الدَّور الأرضي بأحد أقسام المتجر ضمن جولاتي، لكن لم يكن متوقعًا مني فتح أبواب واجهات العرض وإلقاء نظرة بداخلها. لذا قررت وضع جثة السيد ماندر بها، بالقرب من جثة الفتاة الشابة.»

أومأ ديفينش. وقال: «هل طرأ بذهنك أن تجعل الأمر يبدو وكأنه جريمة قتل وانتحار، مع وجود عنصر الغَيرة كدافع للجريمة؟»

اندهش مان. «كيف عرفت ذلك يا سيدي؟»

«بكل بساطة. لأنك وضعت مسدسًا في مسرح الجريمة.»

«حسنًا يا سيدي، عندما وصلت إلى هذه اللحظة، ساورني القلق ثانية. لكن هذه المرة لم يكُن القلق إزاء نفسي. لقد أخذت أفكر أنه بما أن السيد ماندر كان على عَلاقة بفتاة السيد كيفيم، فقد يضع ذلك السيد كيفيم موضع شك. وبعدها تذكرت أن الشرطة ستحصل على أسماء وعناوين العملاء الذين اشترَوا هذه الطائرات، وقد يُشتبه في أحدهم؛ أو في ويبلي، ذلك الرجل الذي حلَّق بالطائرة في تلك المرة التي ثارت ضجة حولها. ربما أكون أحمق يا سيدي، وتصرفت بتهور — فأنا بطبيعة الحال جبان، وزاد فزعي عندما رأيت الرجل المقنع يصعد في المصعد — لكنني لم أرغب في تورط شخص بريء في جريمة ارتكبتها خطأً. بدا لي أن الحل الوحيد هو جعل كل شيء يبدو محيرًا قدر الإمكان بحيث لا تثبت الإدانة على أحد.»

عندما توقَّف مان عن الكلام، تحدث جيمسون إلى ديفينش قائلًا: «كانت هذه الفكرة تراودك أيها المحقق.»

أومأ ديفينش وثبت عينيه مرة أخرى على الشاهد. وقال: «لقد نسيت مسألة أن الأسلحة التي قتلت الضحيتين كانت ستخترق الملابس التي كانا يرتديانها أي بِزَّة العمل الزرقاء، والزي التنكري. هل تخيلت ببساطة أننا سنعتبر وجود المسدس هناك، وحقيقة أن ماندر كان يدبر مؤامرة مع حبيبة شخص آخر، دليلًا على أن ماندر قتل الآنسة تيومر في نوبة غَيرة ثم أطلق الرَّصاص على نفسه؟»

«نعم يا سيدي. كان عقلي شبه مغيب. ولم أفكر أبدًا في كل تلك الأمور حينها. تمكنت من حمل السيد ماندر وتعليق جثمانه في واجهة العرض، بعيدًا عن المقدمة. بعدها فكرت في الحصول على مسدس من القسم الرياضي، وحصلت على واحد صغير، يشبه المسدس الذي اشتريته. أخذت أبحث عن رَصاصات له، ولكن بعد قليل وجدت بعضًا منها تحت كومة من الصناديق لم تتحرك كثيرًا منذ أن وضعت مكانها، وأخرجت شمعات الإشعال من جيبي وخبأتها بصندوق هناك.»

زمَّ ديفينش شفتيه. وقال: «ولكن كان لا يزال عليك إطلاق النار منه، وفي سبيل ذلك صعدت إلى السطح مرة أخرى، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي. كنت أعلم بوجود الرمال هناك، وسمعت عن كيف أن الرمل يعترض طريق رصاصة. لذا توجهتُ نحو الكومة الملطخة بالدماء وأطلقت النار نحوها.»

«يبدو أن هذا ما فعلته يا مان، لكن أكوام الرمال لم تكن متناثرةً عند صعودي، ولم يكن عليها أيُّ أثرٍ يوحي بسقوط أي شخص هناك.»

«بالطبع يا سيدي. بدأت أفكر مرة ثانية في هؤلاء الذين اشترَوا الطائرات، وتحتم عليَّ العمل بحذر، وقمت بتسوية كومة الرمال ثانية. لم أكن أريدك أن تظن أن أحدهما قُتل بالأعلى على يد الشخص الذي هبط بطائرته على السطح في تلك الليلة.»

«فهمت. لقد كنت مشوشًا تمامًا، وكذلك كانت دوافعك. بدأت ترى أنه كلما زاد عدد القرائن التي تتركها، زاد عدد الأشخاص الذين قد يدخلون دائرة الشك في تورطهم بالجريمة.»

قال مان وهو يمرر إحدى يديه على جبهته ويتنهد: «هذا صحيح يا سيدي، لكن هل يمكنني الآن الحصول على كوب من الماء؟ أشعر ببعض الإعياء.»

الفصل السادس والعشرون

عندما قُدم إلى مان كوب من الماء، واستراح عشر دقائق، قال إنه قادر على مواصلة الحديث، فطرح عليه ديفينش سؤالًا آخر.

قال: «بعد انتهاء جولتك تلك على السطح، هل عدت إلى الشقة بالأسفل، واستخدمت المكنسة الكهربائية للتأكد من عدم وجود رمال على ملابسك أو بداخلها؟»

صاح الحارس قائلًا: «أي مكنسة كهربائية يا سيدي؟ أنا لا أعرف مكانها يا سيدي. فلم يسبق لي دخول الشقة أبدًا قبل تلك الليلة.»

«من فضلك أجب إما بـ «نعم» أو «لا».»

«لا، لم أفعل ذلك يا سيدي. ولا أعلم ما عَلاقة هذا بالجريمة.»

«ربما يُثبت ذلك أن السيد ماندر قد لاحق تلك الفتاة أو دفعها على السلم حتى السطح؛ لأنه من المؤكد أن شخصًا ما قد استخدم المكنسة لهذا الغرض.»

قال جيمسون الذي لم يَعُد قادرًا على التزام الصمت: «لكن أعتقد أنها هي فقط التي سقطت على الرمال، أليس كذلك؟»

أجاب ديفينش قائلًا: «ثمة احتمال أن يكون كلاهما قد تعثَّر فيها في الظلام. في جميع الأحوال، إذا كانت قصة مان حقيقية، فهذه نقطة لصالحه؛ الآن أكمل قصتك.»

استعاد وجه مان حيويته الآن، وبدأ يتحدث بمزيد من الهدوء. «لم أظنَّ أبدًا أنه كان هناك أي ضرر من ذلك يا سيدي؛ لذا عندما كنت أقوم بجولاتي، غالبًا ما كنت أُلقي نظرةً على الأشياء المعروضة في الأقسام. فقد كان ذلك يساعد في مرور الوقت، وعادة ما كنت أُخبر زوجتي بما أراه، وكانت تحب سماع ذلك؛ الحديث عن الأزياء وما إلى ذلك. على أي حال، عندما نزلت بالمسدس الذي أطلقت النار منه لأضعه في واجهة العرض، أخذت معي مِعطف السيدة وقبعتها وقفازها. وضعت المسدس على الأرض في الواجهة التي تعرض مشهد حفل

الرقص التنكري — المسدس الذي حصلت عليه من القسم الألعاب الرياضية — وأطلقت الرصاص منه يا سيدي، بعد ذلك ذهبت إلى المكان المخصص للمعاطف.»

«أوه، هل فعلت ذلك؟»

«نعم يا سيدي. تفقدت الكثير من خزانات الملابس ذات الأبواب المنزلقة، وبعد قليل عثرت على واحدة بها الكثير من المعاطف تشبه المعطف الذي كان على ذراعي. علقته مع البقية؛ لأنه كان يبدو جديدًا تمامًا، ثم توجهت إلى القبعات.»

«تقصد قسم القبعات النسائية؟»

«هكذا يسمونه على ما أظن يا سيدي. تخلصت من القبعة هناك، ثم ألقيت نظرةً في أرجاء المكان مرة أخرى. كانت السجادة في المصعد تغطي الدماء ويبدو كل شيء على ما يرام، والجثتان في واجهة العرض، لكنني في تلك اللحظة تذكرت أنني لم أعثر على الأداة التي قُتلت بها الآنسة تيومر، وليس من المعقول أن أتركها ليجدها أي شخص آخر. بحثت عنها في كل مكان، وأخيرًا صعدت إلى السطح، وبعد قليل رأيت خنجرًا حادًّا هناك، بالقرب من كومة الرمل. لم أرغب في الإمساك به ولم أدرِ ماذا عساي أن أفعل به. كان لا يزال لزجًا يا سيدي، وأسقطته على أرضية أحد مصاعد البضائع. ظننت أن ذلك سيجعل الأدلة محيرة أكثر وأن ما من أحد سيعتقد أنني استخدمت المصاعد صعودًا وهبوطًا، كما يفعل أي شخص قادم من الجزء العلوي من المبني. بحلول تلك اللحظة، كان الوقت قد تأخَّر يا سيدي. عدت إلى مقصورتي، وأخذت أفكر وأفكر. واعتزمت أكثر من مرة أن أوقظ خدمه وأخبرهم أنني أطلقت النار عليه بالخطأ. وبعدها أدركت أنني لا أعلم ماذا سأقول عن وفاة السيدة الشابة أيضًا. كان أنسب وقت لإخبارهم هي تلك اللحظة التي أطلقت فيها الرَّصاص عليه، لكنني كنت منزعجًا للغاية لدرجةٍ جعلتني أبدأ في القيام بكل هذا، وأحاول إخفاء آثار الجريمة، وصار من الصعب التراجع. في أوقات أخرى فكرت في مغادرة المكان والهروب. لكن زوجتي هنا، ولم أكن أعرف إلى أين سأهرب، وكنت أعلم أيضًا أنني سأبدو مذنبًا إن فعلت ذلك.»

وافقه المحقق الرأي قائلًا: «كان ذلك سيصبح أسوأ مما فعلت. أظنك مررت بوقت عصيب للغاية، وأخذت تتساءل عما سيحدث في الصباح.»

«معك حق يا سيدي. أتعجب أن شعري لم يشِب حينها. كان الأمر أسوأ من تجربتي في الحرب، رغم أنني لم أظن أبدًا أنني سأمرُّ بتجربة أسوأ منها. على أي حال، مكثت في مقصورتي لفترة طويلة، واضعًا رأسي بين يديَّ وتراودني الكوابيس، عندئذٍ تذكرت أنني لم أُخفِ مسدسي أو السجادة. انتابني خوف بسبب بذلك، رغم أنه بالتأكيد ما من أحد كان سيأتي حتى الصباح.»

«هذه المرة تقصد مسدسك أنت؟»

«نعم يا سيدي، المسدس الذي اشتريته للحماية؛ كان السيد ماندر ضد الأسلحة النارية، وضد كل أجهزة الإنذار، كما كان يسميها. لكن تلك الأشياء كان الهدف منها الحماية ضد اللصوص الخارجيين، وليس اللصوص الموجودين بالمبنى طَوال الوقت.»

«تقصد الأشخاص الموجودين بالمبنى وليس اللصوص.»

«نعم يا سيدي، أقصد السيد ماندر والفتاة الشابة. حسنًا، عندما تذكرت أمر المسدس والسجادة، فكرت أيضًا في المشكلة التي ستحدث في اليوم التالي عندما تأتي الشرطة. فقد أدركت أنني سأخضع للتفتيش، ولا يمكنني حمل المسدس أو السجادة. مررت بوقت عصيب في محاولة التفكير فيما سأفعله بهما، ولكن أخيرًا توصلت إلى طريقة.»

صار جيمسون مقتنعًا لأول مرة بأن مان يقول الحقيقة كاملة حقًّا. عندما بدأ قصته، كان تردده المتوتر وطريقة سرده لكل تفصيلة توحي بأن القصة مُلفَّقة. فقد بدا أنه يستغرق وقتًا لصياغة كل عبارة جديدة قبل التصريح بها. لكن عندما اكتسب الشجاعة، صار يتحدث بسرعة وثقة، وكان من السهل أن يرى أنه يسرد وقائع فعلية.

أما ديفينش فكان أكثر قدرة على الحكم على الرجل الذي يتعامل معه؛ نظرًا لما لديه من خبرة أكبر في التعامل مع الشهود الخائفين، فكان يعرف إلى أي مدًى يمكن أن يبدو الشخص البريء مذنبًا بسبب الرعب والفزع. وكان يعلم أيضًا أن مان قد أخطأ عندما ذكر أنه بقي في المتجر، إلا إذا كانت قصته حقيقية. فالقاتل الحقيقي كان سيهرب، دون أن يفسد الأمور أكثر. لقد ثبت لعقل المحقق، بسبب الارتباك والمحاولات غير المنظمة للتعتيم على عملية إطلاق الرَّصاص، أن الحارس لم يقُمْ إلا بالدَّور الذي وضع نفسه فيه، وأنه أطلق الرَّصاص على ماندر تحت تأثير الذعر.

ما يبرر ذلك أنه بالتأكيد لم يقتل مان إيفي تيومر. فلكي يقتلها كان سيتحتم عليه دخول شقة ماندر، والمحققون كانوا على يقين تام من أن القُفل لم يُمَس. على أي حال، بقدر قدرتهم على الحكم وتقدير الأمور، لم يكن لدى مان دافع لقتل أي منهما. وهذا الافتقار للدافع هو الذي سيُبرِّئه إذا ما وُجهت له تهمة القتل العمد، ومن المفترض أيضًا، إذا ما تُعومِل معه على نحو صحيح، أن يساعد في تجنيبه الإدانة بتهمة القتل الخطأ.

قال ديفينش بهدوء: «حسنًا، دعنا نسمع ما فعلته بالسجادة.»

أجاب مان على الفور. «كما تعلم يا سيدي، يوجد في رَدْهة المدخل الكبير بهذا القسم من المتجر جدار مُعلَّق عليه صورة كبيرة لسفينة حربية تسمى فودرويار.»

«السفينة الحربية القديمة فودروبانت، أجل.»

«حسنًا يا سيدي، فكرت أن ما من أحد سيبحث هناك عن أي شيء؛ لذا أحضرت سلمًا تلسكوبيًّا كذلك المستخدم عند تنظيف واجهات العرض وصعدت عليه وأنزلت الصورة. كانت معلقة بحيث لا يمكنك رؤيتها من الجانب، وكانت مائلة قليلًا من أعلى. وضعتها على الأرض في وضع مسطح، وأحضرت بعض المسامير الصغيرة، وثبتُّ السجادة في الجزء الخلفي من الإطار باستخدام المسامير. ثم علقتها ثانية، وإذا ما ألقيت نظرة عليها الآن يا سيدي فستراها.»

علق جيمسون قائلًا: «تصرف ذكي بلا شك.»

هزَّ مان رأسه في أسًى. «لا أعلم أنه كان كذلك يا سيدي، وإن كنت قد ظننته كذلك حينها. كان يجب أن أخبر السيد جيمسون، أدرك ذلك الآن! لكنك عندما تطلق الرصاص على شخص ما وأنت في حالة من الذعر، فضلًا عن كونك متوترًا مثلي، فإنك تشعر بالارتباك إلى حد كبير. لقد كان حظي سيئًا. لو لم يعبث شخص ما بالميكروفون، لَما انتابني الخوف اعتقادًا مني أن هناك لصًّا اقتحم المكان، وما كنت أطلقت الرصاص بهذه الحدة لو لم يتملكني ذلك الخوف الشديد.»

أومأ ديفينش. ثم قال: «أظن أن المسدس أيضًا موجود هناك، أليس كذلك؟»

وافقه مان الرأي. قال: «نعم إنه هناك. كانت هناك حلقتان للحبل الذي تُعلق به الصورة، فأحضرت خيطًا ومررته عبر واقي الزناد، وثبت القفاز به، وشددته بإحكام. ستلاحظ يا سيدي أن هناك مساحة خاوية تبلغ نحو خمس بوصات بين الصورة والجدار من أعلى، وبوصتين بينها وبين الجدار مسافة قدمين لأسفل. فدخل المسدس الآلي وراءها بكل سهولة.»

سمعه ديفينش ثم نظر إليه في سرور. «إذا كنت ترى أن بإمكانك كتابة هذه الأقوال، كما أخبرتني بها تقريبًا ردًّا على أسئلتي، أعتقد أن من الأفضل أن تبدأ في ذلك. خذ وقتك ولا تتوتر. إذا كانت قصتك حقيقية، وأعتقد أنها تبدو كذلك بالفعل، فستكون هذه الأقوال لصالحك.»

قال مان في لهفة: «سأفعل ذلك يا سيدي. سأحضر ورقة وأكتبها الآن، وأوقعها أمامكما أنتما الاثنين.»

نهض ديفينش. ورد قائلًا: «سأعود بعد ساعة لآخذها. سأذهب أنا والسيد بيدن-هايث لتناول غداء سريع وسنعود بعدها؛ على الأقل سأعود أنا.»

الفصل السابع والعشرون

أصر جيمسون على أن يتناول المحقق معه الغداء في مقهى يُدعى «ذا فوري». وبينما كانا يجلسان لتناول طعامهما بعد ربع ساعة من تركهما لمان، ناقشا القضية معًا، واتفقا على أنه يبدو مؤكدًا الآن أن خيوطها ستتجلى في القريب العاجل.

قال جيمسون بعد أن طلب فنجانَي قهوة ومشروبًا كحوليًّا لديفينش: «ولكن ما يحيرني هو دافع ماندر لقتل تلك الفتاة. بالطبع، كان متورطًا معها. ولكن ما الأبعاد الأخرى لهذه الجريمة، ولماذا صعِد بها إلى هذا السطح اللعين المفتوح ليقتلها؟»

نظر إليه ديفينش متأملًا. ثم قال: «لست أفضل حالًا منك يا سيدي. الرجل تُوفي والفتاة كذلك، وكل ما يمكننا أن نأمُله هو إعادة ترتيب نظرية للأحداث التي وقعت في تلك الليلة داخل الشقة وفوقها. أنا متأكد تمامًا أننا صرنا نعرف ما حدث بالأسفل.»

«أتمنى لو أعدت ترتيبها من أجلي.»

ابتسم ديفينش. ثم قال: «حسنًا، لن نعرف مطلقًا بأي من الطريقتين المحتملتين لقيت الفتاة مصرعها، ولكن يمكننا الافتراض دون خوف أنه كانت ثمة طريقتان لا ثالث لهما؛ إما قتل عمد أو قتل بالخطأ.»

«قتل بالخطأ، يا إلهي! كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج ذلك؟»

تطلَّع جيمسون إلى رفيقه في لهفة وقدم إليه سيجارًا في حين جاء النادل بطلبهما.

هزَّ ديفينش كتفَيه.

ثم قال: «أكاد أميل الآن إلى الاعتقاد بأن هذه هي النظرية الصحيحة، وأبني هذا الافتراض على ما نعرفه عن ماندر. ولولا وجود شيئين، لدعمتها على الفور.»

«وما هما هذان الشيئان؟»

«حقيقة أن السيدة هوو أوضحت أن الفتاة لم تكن تعرف شيئًا عن ...» وسكت لبرهة، ثم أضاف قائلًا: «ولكنك لا تعرف شيئًا عن هذا. الحقيقة أن هناك سيدة، وهي إحدى صديقات الآنسة تيومر، كانت تبتزُّ ماندر. لكن تلك السيدة، التي ربما كان من السهل عليها ادعاء أن تيومر كانت متواطئة في تلك المؤامرة، أنكرت هذا الأمر قطعيًّا. ولكن، ما دمنا لا نملك دليلًا قاطعًا على أنها لم تتورط في عملية الابتزاز، فلا يمكننا القول إن ماندر لم يقتلها من أجل إسكاتها.»

«وهل تظن أنه فعل ذلك؟»

«كلا. أميل إلى الاعتقاد الثاني، كما أخبرتك. أولًا، نحن نعرف أن ماندر كان رجلًا ذكيًّا وماكرًا. إذا كان قد قتل تيومر متعمدًا، فبالتأكيد أنه قام ببعض الترتيبات للفرار بعد ذلك. ونعرف أنه اختلس مبلغًا كبيرًا من المال، وعرفنا من حيلة جواز السفر أنه كان ينوي الفرار في النهاية. غير أن الأموال كانت في حساب خاص، باسم شخص آخر لدى بنك لم يستخدمه بصفة رسمية مطلقًا.»

أومأ جيمسون. وقال: «فهمت.»

«لو كان ينوي قتلها، ما كان ليحتفظ بذلك المال في مكانٍ لا يمكنه الوصول إليه حتى يوم الإثنين على الأقل، وهو الوقت الذي ستكون جريمة القتل قد اكتُشفت بحلوله، وسيكون الوقت قصيرًا للغاية ليتمكن من الهروب.»

«هذا صحيح.»

«وأظن أنه لم يكن ليثق أيضًا في سلاح أخرق كالسكين. فالسكين هو ما أطلق عليه سلاح الاندفاع. فهو يتسبب في فوضى بالغة لدرجة أن من ينوي ارتكاب جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد لن يستخدمه. إنه من نوعية الأسلحة التي قد تستخدم في المشاجرات أو يستلها أحدهم في نوبة غضب. ولكن لا يمكن أن أتخيل ماندر يفعل ذلك. فلو كان قد عقد النية على قتل الفتاة، ما الذي سيكون أسهل من استخدام السم؟ كان بإمكانه أن يختلسه من قسم المنتجات الكيميائية في المتجر، إذا تردَّد في الذَّهاب إلى مكان آخر والتوقيع في سجل المشتريات الخاص بالسموم.»

قال جيمسون وهو ينفث دخان سيجاره: «هذا صحيح، وبالطبع لن تشكَّ الفتاة في إتيانه بمحاولة كهذه. وكان بإمكانه بكل سهولة أن يدسَّه في كأس النبيذ ويقدمه إليها.»

«بالضبط. ثمة نقطة أخرى. لو كان يُفكِّر في ارتكاب جريمة القتل، لعرَف أن أمامه فترة زمنية محدودة، لنقُلْ من الساعة العاشرة مساء يوم الأحد وحتى التاسعة على الأقل

من صباح يوم الإثنين، ليهرب. ولكنه لم يقُمْ بأي استعدادات لحزم الأمتعة، ولم يُفلِح التفتيش الدقيق المكثف في إعطائنا أي دليل على حصوله على تذاكر سفر إلى الخارج. لعله كان يأمل في السفر إلى الخارج بالطائرة، ولكن من الصعب أن يستدعيَ ويبلي من أجل هذا الغرض، ولو أنه استأجر طائرة خاصة في الساعات الأولى من الصباح، كان هذا سيلفت الانتباه إلى اتجاه رحلته عند اكتشاف الجريمة. كل هذه الإغفالات أثناء الاستعداد لا يرتكبها رجل يتسم بالمكر والذكاء وبُعد النظر، بغض النظر عن مثالبه.»

علَّق رفيقه قائلًا: «لا أرى سوى مأخذ واحد ضد هذا الافتراض يا ديفينش. لماذا وضع جثتها في واجهة العرض لو أنه لم يكن ينوي الهروب؟»

هزَّ ديفينش كتفَيه. وأردف قائلًا: «أنا فقط أعرض الحُجَج الداحضة لفرضية القتل العمد. فلو أن وفاتها كانت إثر حادث عرَضي وقع بالخطأ، لكان سيظل عليه الهروب. وكان سيعرف أن الوقت ليس كافيًا لتنظيف الرمال الملطخة بالدماء الموجودة على السطح. وكان سيعرف أيضًا أنه حتى لو استطاع أن يطمس كل آثار الجريمة الموجودة على السطح والشقة، فإن حقيقة وجود الفتاة داخل البناية ستظل قائمة وبحاجة إلى تفسير. كما ترى، لقد شهد كيفيم بأنه أخذها في رحلة نهرية في عصر ذلك اليوم، ثم قام بتوصيلها إلى المنزل. وكان السائق سيشهد بأنه اعتاد التردد مع سيده على منزل الآنسة تيومر. بعبارة أخرى، كانت العَلاقة القوية التي جمعت بين ماندر وتيومر ستَفتضِح، وبما أن ماندر كان يعيش في البناية ويمكنه النزول إلى المتجر متى شاء، فإن الشكوك كانت ستحوم حوله.»

«بالتأكيد.»

«أما لو كانت وفاتها نتيجة حادث عرضي، أو حتى ضربة متهورة، مع غياب نية الترصد، لاختلف الأمر. كان لزامًا أن يكون الهروب في هذه الحالة متسرعًا ومرتجلًا، فبحسب معلوماتنا، أو بالأحرى قناعتنا، لم يكن لديه الوقت لترتيب أي شيء. وبعد أن سحب الجثة إلى واجهة العرض بالأسفل، أطلق عليه مان المذعور النار أثناء عودته. ولا نعرف ما الذي كان سيفعله لو لم يتدخل مان. ما نعرفه أن الأحداث أثبتت أنها إما جريمة قتل بالخطأ أو جريمة قتل طائشة في نوبة غضب.»

سأله جيمسون: «ولكن، حتى إن كان الأمر كذلك، فلماذا وضع جثتها في واجهة العرض؟»

سحب ديفينش نفَسًا من سيجاره، ثم وضعه في منفضة السجائر قبل أن يُجيب سؤاله. «ليس لديَّ أيُّ معرفة نظرية بآليات عمل العقل البشري، ولكن لديَّ معرفة عملية

تتوافق مع عملي أيضًا. يقول بعض العلماء إن الحب مرض، وفي حالات معينة تظهر أعراض هذا المرض. لا أقول هذا من باب السخرية. هناك بعض الأشخاص يُظهرون ردة فعل حادة للغاية تجاه بعض العقاقير التي يُفترض أن تكون مفيدة طبيًّا إلى حدٍّ يجعل هذه العقاقير خطرًا داهمًا. بعض — أو بالأحرى أغلب — الأشخاص يقعون في الحب عادة، وتتحسن أحوالهم جراء ذلك. ولكن البعض الآخر، كما يمكنك أن تلاحظ في الصحف كل يوم، يقعون في الحب وتصيبهم غَيرة جنونية، ويتحولون في النهاية إلى قتَلة بسبب غَيرتهم هذه. ولكي أشرح لك ما أقصده في هذه الحالة، يجب أن أذكِّرك بأن ماندر كان مغرمًا حد الجنون بالآنسة تيومر؛ لقد منحها هذه الوظيفة ذات الأجر المجزي لأنه كان مفتونًا بها، وأخيرًا اقترح الهرب معها. وبما أنك تعرف الآن أنه منذ افتتاح هذا المتجر، كانت النساء يلاحقن ماندر وملايينه المفترضة؛ فتيات ينحدرن من عائلات محترمة، ينتمي أفرادها إلى أوساط فقيرة ولكنها أرستقراطية. بعبارة أخرى، كان بإمكانه أن يفوز بزيجة جيدة. وبدلًا من ذلك، اختار فتاة لا تملك شيئًا يزكيها سوى جمالها.»

قال جيمسون: «أعترف أنه كان مغرمًا بها حتمًا حد الجنون.»

أومأ ديفينش. «ها نحن نصل إلى الجانب الآخر من الستار. أعرف أن الفتاة في البداية كانت نوعًا ما فتاة انتهازية تبحث عن الثراء. خدعت ماندر، لكي تحظى منه ببعض الترف، ولكنها كانت تشعر بعاطفة تجاه كيفيم الذي كان يتودَّد إليها لفترة طويلة. ووفقًا لمعلوماتي، بدأت تيومر مؤخرًا تقع في حب كيفيم. وأظن أن لا شك في ذلك. لديَّ شعور بأنها لم تكن عشيقة لماندر أبدًا، ولكنها مجرد واحدة من الفتيات، الكثيرات في الوقت الحاضر، اللاتي يستنزفن الرجل مستغلات افتتانه بهن بكل ما أوتين من إغراءات؛ ليحصلن على الحلي والمجوهرات وما إلى ذلك، ويخرجن لتناول العشاء والذهاب إلى المسرح، وما إلى ذلك. غير أن تيومر سئمت اللعبة. وربما ازداد إلحاح ماندر؛ وربما أدركت من حقيقة أنها بدأت تحب كيفيم، الذي كان مخلصًا لها طَوال هذه الفترة، أنها كانت تلعب دَورًا ذميمًا.»

قال جيمسون: «أظن أنها كانت ستشعر بذلك إذا كانت قد وقعت في شَرَك الحب.»

«على أي حال، أعرف أنها بعد فترة من المماطلة والتردد، قبلت كيفيم بصفة رسمية. ولكنها أسرَّت لصديقة ما بأنها لا تودُّ إعلان خطبتها آنذاك، خشية التأثير المحتمل لذلك على مستقبل كيفيم؛ إذ كان من شأن ذلك أن يَحمِل ماندر على اضطهاد كيفيم.»

«وهو من نوعية الرجال الذين يستغلون هذا.»

«قطعًا. حسنًا، لإنهاء هذا الموقف، أخبرت الآنسة تيومر صديقتها في النهاية أنها قررت أن تفعل الصواب. عزمت على إخبار ماندر بخطبتها. فإذا فصل كيفيم من العمل، فإنها

ستقف بجانبه. فقد خُيل إليها أن المتاجر الأخرى سترحب بالحصول على خدمات حبيبها. كانت بصدد خوض المخاطرة على أي حال.»

«مساء الأحد ذاك؟»

«في مساء الأحد ذاك. حسنًا، ودعت كيفيم حين وصَّلها إلى منزلها، ثم انطلقت إلى شقة ماندر في وقت لاحق. واستقبلها ماندر الذي لم يكن في أفضل حالاته حسبما أظن بسبب لقائه مع والدتك. فلا بد أن ذلك اللقاء أوضح له مدى خطورة موقفه. دخلت الشقة، وخلعت قبعتها ومعطفها، وهنا لا بد أن نفترض أنها دخلت في صُلب الموضوع مباشرةً. واعترافها لماندر بأنها لا تحبه ولن تهرب معه؛ وإنما تحب مدير متجره، كيفيم، وخُطبت إليه، يفترض أنه من باب التنظير والافتراض لا أكثر. ولكن أظن أن بإمكاني أن أفترض أن هذا التصريح الصاعق أدخل ماندر في نوبة من الجنون.»

«وهل يمكنك افتراض ذلك؟»

«أجل، يمكنني. وسواء أقتلها أم لم يقتلها، فهناك حقيقة أنه حتمًا استخدم معها قدرًا من العنف. فثمة علامات على أعلى ذراعيها تثبت أن أحدهم أمسك بها. وهذا الرأي متفق عليه من قِبل كلٍّ من الطبيب الشرعي الذي فحصها، والطبيب الذي قام بتشريح الجثة.»

«فهمت. تابع حديثك.»

زمَّ ديفينش شفتَيه. وأردف قائلًا: «الآن، نستطيع أن نفترض أنهما كانا في غرفة الاستقبال في ذلك الوقت، إذ كان ذلك هو المكان الذي عُثر فيه على السكين الشبيه بالخنجر. لو أن نوبة الجنون التي أصيب بها ماندر بدأت هناك، يمكننا القول إنها حاولت الهروب منه، وفي النهاية هُرعت إلى السطح، وطُعنت من الخلف بالأعلى، أثناء محاولتها تفاديه. وموضع الجرح يوحي بوجود مقاومة أثناء الهروب منه ...»

«لكن أليس من المفترض أن تكون بصمات أصابعه على مقبض السكين؟»

«ما لم يكن قد بذل كل جهده لتنظيفه تمامًا. غير أنني أظن أنه لم يكن لديه الوقت لذلك، وأميل إلى الاعتقاد في نظرية الحادث العرضي. تلك رؤيتي لما حدث: دخلت تيومر معه إلى غرفة الاستقبال، في حالة من التوتر العصبي. كان لديها اعتراف بغيض تودُّ أن تخبره به، وكان بإمكانها أن تدرك طريقة استقباله للأمر. ودون تفكير خلعت مِعطفها وقبعتها، ورغبة منها في إنهاء كل شيء بدأت تُخبره بالوضع الراهن. وبدأت تخلع قفازها، وفي هذه الأثناء كانت تتحدث، أو تحاول الرد على اتهاماته الغاضبة. خلعت قفاز اليد اليسرى أولًا، كما يفعل الجميع، ثم حسبما أتخيل، فقدَ ماندر صوابَه وإما أنه حاول أن

يأخذها بين ذراعيه أو حاول الهجوم عليها. انتفضت وتفادته. فلا بد أن غضبه وإحباطه كانا واضحَين تمامًا. لا يمكن لأحد أن يصدق أنها اقترحت الصعود إلى السطح في ليلة من ليالي نوفمبر، ولا هو أيضًا. لذا لا بد أن وجودها بالأعلى كان نتيجة خوف أو إكراه.»

«يبدو الخوف هو التفسير الأرجح.»

«وأنا أوافقك الرأي. حسنًا، كل شيء يشير إلى حقيقة أن ماندر قد انتابه غضب جنوني. كانت بمفردها معه بالأعلى، والمتجر بالأسفل كان مغلقًا؛ كانت تعرف، أو ربما كانت تعرف، أن مسكن الخدم معزول عن الجزء السكني من الشقة بجدران متينة وباب عازل للصوت. ليس من المحتمل أن تصمد فتاة في صراع مع رجلٍ معافًى قويِّ البنيان، وبالطبع ستمسك بشيء لتدافع به عن نفسها. أعتقد أنه في خضم محاولاتها للتملص من ماندر، رأت السكين والتقطته. من المفترض أنها قد أمسكت به بيدها اليمنى، التي كانت لا تزال ترتدي بها القفاز، ولكن ما إن أمسكت به، حتى ترددت في استخدامه كأي شخص طبيعي، والنساء لا يُحببن التعامل مع السكاكين. ستلاحظ ذلك إذا اطلعت على إحصاءات الجرائم النسائية.»

«هل كانت تريد تهديده به فقط؟»

«أجل. ولكنه رجل غيور حد الجنون. وقد سيطر عليه جنونه سيطرة تامة. فتجاهل تهديدها ومضى في طريقه. رأت أنها لا بد أن تطعنه أو تبذل محاولة أخرى للإفلات منه. وفي ظل هذا المأزق البائس، لا بد أنها فكرت في السلم المؤدي إلى السطح. واستطاعت أن تخرج من الغرفة ومنها إلى هذا السلم. يخيل إليَّ أن ماندر قد لحق بها على السلم وأمسكها من الخلف من ذراعَيها. وهنا لدينا دليل طبي آخر، ولكن هذه المرة بخصوص ماندر. فعند العثور عليه، وُجد أنه يعاني من كدمات جانبية على قصبتَي الساقين من الأمام. وبدا لي أنه ركض على السلم وراءها وتعثرت قدماه أثناء محاولة الإمساك بها، مما تسبب في اصطدام قصبتَي الساقين بإحدى درجات السُّلَّم، فأفلتت منه بصفةٍ مؤقتة.»

«ومِن ثَم هربَت وصعدَت إلى السطح، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد. تحررت من قبضته وهُرعت إلى السطح المظلم. وتعافى هو من سقوطه وركض خلفها. ولحق بها عند الموضع الذي وضعت فيه كومة الرمال، لتسهيل هبوط الطائرة الجايروكوبتر. وهناك ربما صارت محاصرة، ويداها خلف ظهرها، ممسكةً بإحداهما السكين، أو لعله انقض عليها ودفعها إلى الخلف بقوة؛ فلم يكن سيستطيع تقدير المسافات في الظلام. ولكن سواء أكان بسبب المقاومة، أم أنها سقطت إلى الوراء فوق

كومة الرمل غير الواضحة المعالم، فقد سقطت الآنسة تيومر على السكين، وتوفيت نتيجةً لجرح في العمود الفقري. هذه هي فرضيتي عن الواقعة، وأظن أن هذا ما حدث بالفعل.»

قال جيمسون في إعجاب: «يبدو أنك اقتربت كثيرًا من الحقيقة، ولكن هل نظرية عدم التعمُّد تتفق مع عرضه لجثتها في واجهة العرض أمام العيان، وفي زيٍّ تنكري أيضًا؟»

أومأ ديفينش. «في حالته غير الطبيعية هذه، أظن أنها تتفق. لقد أغدق الرجل بعواطفه وأمواله على امرأة كانت تخونه، وها هي الآن تعلن أنها ستتزوج مدير متجره. لم يكن بإمكانه أن يتركها في شقته، ودفعه كرهه لها في تلك اللحظة إلى السخرية منها. أتخيله وهو يقول في نفسه إنها استخدمته كوسيلة لتحصل على المال وتشتري الملابس الأنيقة وتبهر الآخرين بأناقتها. حسنًا، ينبغي لها أن تقتني الملابس الأنيقة وتلفت الأنظار قدرَ ما تتمنى! وثمة دافع ثانٍ. إذا كان قد كرهها لأنها خدعته، فمن شأنه أن يكره الرجل الذي فضَّلته عليه أضعافًا مضاعفة، أقصد كيفيم. كان كيفيم المدير. وكان سيُستدعى عند اكتشاف الجثة في واجهة العرض.»

«يا إلهي. أنت محق يا ديفينش.»

«لا بد أنه تخيَّل أن هذا سيكون انتقامًا سائغًا. سيُستدعى كيفيم، وأول شيء سيراه هو الفتاة الميتة التي وعدته بالزواج.»

أخذ جيمسون نفَسًا عميقًا. ثم قال: «صحيح. ستكون ضربة موجعة للرجل الآخر.»

«كان ماندر مُضطرًّا إلى الهروب بعد ذلك على أي حال. كانت طلقته الأخيرة قبل أن يغادر. وسواء أكان سيحقق مآربه من ذلك أم لا فهو أمر يخضع للتكهنات، ولسنا بحاجة للخوض في ذلك. ألبسَ الفتاة هذا الزي التنكري، ونزل بهدوء عندما كان مان يقوم بجولته، وقطع سلك الميكروفون. ثم صعِد وأحضر الجثة إلى أسفل مستخدمًا أحد المصاعد (مرتديًا قناعًا، تحسبًا لاحتمال أن يلمحه الحارس)، ووضع الجثة على كرسي في واجهة العرض. وأثناء صعوده ثانيةً، رآه صديقنا الحارس المفزوع وأطلق عليه النار قبل أن ينزل المصعد إلى مستوى الطابَق الذي كان يقف فيه الحارس. وأظن أننا نعرف البقية.»

أشار جيمسون إلى النادل وطلب الفاتورة. وقال بفضول: «هل يجب عليك حقًّا أن تحاكموا ذلك المسكين يا ديفينش؟»

أومأ ديفينش برأسه بالإيجاب. ثم قال: «أخشى أن الأمر سيَئول إلى محاكمة يا سيدي، ولكن من واقع معرفتي بالقضاة والمحلفين البريطانيين، فإنه لن يُحكم عليه. فهناك غياب كامل للدافع؛ فبما أن مان ارتكب جريمة قتل، فلا يوجد منطق في القضية على الإطلاق.

ثم إن قدرًا كبيرًا من الأمر متوقف على طريقة توجيه وكيل المدعي العام وطريقة عرضه للقضية. ستكون كل ملاحظاتنا بين يديه وكذا أقوال مان الموقعة منه. يجب أن أعود الآن للحصول عليها بالمناسبة؛ بعبارة أخرى، النيابة لن تستعجل القضية، وسيخرج مان من القضية دون عقوبة، بعد عظة قصيرة من القاضي بخصوص خطورة حيازة الأسلحة النارية. لا أظن أنني كنت سأقلق بشأنه لو كنت مكانك.»

قاما من مكانَيهما، ودفع جيمسون الحساب. ثم قال: «حسنًا أيها المحقق، كان فضلًا كبيرًا منك أن أخبرتني بما يدور في ذهنك، وأشعر بارتياح كبير إزاء ذلك المسكين. وهذا ما زاد شعوري بالسعادة. بالمناسبة، تفضَّل بزيارتنا يومًا ما في بارستون كورت. فقط أعلمني قبلها، وسنسعد كثيرًا باستقبالك.»

رد ديفينش مبتسمًا: «يا له من لطف شديد منك أن تعرض ذلك يا سيدي، وسيسعدني المجيء عندما أحصل على إجازة. أوه، نسيت أن أقول لك إنه يمكنك إعادة فتح المتجر في أي يوم الآن. هلا تكرمت بإخبار السيدة بيدن-هايث بهذا الأمر؟»

حدَّق جيمسون إليه. ثم قال: «إعادة فتح المتجر! سأخجل منها إذا لم تبِع هذا المكان اللعين؛ سحقًا، بعد هذه الحادثة سأكره النظر إلى أي واجهة عرض يا رجل!»

هنـــداوي